حَيَاةُ
عَمْرُو بْن العَاص

محمود شلبي

حياة
عمرو بن العاص

فاتح فلسطين ومصر وشمال أفريقيا والسودان

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

الإهداء

اللهم.. منك.. وإليك

محمود شلبي


To: www.al-mostafa.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمد الله تعالى حمدًا لا يتناهى..
وأصلي وأسلم على رسوله الكريم... عدد الخلْق أجمعين...
وبعد...

منذ شرعت في تأليف سلسلة «حياة الأنبياء» وسلسلة «حياة الصحابة» وسلسلة «حياة عظماء الإسلام»... استبعدت منذ البداية أن أكتب عن «حياة عمرو بن العاص» رضي الله عنه... لما ترَسَّب في أعماقي منذ الطفولة عن موقفه في قضية التحكيم بين عليّ ومعاوية!!!

ومضت الأيام بل السنون... فرأيتني أقول في نفسي: لكن عَمْرًا فصْل ضخم من فصول الإسلام... يتحتم الحديث عنه إذا كان هناك حديث عن شخصيات الإسلام!...

أمَّا ما كان منه من مواقف يكرهها فريق من المسلمين... فأمره فيها مفوض إلى ربِّه... هو تعالى أعلم به: هل كان ما صنع شيئًا لنصرة الإسلام... أم شيئًا إرادة الدنيا؟!

ولكن يبقى عمرو بعد ذلك عملاقًا من عمالقة الإسلام.. فاتحًا لفلسطين... والقدْس... ومصر... وشمال إفريقيا... والسودان... ولولا أن منعه أمير المؤمنين من مواصلة الزحف غرْبًا لبلغ شاطئ الأطلنطي!!!

ذلكم عمرو... وتلك آثاره!!! رضي الله عنه!!!

١٤١٢ هـ
١٩٩٢ م

محمود شلبي

مناقب...

عمرو...

ابن العاص؟!

وآمَنَ عَمْرُو؟!

عن عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ... قال: «قالَ رَسولُ اللهِ (ﷺ): «أَسْلَمَ النَّاسُ وآمَنَ عَمْرُو بنُ العاص».

[أخرجه الترمذي وقال: ليس إسنادُهُ بالقوِيِّ].

مِنْ صالحي قُرَيْش؟!

«قالَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ: «سَمِعْتُ رسولَ اللهِ (ﷺ) يقولُ: «إِنَّ عَمْرَو بْنَ العاصِ مِنْ صالحي قُرَيْشٍ».

[أخرجه الترمذي وقال: ليس إسنادُهُ بمتَّصِلٍ].

أقول: قال الإمام الترمذي عن الحديث الأول: ليس إسناده بالقويّ... وقال عن الحديث الثاني: ليس إسناده بمُتَّصِلٍ!!!

وعلى هذا يمكن أن نأخذ هذين الحديثين من باب الاستئناس... ولا نعول عليهما كثيرًا!!!

ولكن هل معنى هذا أنَّ عَمْرو بن العاص ليس له مناقب؟!

أقول: إنما تُلتمس مناقبه في فتوحاته... وآثار تلك الفتوحات الممتدة!!!

فكم يساوي فتح القدس؟!

وكم يساوي فتح فلسطين؟!

ثم كم يساوي فتح مصر؟!

ثم كم يساوي فتح إفريقيا؟!

ثم كم يساوي فتح السودان؟!

الخلاصة كم يُساوي دخول الإسلام إلى هذه الأقطار؟!

وكم يبلغ أجْر عمرو بن العاص عند الله... عن الملايين التي دخلت الإسلام في هذه الأقطار جميعًا إلى يوم القيامة؟!!

الخطوط العريضة...
من حياة...
عمرو بن العاص...؟!

قال صاحب «أُسْد الغابة في معرفة الصحابة»:

عمرو بن العاص؟!

عَمْرو بنُ العاص...

ابن وائل... بن هاشم... بن سُعَيد... بن سَهْم... بن عمرو... بن هُصَيص... بن كعب... بنُ لُؤيّ... بن غالب... القُرَشي السهمي...

يكنى أبا عبد الله...

وقيل: أبو محمد...

أُمُّه؟!

وأُمّه: النابغة بنت حرملة... سبية من بني جلَّان بنِ عَتيك بن أسلم بن يذكُرُ... بن عَنَزَة...

أخوه؟!

وأخوه لأمه عمرو بن أَثاثة العَدَوي...

وعقبة بن نافع بن عبد قيس الفِهْري...

وسأل رجلٌ عَمرو بن العاص عن أُمّه...

فقال: سلمى بنت حرملة... تلقب النابغة من بني عَنَزة... أصابتها رماح العرب... فبيعت بعكاظ... فاشتراها الفاكه بن المغيرة... ثم اشتراها منه عبدالله

ابن جَدْعان... ثم صارت إلى العاص بن وائل... فولدت له... فأنجبت...
فإن كان جُعِل لك شيء فخُذْه...

أرسلته قريش إلى النجاشي؟!

وهو الذي أرسلته قريش إلى النجاشي ليسلم إليهم مَن عنده من المسلمين: جعفر بن أبي طالب ومن معه...
فلم يفعل، وقال له: يا عمرو، وكيف يَعْزُبُ عنك أمرُ ابن عمك؟!
«فوالله إنه لرسول الله حقًّا!...
قال: أنت تقول ذلك؟!...
قال: إي والله، فأطعني!!!

هل أسلم عند النجاشي؟!

فخرج من عنده مهاجرًا إلى النبيّ (ﷺ)...
فأسلم عام خيبر...
وقيل: أسلم عند النجاشي، وهاجر إلى النبي (ﷺ)...

أسلم سنة ثمان؟!

وقيل: كان إسلامه في صفر سنة ثمان قبل الفتح بستة أشهر...
وكان قد همّ بالانصراف إلى النبي (ﷺ) من عند النجاشي...
ثم توقف إلى هذا الوقت!...
وقدم على النبي (ﷺ) هو وخالد بن الوليد... وعثمان بن طلحة العبدري...
فتقدم خالد وأسلم وبايع...
ثم تقدم عَمْرو فأسلم وبايع... على أن يغفر له ما كان قبله!...
فقال له رسول الله (ﷺ):

«الإسلام والهجرة يَجُبُّ ما قبله»[1].

أميرًا على سَرِيّة؟!

ثم بعثه رسول الله (ﷺ) أميرًا على سَرِية إلى ذات السلاسل... إلى أخوال أبيه العاصي بن وائل...

وكانت أمه من بَلِيّ بن عمرو بن الحاف بن قُضاعة... يدعوهم إلى الإسلام... ويستنفرهم إلى الجهاد...

فسار في ذلك الجيش وهم ثلاثمائة... فلما دخل بلادهم استمدّ رسول الله (ﷺ) فأمدّه...

فإني أمير عليك؟!

عن ابن إسحاق قال:

حدثني محمد بن عبد الرحمن بن عبدالله بن الحُصَين التميمي... عن غزوة ذات السلاسل من أرض بَلِيّ وعُذْرة... قال:

بعث رسول الله (ﷺ) عمرو بن العاص يستنفر الأعراب إلى الشام...

وذلك أن أمّ العاص بن وائل امرأة من بَلِيّ...

فبعثه رسول الله (ﷺ) يستألفهم بذلك...

حتى إذا كان على ماءٍ بأرض جُذَام... يقال له السلاسل... وبذلك سميت تلك الغزاة ذات السلاسل...

فلما كان عليه خاف... فبعث إلى رسول الله (ﷺ) يستمده...

فبعث إليه أبا عُبيدة بن الجراح في المهاجرين الأوّلين...

فيهم أبو بكر... وعمر...

وقال لأبي عبيدة: «لا تختلفا»...

فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم عليه قال له عمرو: إنما جئت مَددًا لي...

---

(١) أي يقطع ويمحو ما قبله.

فقال أبو عبيدة: لا... ولكني أنا على ما أنا عليه... وأنت على ما أنت عليه...

وكان أبو عبيدة رجلًا سهلًا لينًا هيِّنًا عليه أمر الدنيا.

فقال له عمرو: بل أنت مَدَدٌ لي...

فقال أبو عبيدة: يا عمرو... إن رسول الله (ﷺ) قال لي «لا تختلفا»... وإنك إن عصيتني أطعتك...

فقال له عمرو: فإني أمير عليك...

قال: فدونك!...

فصلّى عمرو بالناس!...

وآمَنَ عَمْرو؟!

واستعمله رسول الله (ﷺ) على عُمان... فلم يزل عليها إلى أن توفي رسول الله (ﷺ)...

«عن عُقبة بن عامر قال:

«قال رسول الله (ﷺ):

«أسلم الناس، وآمن عَمْرو بن العاص».

وقال طلحة بن عبيد الله: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول:

«إن عمرو بن العاص من صالحي قريش».

عمرو الفاتح... يتقلب في أعلى المناصب؟!

ثم إن عَمْرًا سيّره أبو بكر أميرًا إلى الشام...

فشهد فتوحه...

وَوَلي فلسطين لعمر بن الخطاب...

ثم سيره عمر في جيش إلى مصر... فافتتحها...

ولم يزل واليًا عليها إلى أن مات عُمر...

فأمَّره عليها عثمان أربع سنين... أو نحوها...
ثم عزله عنها... واستعمل عبدالله بن سَعد بن أبي السرح...
فاعتزل عمرو بفلسطين...
وكان يأتي المدينة أحيانًا...
وكان يطعن على عثمان...
فلما قتل عثمان سار إلى معاوية وعاضده...
وشهد معه صِفِّين...
ومَقامه فيها مشهورا!!!

أحَد الحَكَمَيْن؟!

وهو أحد الحكمين... والقصة مشهورة!!!

يستنقذ مصر ويحكمها؟!

ثم سيره معاوية إلى مصر فاستنقذها من يد محمد بن أبي بكر... وهو عاملٌ لعليّ عليها...
واستعمله معاوية عليها...
إلى أن مات سنة ثلاث وأربعين...
وقيل سنة سبع وأربعين...
وقيل: سنة ثمان وأربعين...
وقيل: سنة إحدى وخمسين...
والأَوَّل أصح.

شجاع وبطل وداهية؟!

وكان يخضبُ بالسواد...
وكان من شجعان العرب وأبطالهم ودُهاتهم...

دُفِن بالمقطم؟!

وكان موته بمصر...
ليلة عيد الفطر...
فصلى عليه ابنه عبدالله...
ودفن بالمقطم...
ثم صَلَّى العيد...
وولي بعده ابنه... ثم عزله معاوية واستعمل بعده أخاه عتبة بن أبي سفيان!!!

اللهم إنك أمرتني... فلم أأتمر؟!

ولما حضرته الوفاة قال:
اللهم إنك أمرتني فلم أأتمر.. وزجرتني فلم أنزجر...
- ووضع يده على موضع الغل وقال:
«اللهم لا قويّ فأنتصر...
ولا بريء فأعتذر...
ولا مستكبر بل مستغفر...
لا إله إلا أنت»...
فلم يزل يرددها حتى مات!!!

عمرو بن العاص... يتحدث عن عمرو بن العاص؟!

وروى يزيد بن أبي حبيب... أن عبد الرحمن بن شُمَاسة حدّثه قال:
«لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة بكى...
فقال ابنه عبدالله: لم تبكي؟...
أجزعًا من الموت؟

قال: لا والله... ولكن لِما بعد الموت...

فقال له: كنتَ على خير...

وجعل يذكر صحبته لرسول الله (ﷺ)...

وفتوحه الشام ومصر...

فقال عمرو: تركتَ أفضل من ذلك... شهادة أن لا إله إلا الله...

إني كنتُ على أطباق[1] ثلاث...

- كنتُ أوّل شيء كافرًا... فكنت أشدَّ الناس على رسول الله (ﷺ).... فلو مِتُّ حينئذٍ وجبت لي النار...

- فلما بايعت رسول الله (ﷺ) كنتُ أشد الناس حياء منه... فلو مِتُّ لقال الناس: هنيئًا لعمرو، أسلم، وكان على خير، ومات فترجى له الجنة...

- ثم تلبَّسْتُ بالسلطان وأشياءَ... فلا أدري أعليَّ أم لي؟!...

فإذا مت فلا تبكيَنَّ عليّ باكية... ولا تتبعني نائحة ولا نار...

وشدوا عليّ إزاري، فإني مخاصم...

وسُنُّوا[2] عليَّ التراب... فإن جنبي الأيمن ليس بأحق بالتراب من جنبي الأيسر...

ولا تجعلن في قبري خَشَبةً ولا حجرًا...

وإذا واريتموني فاقعدوا عندي قدر نحر جَزور وتقطيعه...

أستأنس بكم..

وأنظر ماذا أُوَامر رُسُل ربي!!!

روى عنه ابنه؟!

روى عنه ابنه عبد الله... وأبو عثمان الفهري... وقَبيصة بن ذؤيب... وغيرهم.

---

(١) أي: أحوال.

(٢) أي ضعوه وضعًا سهلًا.

«عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص...

«عن عمرو بن العاص... قال:

«قال رسول الله (ﷺ):

«إذا حكم الحاكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد»...

وكان عمرو قصيراً!!!

في جاهليته...

عمرو يخادع النجاشي...

ليسلمه مَن هاجر إليه...

مِن المسلمين والمسلمات؟!

كان عمرو داهية ماكرًا... في جاهليته!!!

وداهية ماكرًا في إسلامه!!!

من أجل ذلك وقع اختيار قريش عليه... وأرسلته سفيرًا عنها إلى النجاشي... ملك الحبشة... ليسلمه مَن فرَّ إليه من المؤمنين والمؤمنات... ويعود بهم إلى مكة... ليفعلوا بهم من صنوف الأذى ما يريدون!!!

فكيف كان ذلك؟!

لو خرجتم إلى أرض الحبشة؟!

قال ابن هشام:

«فلما رأى رسول الله... (ﷺ)... ما يُصيب أصحابه من البلاء...

«وما هو فيه من العافية... بمكانه من الله... ومن عمه أبي طالب...

«وأنّه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء...

«قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة... فإنّ بها مَلِكًا لا يُظلم عنده أحد... وهي أرض صِدْق... حتى يجعل الله لكم فرجًا ممّا أنتم فيه...

«فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله... (ﷺ)... إلى أرض الحبشة... مخافةَ الفتنة... وفرارًا إلى الله بدينهم...

«فكانت أوّل هجرة... كانت في الإسلام...»

بعض من هاجروا الهجرة الأولى إلى الحبشة؟!

«وكان أوّل من خرج من المسلمين من بني أُميَّة... عثمان بن عفّان... معه امرأتُه... رُقيّة... بنتُ رسول الله... (ﷺ)...

«ومن بني عبد شمْس... أبو حُذَيْفة... مع امرأَتُه... سَهْلة بنت سُهَيْل بن عمرو... ولدت له بأرض الحبشة... محمد بن أبي حُذَيْفة...

«ومن بني أَسَد... الزُّبير بن العوّام...

«ومن بني عبد الدار بن قُصَيّ... مُصعب بن عُمَير... بن هاشم... بن عبد مناف... بن عبد الدار...

«ومن بني زُهرة... عبد الرحمن بن عوف...

«ومن بني مخزوم... أبو سَلمة... مع امرأَتُه... أمُّ سَلَمة...

«ومن بني جُمْح... عثمان بن مَظْعون...

«ومن بني عديّ... عامر بن ربيعة... معه امرأته... ليلى بنت أبي حَثْمة...

«ومن بني عامر... أبو سَبْرة...

«ومن بني الحارث... سُهَيْل بن بيضاء...

«فكان هؤلاء العشرة... أوّلَ من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة...

«قال ابن هشام: وكان عليهم عثمان بن مَظْعون... فيما ذكر لي بعض أهل العلم...

هجرة جعفر؟!

«ثم خرج جعفر بن أبي طالب... رضي الله عنه... وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة... فكانوا بها... منهم مَن خرج بأهله معه... ومنهم مَن خرج بنفسه... لا أهلَ له معه...»

عدد المهاجرين إلى الحبشة؟!

«فكان جميع من لحق بأرض الحبشة... وهاجر إليها من المسلمين... سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغارًا وولدوا بها.. ثلاثة وثمانين رجلًا...»

قريش تُرسل عَمْرًا إلى الحبشة في طلب المهاجرين إليها؟!

«فلما رأت قُريش أن أصحاب رسول الله... (ﷺ)... قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها دارًا وقرارًا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجُلين من قريش جَلْدين إلى النجاشي، فيردّهم عليهم، ليَفْتنوهم في دينهم، ويُخْرجوهم من دارهم، التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها، فبعثوا عبدالله بن أبي رَبيعة، **وعمرو بن العاص ابن وائل**، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته، ثم بعثوهما إليه.

عمرو يخادع النجاشي؟!

«عن أمّ سَلَمة بنت أبي أُميَّة بن المُغيرة زوج رسول الله... (ﷺ)... قالت: لما نزلنا أرض الحبشة، جاوَرْنا بها خيرَ جارٍ النجاشيّ، أمِنَّا على ديننا، وعبدْنَا الله تعالى لا نُؤْذَى ولا نَسمع شيئًا نكرهه؛ فلما بلغ ذلك قريشًا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشيّ فينا رجلَيْنِ منهم جَلْدَين، وأن يُهْدوا للنجاشيّ هَدايا مما يُستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأَدَم (الجلود)، فجمعوا له أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بَطارقته بطْريقًا إلا أهْدَوْا له هديَّة، ثم بعثوا بذلك عبدَالله بن أبي رَبيعة، **وَعَمْرو بن العاص**، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفَعا إلى كلّ بطْريق هديَّته قبل أن تكلما النجاشيّ فيهم، ثم قدّما إلى النجاشيّ هَداياه، ثم سَلاه أن يُسَلِّمهم إليكما قبل أن يكلمهم. قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشيّ، ونحن عنده بخير دار، عند خير جار. فلم يبقَ من بطارقته بِطْريقٌ إلا دَفَعا إليه هديَّته قبل أن يُكلِّما النجاشيّ، وقالا لكلّ بطْريق منهم: إنه قد ضَوَى (لجأ) إلى بَلَد الملك منّا غلْمانٌ سفهاء، فارقوا دينَ قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مُبتدع، لا

نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بَعَثَنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم ليردّهم إليهم، فإذا كلّمنا الملكَ فيهم، فأشيرُوا عليه بأن يُسْلِمَهُمْ إلينا ولا يكلِّمهم، فإن قومَهم أَعْلَى بهم عَيْنًا (أبصر بهم)، وأعلم بما عابوا عليهم؛ فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قدّما هداياهما إلى النجاشيّ فقَبلها منهما، ثم كلّماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد ضَوى (لجأ) إلى بلدك منا غِلْمان سفهاء، فارقوا دينَ قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدينٍ ابتدعوه، لا نَعْرفه نحن ولا أنت، وقد بَعَثَنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردّهم إليهم، فهم أعْلَى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه. قالت: ولم يكن شيء أبغضَ إلى عبدالله بن أبي رَبيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامَهم النجاشي. قالت: فقالت بطارقته حوله: صَدَقَا أيها الملك قومهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم. قالت: فغضب النجاشيّ، ثم قال: لاها الله، إذن لا أُسلمهم إليهما، ولا يُكاد قومٌ جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على مَنْ سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتُهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك مَنعتُهم منهما، وأحسنتُ جوارهم ما جاوروني»!!!

إحضار النجاشي للمهاجرين، وسؤاله لهم عن دينهم، وجواب جعفر عن ذلك؟!

«قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله... (ﷺ)... فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضُهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جِئْتموه؟ قالوا: نقول: والله ما عَلِمْنا، وما أمرَنا به نبيُّنا... (ﷺ)... كائنًا في ذلك ما هو كائن. فلما جاءوا، وقد دعا النجاشيّ أساقفتَه[1]، فنشروا مصاحفهم حولَه سألهم فقال لهم: ما هذا الدينُ الذي قد فارقتم فيه قومَكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من

(١) علماء دينهم.

هذه الملل؟ قالت: **إن الذي كلَّمه جعفَر بن أبي طالب (رضوان الله عليه)**، فقال له: أيها الملك، كنّا قومًا أهلَ جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منّا الضعيف؛ فكنّا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبَه وصِدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبدَه، ونخلَع ما كنّا نعبد نحنُ وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمَرَنا بِصِدْقِ الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرَّحم، وحُسنِ الجوار، والكَفّ عن المَحارم والدّماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزّور، وأكل مال اليتيم، وقذْف المُصحنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نُشركُ به شيئًا، وأمرنا بالصَّلاة والزكاة والصيام – قالت: فعدّد عليه أمورَ الإسلام – فصدّقناه وآمنّا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحدَه، فلم نشرك به شيئًا، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحلَلْنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومُنا، فعذّبونا، وفَتنونا عن ديننا، ليردُونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحلّ ما كنّا نستحلًّ من الخبائث، فلمّا قَهرونا وظَلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على مَنْ سواك؛ ورغبنا في جوارك، ورَجوْنا أن لا نُظلم عندك أيها الملك. قالت: فقال له النجاشيّ: هل معك مما جاء به من عند الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشيّ: فاقرأه عليّ؛ قالت: فقرأ عليه صدرًا من ﴿**كهيعص**﴾ [مريم: ١]. قالت: فبكى والله النجاشيُّ حتى اخضلَّت (ابتلت) لحيتُه، وبكت أساقفتُه حتى أخْضلوا مَصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم؛ ثم قال لهم النجاشيّ: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مِشكاةٍ[1] واحدة، انطلقا، فلا والله لا أَسْلمهم إليكما، ولا يُكادون»!!!

عمرو يواصل خداع النجاشي؟!

«قالت: فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينَّه غدًا عنهم بما

(١) الكوة غير نافذة؛ وقيل هي الحديدة التي يعلق عليها القنديل، أراد أن القرآن والانجيل كلام الله تعالى، وأنهما من شيء واحد.

استأصل به خَضْرَاءهم. قالت: فقال له عبدالله بن أبي ربيعة، وكان أتْقى الرَّجلَين فينا: لا نفعل، فإنّ لهم أرْحامًا، وإنْ كانوا قد خالفونا؛ قال: والله لأخبرنَّه أنهم يزعمون أن عيسى ابنَ مريم عَبْدٌ. قالت: ثم غدا عليه من الغد فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مَرْيم قولًا عظيمًا، فأرسِل إليهم فسَلْهم عما يقولون فيه. قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه. قالت: ولم ينزل بنا مثلُها قطُّ. فاجتمع القوم، ثم قال بعضُهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبيُّنا، كائنًا في ذلك ما هو كائن. قالت: فلمَّا دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ قالت: فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبيُّنا (ﷺ)، (يقول): هو عبدُ الله ورسولُه وروحه وكَلِمَتُهُ ألقاها إلى مَريم العذراء البتول. قالت: فضرب النجاشيُّ بيده إلى الأرض، فأخذ منها عودًا ثم قال: والله ما عدا عيسى ابنَ مريم ما قلتَ هذا العودَ، قالت: فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال؛ فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شُيومٌ بأرضي - والشُّيوم: الآمنون - من سَبَّكم غَرِم، ثم قال: من سَبَّكُم غَرِم، ثم قال: من سبَّكم غَرِم. ما أُحبّ أن لي دَبرًا من ذهب، وأني آذيت رجلًا منكم - قال ابن هشام: ويقال دبرًا من ذهب، ويقال: فأنتم سيوم والدبر، (بلسان الحبشة): الجبل - ردُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرّشوة حين ردّ عليّ مُلْكي، فآخذَ الرّشوَة فيه، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه. قالت: فخرجا من عنده مَقْبوحَين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار، مع خير جار.»!!!

أبشروا...؟!

قالت: «فوالله إنّا لعَلى ذلك، إذ نزل به رجلٌ من الحبشة ينازعه في مُلْكه، قالت: فوالله ما علمتُنا حَزِنّا حزنًا قطّ كان أشدّ علينا من حُزْنٍ حزنّاه عند ذلك، تَخَوُّفًا أن يظهر ذلك الرجلُ على النجاشيّ، فيأتي رجلٌ لا يعرف مِنْ حقِّنا ما كان النّجاشيُّ يعرف منه. قالت: وسار إليه النجاشيُّ، وبينهما عرضُ النيل، قالت: فقال أصحاب رسول الله... صلى الله عليه وعلى آله وسلم: مَنْ رجلٌ يخرج حتى يحضر وقيعةَ

القوم ثم يأتينا بالخبر؟ قالت: فقال الزبير بن العوّام: أنا. قالوا: فأنت. وكان من أحدث القوم سنًّا. قالت: فنفخوا له قِرْبةً فجعلها في صَدره، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها مُلْتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم. قالت: فدعونا الله تعالى للنجاشيّ بالظهور على عدوّه، والتّمْكين له في بلاده. قالت: فوالله إنّا لعَلى ذلك مُتوقِّعون لما هو كائن، إذ طلع الزُّبير وهو يسعى، فلمع بثَوْبه وهو يقول: ألا أبْشروا، فقد ظفر النجاشيّ، وأهلك اللّهُ عدوه، ومكن له في بلاده. قالت: فوالله ما علمتنا فَرِحْنا فرحةً قطّ مثلها، قالت: ورجع النجاشي، وقد أهلك الله عدوَّه، ومكَّن له في بلاده، واستوسق[1] عليه أمر الحبشة، فكنا عنده في خير مَنْزلٍ، حتى قدمْنا على رسول الله... (ﷺ)... وهو بمكة».

عمرو يتجرع الهزيمة!!...

وجعفر يحاور النجاشي ويتلو عليه صدر سورة مريم؟!

النجاشي يبكي حتى ابتلت لحيته... ويبكي من حوله أساقفته... حين سمعوا صدر سورة مريم... يتلوها عليهم جعفر بن أبي طالب... رضي الله عنه...

مشهد عظيم... من مَلِك عظيم...

وإحساس كريم.. من ملِك كريم...

النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟...

جعفر: نعم...

النجاشي: فاقرأه عليّ...

جعفر:

«أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كهيعص﴾.

---

(١) واستوسق: تتابع واستمر واجتمع. وفي سائر الأصول: «استوثق».

﴿ذِكْرُ رَحْمتِ ربِّكَ عَبْدَهُ زكريَّا

﴿إِذْ نادَى ربَّهُ نداءً خَفِيًّا

﴿قالَ ربِّ إنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي واشتَعَلَ الرأسُ شيْبًا وَلَمْ أكُن بدُعائِكَ ربِّ شقِيًّا.

﴿وإِنِّي خِفتُ المَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَدُنْك وَلِيًّا.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِن آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ ربِّ رَضِيًّا.

﴿يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا.

﴿قالَ ربِّ أَنَّى يكونُ لي غُلامٌ وكانتِ امْرَأتِي عاقِرًا وقدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عتِيًّا.

﴿قالَ كذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّـنٌ وقَدْ خلَقْتُكَ مِن قبْلُ ولَمْ تَكُ شَيْئًا.

﴿قالَ ربِّ اجعَل لي آيَةً قالَ آيَتُكَ ألَّا تُكَلِّمَ الناسَ ثَلاثَ ليالٍ سوِيًّا.

﴿فخرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ المِحْرابِ فأوْحَى إِلَيْهِمْ أن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا.

﴿يا يَحْيَى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وآتيناهُ الحُكْمَ صَبِيًّا.

﴿وحَنَانًا مِن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وكان تقيًّا.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ ولَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا.

﴿وسلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ويَوْمَ يموتُ ويَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا.

﴿وَاذْكُرْ فِي الكتابِ مَرْيَمَ اذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مكانًا شرْقِيًّا.

﴿فاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فأرْسَلْنَا إليْها رُوحَنَا فتمَثَّلَ لَها بَشَرًا سويًّا.

﴿قالتْ إِنِّي أعوذُ بِالرحمنِ مِنكَ إن كنتَ تقيًّا

﴿قالَ إِنَّمَا أنا رسُولُ ربِّك لأَهَبَ لكِ غُلامًا زَكِيًّا.

﴿قالتْ أَنَّى يكونُ لي غُلامٌ ولمْ يَمسَسْني بَشَرٌ ولمْ أكُ بغِيًّا.

﴿قالَ كذلِك قالَ ربُّكِ هوَ عَليَّ هَيِّـنٌ ولِنَجْعلَهُ آيةً للناسِ ورحمةً منَّا وكانَ أمْرًا مَقْضِيًّا.

﴿فحمَلَتْهُ فانتبذَتْ بِهِ مكانًا قصيًّا.

﴿فَأَجاءَها المَخَاضُ إلى جِذْعِ النَّخْلةِ قالَتْ يا ليتني مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا.
﴿فناداها مِن تَحْتِها ألّا تَحْزني قدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتكِ سَرِيًّا.
﴿وهُزِّي إليْكِ بِجِذْعِ النخلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا.
﴿فكُلي واشْرَبي وَقَرِّي عينًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أحَدًا فقُولي إنّي نَذَرْتُ للرحمنِ صوْمًا فلنْ أُكلِّمَ اليوْمَ إنسِيًّا.
﴿فأتَتْ بِهِ قوْمَها تَحْمِلُهُ قالوا يا مَرْيَمُ لقدْ جِئْتِ شيئًا فَرِيًّا.
﴿يا أُختَ هارونَ ما كانَ أَبُوكِ اِمْرَأَ سَوْءٍ وما كانَتْ أُمُّكِ بغيًّا.
﴿فأشارَتْ إليْهِ قالوا كيفَ نُكلِّمُ مَن كانَ في المَهْدِ صَبِيًّا.
﴿قالَ إنِّي عبْدُ اللهِ آتانِيَ الكتابَ وجَعَلَنِي نبِيًّا.
﴿وجَعلني مُباركًا أيْنَ ما كنتُ وأوصاني بالصلاةِ والزكاةِ ما دُمْتُ حيًّا.
﴿وبَرًّا بِوَالدَتي ولمْ يَجْعَلنِي جبَّارًا شقِيًّا.
﴿والسَّلامُ عَلَيَّ يوْمَ وُلِدتُ ويوْمَ أموتُ ويوْمَ أُبعثُ حيًّا.
﴿ذلكَ عِيسَى ابْنُ مريَمَ قوْلَ الحَقِّ الذي فِيهِ يَمْتَرُونَ.
﴿ما كانَ للهِ أن يتَّخذَ مِن ولدٍ سُبحانَهُ إذا قَضَى أمْرًا فإنّما يقولُ لهُ كُن فيَكُونُ.
﴿وإنَّ اللَّهَ رَبِّي وربُّكُمْ فاَعبُدُوهُ هذَا صراطٌ مستقيمٌ﴾

[مريم ١-٣٦]

النجاشي – (وقد جعل يبكي، وأساقفته يبكون): **إن هذا والذي جاء به عيسى... ليخرج من مشكاة واحدة...**

– **انطلقا** (مشيرًا إلى عمرو بن العاص... وعبدالله بن أبي ربيعة... رسولي قريش... وقد غضب عليهما غضبًا شديدًا)...

– **فلا والله... لا أُسلمهم إليكما... ولا يكادون!!!**

وخرج عمرو وصاحبه... يجران أذيال الخيبة...

شهد جعفر مع رفاقه ذلك المشهد الخالد...

ورأى بعينيه... كيف أن الإسلام الذي حاصرته قريش في مكة... قد أشرق نوره في قلب ملك عظيم... رقَّ لهم... وأبى أن يسلمهم إلى جلاديهم... وعتاة قومهم...

إلا أن داهية العرب... عمرو بن العاص... لم يتجرّع الهزيمة بسهولة... وإنما فكَّر في فكرة جهنميّة... يثير بها ثائرة النجاشي... فينقلب الملك عليهم ويطردهم من بلاده!!!

«فلما خرج من عنده...

«قال عمرو بن العاص: والله لآتينَّه غدًا عنهم بما أستأصل به خضراءهم (أي شجرتهم التي منها تفرعوا)...

: **والله لأخبرنَّه أنهم يزعمون أنّ عيسى ابن مريم... عبدٌ؟!»**

فكرة جهنّميّة... من داهية ماكر...

لو سمعها النجاشي... لطار عقله غضبًا على هؤلاء الذين يشتمون عيسى ابن مريم!!!

وذهب من الغد إلى النجاشي... على عجل وقال له: «**أيها الملك... إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولًا عظيمًا...**»!!!

ففزع الملك... فاهتبلها عمرو فرصةً... ليحدث في النجاشي ثورة فقال: «**فأرسل إليهم... فسلْهم عما يقولون فيه**»؟!!!

وتوهَّم عمرو أنّه بالغ غرضه... وازداد يقينًا بنجاح مؤامرته!!!

فأرسلَ النجاشي إليهم ليسألهم عنه...

وجاءوا جميعًا... كما جاءوه المرة الأولى... **وكان جعفر معهم... يقودهم ويشهد ما يشهدون!!!**

فلمّا دخلوا عليه... وعمرو ينتظر انفجار الثورة...

النجاشيّ: «ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟!»

جعفر بن أبي طالب: «نقول فيه الذي جاءنا به نبيّنا... (ﷺ)...»

النجاشيّ: «وماذا يقول؟!»

جعفر: «**يقول... هو عبدُ الله... ورسولُه... وروحُه... وكلمتهُ ألقاها إلى مريم العذراء البتول**»!!!

عمرو بن العاص (ينظر إلى وجه النجاشيّ ينتظر انفجار غضبه)...

النجاشيّ: (يضرب بيده إلى الأرض... ويأخذ عنها عودًا... ثم يقول):

«**والله ما عدا عيسى ابن مريم. ما قلتَ... هذا العودَ**»!!!

البطارقة (يتململون... ويتناخرون حوله... حين قال ما قال)!!!

النجاشيّ: «**وإن نخرتم والله**... (يشير إلى المهاجرين) **اذهبوا... فأنتم شُيومٌ بأرضي**... (الشيومُ: الآمنون)...

مَن سبَّكم غرم... من سبَّكم غرم... من سبَّكم غرم...

ما أَحبّ أنّ لي دَبرًا من ذهب... واني آذيت رجلًا منكم»!!!

(الدّبر، بلسان الحبشة: الجبل)

نطقٌ كريم... من ملك كريم...

زلزل أركان عمرو... ثم ازداد زلزالًا على زلزال... حين وقف المَلِك العظيم... وأمَرَ في غضب: «**رُدُّوا عليهما هداياهما... فلا حاجة لي بها**»؟!!

ها هو عمرو يتلقى الصفعة الملكية واجمًا...

ويواصل الملك المؤمن العادل العظيم نُطقه: «**فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردَّ عليَّ مُلكي... فآخذ الرشوةَ فيه...**

وما أطاع الناس فيّ... فأطيعهم فيه»!!!

وهكذا... كان نصر الله والفَتح!!!

تقول الرواية: «**فخرجا من عنده مَقبوحَيْن... مردودًا عليهما ما جاءا به... وأقمنا عنده بخير دار... مع خير جار**»!!!

«أَسْلَمَ الناسُ... وآمَنَ عَمرُو»... كيف أسْلَمَ... عَمْرُو؟!

أحوال عمرو بن العاص كلها عَجَب!!!

حتى إسلامه... لا يخلو من العَجَب!!!

فكيف كانت قصة إسلامه؟!!

جاء في سيرة ابن هشام:

«... عن حبيب بن أبي أوس الثقفي... قال:

«حدثني عمرو بن العاص مِن فيه... قال:

لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالًا من قريش، كانوا يرون رأيي، ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله أني أرى أمر محمد يعلو الأمور علوًا منكرًا، وأني قد رأيت أمرًا، فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا فنحن مَن قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير، قالوا: إن هذا لرأي. قلت: فاجمعوا لنا ما نهديه له، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأَدَم[1]، فجمعنا له أدمًا كثيرًا، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه!!!

* * *

فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله (ﷺ) قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه. قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده. قال: فقلت

---

(١) الأَدَم: الجلد.

لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري، لو قد دخلت على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه، فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني قد أجزأت عنها[1] حين قتلت رسول محمد. قال: فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحبًا بصديقي، أهديت إلي من بلادك شيئًا؟ قال: قلت: نعم، أيها الملك، قد أهديت إليك أدَمًا كثيرًا، قال: ثم قربته إليه، فأعجبه واشتهاه.

ثم قلت له: أيها الملك، إني قد رأيت رجلًا خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا، قال: فغضب، ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقًا منه، ثم قلت له: أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله! قال: قلت: أيها الملك، أكذاك هو؟ قال: ويحك يا عمرو أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجُنوده، قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده، فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي!!!

* * *

ثم خرجت عامدًا إلى رسول الله (ﷺ) لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة، فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسم[2]، وإنَّ الرجل لنبيّ، أذهب والله فأسلم، فحتى متى، قال: قلت: والله ما جئت إلا لأسلم. قال: فقدمنا المدينة على رسول الله (ﷺ)، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت، فقلت: يا رسول الله، إني أبايعك على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر، قال: فقال رسول الله (ﷺ): يا عمرو، بايع فإن الإسلام يجبّ[3] ما كان قبله، وإن الهجرة تجبّ ما كان قبلها، قال: فبايعته، ثم انصرفت!!!

---

(١) أجزأت عنها: كفيتها.

(٢) المنسم: خف البعير. والميسم: تبين الطريق ووضح.

(٣) يجب: يقطع.

قال ابن هشام: ويقال: فإن الإسلام يحت[1] ما كان قبله، وأن الهجرة تحت ما كان قبلها.

* * *

قال ابن اسحاق، وحدثني من لا أتهم: أن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، كان معهما، حين أسلما.

وجاء في «الكامل» لابن الأثير:

«ودخلت سنة ثمان...

ذكر إسلام خالد بن الوليد... وعمرو بن العاص... وعثمان بن طلحة؟!

«في هذه السنة... في صفر... قدم عمرو بن العاص مسلمًا على النبيّ... (ﷺ)...

«وقدم معه خالد بن الوليد...

«وعثمان بن طلحة العبدريّ...

كيف أسلم عمرو؟!

وكان سبب إسلام عمرو أنّه قال:

«لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق قلتُ لأصحابي:

إنّي أرى أمر محمّد يعلو علوًّا منكرًا!!!

وإنّي قد رأيتُ أن نلحق بالنجاشي... فإن ظهر محمّد على قومنا كنّا عند النجاشي... وإن ظهر قومنا على محمّد فنحن مَنْ قد عرفوا؟!..

قالوا: إنّ هذا الرأي...

قال: فجمعنا أدَمًا كثيرًا وخرجنا إلى النجاشيّ...

---

(١) ويحت: يسقط.

فإنّا لعنده إذ وصل عمرو بن أميّة الضَّمْريّ رسولاً من النبيّ (ﷺ)... في أمر جعفر وأصحابه...

قال: فدخلتُ على النجاشيّ... وطلبتُ منه أن يسلّم إليّ عمرو بن أميّة الضَّمريّ لأقتله تقرّبًا إلى قريش بمكّة!!!

فلمّا سمع كلامي غضب... وضرب أنفه ضربةً ظننتُ أنّه قد كسره... يعني النجاشيّ...

فخفتُهُ... ثم قلتُ:

والله لو ظننتُ أنّك تكره هذا ما سألتُكه!...

قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟!!...

قال: قلتُ: أيّها الملك... أكذلك هو؟!...

قال: ويحك يا عمروا!... أطِعْني واتّبعه...

«فإنّه والله لعلى الحقّ...

«وليظهرنَّ على مَن خالفه... كما ظهر موسى على فرعون وجنوده»...

قال: فقلت: فبايعني له على الإسلام...

فبسط يده فبايعته...

ثم خرجتُ إلى أصحابي... وكتمتُهم إسلامي!!!

وخرجتُ عائدًا إلى رسول الله (ﷺ)...

ولقيني خالد بن الوليد... وذلك قبل الفتح... وهو مقبل من مكة...

فقلتُ: أين يا أبا سليمان؟!...

قال: والله لقد استقام المنسِم[1]...

«إنّ الرجل لنبيّ... أذهب... والله أُسلم... فحتى متى؟!»...

فقلتُ: ما جئتُ إلّا للإسلام!!!

فقدمنا على النبيّ (ﷺ)...

---

(١) المذهب والوجه.

فتقدم خالد بن الوليد فأسلم!!!
ثم دنوتُ فأسلمتُ!!!
وتَقَدَّم عثمان بن طلحة فأسلم»!!!

عَمْرو يقول...
لأمين الأُمَّة أبي عبيدة ...
: أنا أميرٌ عليكَ...؟!

ما زالت عجائب عمرو بن العاص تترى!!!

في نفس السنة... سنة ثمان... وبعد إسلامه بقليل...

رفعه (ﷺ)... إلى القيادة... وأرسله على رأس سرية يدعو الناس إلى الإسلام...

فكان بينه وبين البطل العظيم أمين الأمّة... أبي عبيدة بن الجرّاح... حوار عجيب...

فيه إشارة إلى أخلاق كلٍّ منهما!!!

فكيف كان ذلك؟!!!

قال ابن الأثير:

غزوة ذات السلاسل؟!

وفيها (أي في سنة ثمان) أرسل رسولُ الله (ﷺ).... عَمرو بن العاص إلى أرض بَلِيّ وعُذْرة...

يدعو الناس إلى الإسلام...

وكانت أُمّه من بَليّ... فتألَّفهم رسولُ الله (ﷺ) بذلك... فسار حتى إذا كان على ماء بأرض جُذام يقال له السلاسل... وبه سُميت تلك الغزوة «ذات السلاسل»... فلمّا كان به خاف... فبعث إلى النبيّ (ﷺ)... يستمدّه... فبعث إليه رسول الله (ﷺ)... أبا عبيدة بن الجرّاح... في المهاجرين الأوّلين...

فيهم أبو بكر وعمر!!!

وقال لأبي عبيدة حين وجّهه: لا تختلفا...

فخرج أبو عبيدة... فلمّا قدم عليه قال عمرو: إنّما جئتَ مَدَدًا إليّ!!!

فقال له أبو عبيدة: يا عمرو... إنّ رسول الله (ﷺ) قال: لا تختلفا... فإن عصيتَني أطعتُك...

قال: فأنا أمير عليك!!!

قال: فدونك!!!

فصلّى عمرو بالنّاس!!!

* * *

ثم ماذا في صحيح البخاري وشروحه عن موضوع غزوة ذات السلاسِل؟!

غَزْوَةُ ذاتِ السّلاسِلِ؟!

اي هذا بيان غزوة ذات السلاسل... وسميت هذه الغزوة بذات السلاسل لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفروا..

وقيل لأن بها ماء يقال له السَّلْسَل...

وقال ابن سعد: هي ما وراء وادي القرى... بينها وبين المدينة عشرة أيام...

قال: وكانت في جمادى الآخرة... سنة ثمان من الهجرة...

[وهي غَزْوَةُ لَخْمٍ وجُذَامَ... قالهُ إسماعيلُ بنُ أبي خالدٍ... وقال ابنُ إسحاق عن يزيدَ عن عُرْوَةَ: هيَ بلادُ بَلِيٍّ وعُذْرَة وبَني القَيْنِ.]

أي غزوة ذات السلاسل غزوة لَخْم... وهي قبيلة كبيرة مشهورة...

«وقال ابنُ إسحاق» هو محمد بن إسحاق صاحب الغازي...

«عن عُرْوة» بن الزبير بن العوام...

«هي بلاد بَلِيٍّ» قبيلة كبيرة...

«وعُذْرَةَ» قبيلة كبيرة...

«وبني القَيْنِ» قبيلة كبيرة... وكلّ عبْد عند العرب قَيْن...

«عن أبي عُثْمانَ...

«أنَّ رسولَ اللهِ (ﷺ) بَعَثَ عَمْرَو بنَ الْعاصِ..

«على جَيْشِ ذاتِ السلَاسِلِ... «قال: فأَتَيْتُهُ فقُلْتُ: أيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إليْكَ؟...

«قال: عائِشَةُ...

«قُلْتُ: ومِنَ الرِّجَالِ؟...

«قال: أبُوها...

«قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟...

«قال: عُمَرُ...

«فعَدَّ رجَالًا...

«فَسَكَتُّ مَخَافَةَ أنْ يَجْعَلَنِي في آخِرِهِمْ.»

[أخرجه البخاري]

«**بعث عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل**» وسبب ذلك ما ذكره ابن سعد...

أن جمعًا من قضاعة تجمعوا وأرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة...

فدعا النبي (ﷺ) عَمرو بن العاص...

فعقد له لواء أبيض...

وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار...

ثم أمدّه بأبي عبيدة بن الجراح في مائتين...

وأمره أن يلحق بعَمرو... وأن لا يختلفا...

فأراد أبو عبيدة أن يؤمهم...

فمنعه عمرو!!!

وقال: إنما قدمت عليّ مَدَدًا... وأنا الأمير!!!

فأطاع له أبو عبيدة!!!

فصلّى بهم عمرو!!!

وسار عمرو حتى وطئ بلاد بَلِيّ وعُذْرة...

وذكر ابن حبان هذا الحديث وفيه: **فلقوا العدو فهزموهم... فأرادوا أن يتبعوهم فمنعهم...** يعني عمرو بن العاص أمير القوم...

«قال: فأتيتُهُ» أي قال عمرو بن العاص: فأتيت النبي (صلى الله تعالى عليه وسلم)...

وفي رواية مسلم **«قدمت من جيش ذات السلاسل فأتيت النبي (صلى الله تعالى عليه وسلم)»...**

«فَسَكَتُّ» هو عمرو بن العاص...

وفي هذا الحديث جواز تأمير المفضول عند وجود الفاضل... إذا امتاز المفضول بصفة تتعلق بتلك الولاية...

فإنه كان في هذا الجيش أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما... فلا يقتضي تأمير عَمرو في هذا أفضليته عليهما... ولكن يقتضي له فضلًا في الجملة...

وفي هذه الغزوة تيمَّم عمرو بن العاص مخافة البرد!!!

* * *

ثم ماذا في سيرة ابن هشام؟!

قال:

غزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل؟!

وغزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل من أرض بني عُذْرة. وكان من حديثه أن رسول الله (ﷺ) بعثه يستنفر العرب إلى الشام. وذلك أن أم العاص ابن وائل كانت امرأة من بَلِيّ، فبعثه رسول الله (ﷺ) إليهم يستألفهم لذلك، حتى إذا كان على ماء بأرض جُذام، يقال له السلسل، وبذلك سميت تلك الغزوة، غزوة ذات السلاسل، فلما كان عليه خاف فبعث إلى رسول الله (ﷺ) يستمده، فبعث إليه رسول الله (ﷺ) أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين، فيهم أبو بكر وعمر، وقال لأبي عبيدة حين وجهه: لا تختلفا، فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم عليه، قال له عمرو: إنما جئت مددًا لي، قال أبو عبيدة: لا، ولكني على ما أنا عليه، وأنت على ما أنت عليه،

وكان أبو عبيدة رجلًا ليِّنًا سهلًا، هيِّنًا عليه أمر الدنيا، فقال له عمرو: بل أنت مدد لي، فقال أبو عبيدة: يا عمرو، وأن رسول الله (ﷺ) قال لي: لا تختلفا، وأنك إن عصيتني أطعتك، قال: فإني الأمير عليك، وأنت مدد لي، قال: فدونك. فصلى عمرو بالناس.

* * *

قال: وكان من الحديث في هذه الغزاة، أن رافع بن أبي رافع الطائي، وهو رافع ابن عميرة، كان يحدث فيما بلغني عن نفسه، قال: كنت امرأ نصرانيًا، وسميت سرجس، فكنت أدل الناس وأهداهم بهذا الرمل، كنت أدفن الماء في بيض النعام بنواحي الرمل في الجاهلية، ثم أغير على إبل الناس، فإذا أدخلتها الرمل غلبت عليها، فلم يستطع أحد أن يطلبني فيه، حتى أمر بذلك الماء الذي خبأت في بيض النعام فأستخرجه، فأشرب منه، فلما أسلمت خرجت في تلك الغزوة التي بعث فيها رسول الله (ﷺ) عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل، قال: فقلت: والله لأختارن لنفسي صاحبًا، قال: فصحبت أبا بكر، قال: فكنت معه في رحله، قال: وكانت عليه عباءة له فدكية[1]، فكان إذا نزلنا بسطها وإذا ركبنا لبسها، ثم شكها عليه[2] بخلال له، قال: وذلك الذي له يقول أهل نجد حين ارتدوا كفارًا: نحن نبايع ذا العباءة! قال: فلما دنونا من المدينة قافلين، قال: قلت: يا أبا بكر، إنما صحبتك لينفعني الله بك، فانصحني وعلمني، قال: لو لم تسألني ذلك لفعلت، قال آمرك أن توحد الله ولا تشرك به شيئًا، وأن تقيم الصلاة، وأن تؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج هذا البيت، وتغتسل من الجنابة، ولا تتأمر على رجل من المسلمين أبدًا. قال: قلت:ياأبا بكر، أما أنا والله فإني أرجو أن لا أشرك بالله أحدًا أبدًا، وأما الصلاة فلن أتركها أبدًا إن شاء الله، وأما الزكاة فإن يك لي مال أؤدها إن شاء الله، وأما رمضان فلن أتركه أبدًا إن شاء الله، وأما الحج فإن أستطع أحج إن شاء الله تعالى، وأما الجنابة فسأغتسل منها إن شاء الله، وأما الإمارة فإني رأيت الناس يا أبا بكر لا يشرفون عند رسول الله

---

(١) العباءة: الكساء الغليظ، والفدكية: المنسوبة إلى فدك، وهي بلدة بخيبر.

(٢) شكها عليه: أنفذها بالخلال الذي كان يخللها به.

(ﷺ) وعند الناس إلا بها، فلم تنهاني عنها؟ قال: إنك إنما استجهدتني لأجهد لك، وسأخبرك عن ذلك: أن الله عز وجل بعث محمدًا (ﷺ) بهذا الدين، فجاهد عليه حتى دخل الناس فيه طوعًا وكرهًا، فلما دخلوا فيه كانوا عواذ الله وجيرانه، وفي ذمته، فإياك لا تخفر الله[1] في جيرانه، فيتبعك الله في خفرته، فإن أحدكم يخفر في جاره، فيظل ناتئًا عضله[2]، غضبًا لجاره أن أصيبت له شاة أو بعير، فالله أشد غضبًا لجاره. قال: ففارقته على ذلك.

قال: فلما قبض رسول الله (ﷺ)، وأمر أبو بكر على الناس، قال: قدمت عليه، فقلت له: يا أبا بكر، ألم تك نهيتني عن أن أتأمر على رجلين من المسلمين؟ قال: بلى، وأنا الآن أنهاك عن ذلك، قال: فقلت له: فما حملك على أن تلي أمر الناس؟ قال: لا أجد من ذلك بدًّا، خشيت على أمة محمد (ﷺ) الفرقة.

* * *

قال ابن اسحاق: أخبرني يزيد بن أبي حبيب أنه حدث عن عوف بن مالك الأشجعي، قال: كنت في الغزاة التي بعث فيها رسول الله (ﷺ) عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل، قال: فصحبت أبا بكر وعمر، فمررت بقوم على جزور لهم قد نحروها، وهم لا يقدرون على أن يعضوها[3]، قال: وكنت امرأ لبقًا[4] جازرًا، قال: فقلت: أتعطوني منها عشيرًا[5] على أن أقسمها بينكم؟ قالوا: نعم، قال: فأخذت الشفرتين، فجزأتها مكاني، وأخذت منها جزءًا، فحملته إلى أصحابي، فطبخناه فأكلناه. فقال لي أبو بكر وعمر رضي الله عنهما: أنى لك هذا اللحم يا عوف؟ قال: فأخبرتهما خبره، فقالا: والله ما أحسنت حين أطعمتنا هذا، ثم قاما يتقيآن ما في بطونهما من ذلك، قال: فلما قفل الناس من ذلك السفر، كنت أول قادم على رسول

---

(١) لا تخفر الله: لا تنقض عهده.

(٢) ناتئ: المرتفع المنتفخ.

(٣) يعضوها: يقسموها.

(٤) اللبق: الحاذق الرفيق في العمل.

(٥) العشير: النصيب.

الله (ﷺ)، قال: فجئته وهو يصلي في بيته، قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، قال: أعوف بن مالك؟ قال: قلت: نعم، بأبي أنت وأمي، قال: أصاحب الجزور؟ ولم يزدني رسول الله (ﷺ) على ذلك شيئًا!!!

عَمْرُو...
أميرًا على...
زكاة عُمان...؟!

ثم قال ابن الأثير:

«وفيها - أي في سنة ثمان - **أرسل رسولُ الله (ﷺ)... عمرو بن العاص إلى جَيْفر وعَبّاد ابنَيْ الجُلَنْدي بعُمان...**

فآمنا وصدّقا...»

* * *

وجاء في شرح البخاري:

أنه صلى الله تعالى عليه وسلم بعث إلى عُمان والبحرين...

على ما رواه الطبراني... من حديث المسور بن مخرمة قال: بعث رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) رسله إلى الملوك...

«وبعث عمرو بن العاص إلى جَيْفر وعَبَّاد ابني الجُلَنْدي ملك عُمان...

«وفيه فرجعوا جميعًا قبل وفاة رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم)...

«وأنه توفي عمرو بالبحرين...»...

* * *

وقال العقاد... في كتابه «عمرو بن العاص»:

من التجارة إلى الإمارة؟!

«... مسلم لا شك في إسلامه، ولا شك في طبعه، ولا شك في اختلاف الطبائع بين المعتقدين جميعًا في كل دين من الأديان ورأي من الآراء.

فلما فتحت له الحيطة باب التفكير في الإسلام أقبل عليه وود لو يغنمه بريئًا من

عقابيل الجاهلية، لأنه نفض يديه منها وأيقن بضلالها.

قال وقد اعتزم لقاء النبي عليه السلام ما فحواه: «فلقيت خالدًا فقلت: ما رأيك؟ قد استقام المَنْسِم، والرجل نبي. فقال خالد: وأنا أريده. قلت: وأنا معك... وقال عثمان بن طلحة: وأنا معك... وكنت أسنَّ منهما، فقدمتهما لأستدبر أمرهما. فبايعا على أن يُغفر لهما ما تقدم من ذنوبهما. فأضمرت أن أبايعه على ما تقدم وما تأخر. فلما بسط يده قبضت يدي، فقال عليه السلام: ما لك يا عمرو؟ قلت: أبايعك يا رسول الله على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي. قال: إن الإسلام والهجرة يَجُبان ما كان قبلهما. فبايعته، والله ما ملأت عيني منه وراجعته بما أريد حتى لحق ربه، حياء منه».

وقد كان ذلك في السنة الثامنة للهجرة على أرجح الأقوال.

ولقد كانت رحابة صدر النبي عليه السلام تَسَع الناس جميعًا، ولا تضيق بأحد من مختلف الطوائف والطباع: سُنَّة النبي الكريم الذي يدعو الناس جميعًا، ولا يخص منهم فئة دون فئة ولا خليقة دون خليقة، فكان يتقبلهم مرحِّبًا بهم، مشجعًا لهم، راجيًا أحسن الرجاء فيهم، كلًّا وما فطر عليه، وكلًّا وما تؤهله له فطرته وشأنه. وقلَّما ذهبت هذه السماحة سدى في نفس مسلم أقبل على الإسلام، سمح الإقبال أو مشوب السماحة بشيء من عقابيل الجاهلية. فكان أول أثر من آثار هذا الكرم النبوي أن يتسامى المسلم إلى المنزلة التي رفعه ذلك الكرم النبوي إليها، ومنهم من كان يستكثر الثقة الرفيعة التي ظفر بها فيعمل على استحقاقها والمحافظة عليها، ويشفق أشد ما يشفق أن يداخل النبيَّ طائف من الظن بصدق نيته وخلوص إيمانه.

وطالما أشفق عمرو بن العاص هذا الإشفاق، وود لو تخلص له ثقة النبي على أحسن ما يتمناها، لأنه ما زال يستكثر الثقة التي ظفر بها، ويرى فيها من كرم النبوة أكثر مما يراه من حقه واستحقاقه.

فلما رشحه عليه السلام لبعثة يسلم منها ويغنم، أسرع قائلًا: ما أسلمت من أجل المال، بل أسلمت رغبة في الإسلام!

وظل إلى ما بعد وفاته عليه السلام بسنين عدة يسائل نفسه عن تولية النبي له: والله ما أدري أكان ذلك حبًا لي أم استعانة بي!

ونخال أنه لم يكن يملأ عينه من النبي كما قال، حذرًا من هذا الذي يساور نفسه أن يبدو من لحظه، فتلتقي به نظرة من تلك النظرات النبوية النفاذة على ما بها من الطيب والسماحة.. وأن طموحه إلى ثقة النبي لهو الذي جعله يقول كما قد قال في بعض أحاديثه: «ما عدل بي رسول الله (ﷺ) وبخالد بن الوليد أحدًا من أصحابه في حربه منذ أسلمت»!

غير أن هذا القلق الذي كان يعتاده من حين إلى حين إنما كان مبعثه ما ركب في طبعه من ظنون الدهاء ودخيلة الحيطة، أو المساءلة الباطنية التي لا تريح أصحابها ممن جبلوا على غراره.

أما مَسلك النبي معه فقد كان قوامه ذلك الأدب الإلهي، الذي لا يكلف نفسًا إلا وسعها، ولا ينتظر من نفس إلا ما هي خليقة أن تعطيه..

ولقد عرفه عليه السلام كما عرف غيره من الصحابة جد عرفانه.

عرفه وعلم «وسعه» الذي يكلفه، فعلم أنه وسع كبير فيما يحسن وفيما يسيء، وإن في وسعه هذا خيرًا للإسلام هو وشيك أن يستعين به عليه.

وقد ندبه لأمور لا يندبه لها إلا من كان على علم واف بالرجل وما غلب عليه من ظاهر خصاله واستسر في مكنون خلده.

ندبه لغزوة ذات السلاسل، ولهدم الصنم «سُوَاع»، ولدعوة جَيْفر وعَبّاد أميري عُمَان إلى الإسلام. **ثم أقامه على الصدقة في تلك الإمارة**، فإذا هو عليه السلام قد وعى كل خاصة من خواصه التي ظهرت في تاريخه أجمع: لأنه اختار له المساعي التي توافق رجلًا معتدًا بالنسب ولا سيما نسب أبيه، محبًا للرئاسة وتدبير المال، لبقًا في الخطاب، قديرًا على الإقناع، حذورًا في موضع الحذر، جريئًا في موضع الاجتراء.

كان أخوال العاص بن وائل من قضاعة، ونمي إلى النبي عليه السلام أنهم يتأهبون للزحف على المدينة ويعيشون في الطريق، فندب لهم عَمرًا يتألفهم إن استطاع، فإن

لم يستطع فهو بأن يزجرهم أولى من أن يجيء زجرهم على يد غيره. وأرسله في سرية من ثلاثمائة رجل، سار بهم حتى بلغ ماء يسمى السلاسل، فاستطلع، فإذا القوم نافرون مصرون على جفاء، وإذا بهم أكبر عددًا من أن يتصدى لهم بجيشه الصغير. فاستمد النبي عليه السلام، فأمده بكتيبة على رأسها أبو عبيدة بن الجراح، وفيها أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وهم أجل الصحابة وأقربهم إلى خلافة النبي عليه السلام، وأمرهم أن يطيعوه إذا أبى عليهم الطاعة. فبلغه بذلك رضاه من الإمارة!

وانهزمت قُضَاعة منذ الوقعة الأولى.

فلم يغتر عمرو بالنصر، ولم ينس ذمة القرابة واستبقاء الرحم على ما يبدو من مسلكه الذي جمع به بين المصلحة والمودة. فقد أراد جيشه أن يتعقب المنهزمين، فنهاهم عن ذلك، وذهب جماعة من الجيس يصطلون ليلًا، فتوعدهم لئن فعلوا ليقذفن بمن أضرم نارًا في النار التي أوقدها، ووسطوا له أبا بكر فأصر على رأيه ووعيده!

ثم شكوه إلى النبي فكان في عذره بلاغ بيِّنٌ، قال: كرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد، وكرهت أن يوقد المسلمون نارًا فيرى عدوهم قلتهم فيكر عليهم بعد فراره.

* * *

أما بعثته إلى سُوَاع، فقد كانت لهدم ذلك الصنم الذي عبدته هُذَيل في الجاهلية، وكان على مقربة من مكة، يقصدونه للحج والعبادة وقضاء النذور، وكانت له خزانة يودع فيها ما يودع من النذور ومن المال المحجر الذي وكل به بنو سهم قبل الإسلام، فكان اختيار زعيم من بني سهم فيه حرص على تحصيل المال نعم الاختيار لتلك البعثة التي لا حرب فيها.

سأله سادن الصنم: ماذا تريد؟

قال: أمرني رسول الله أن أهدمه.

قال السادان: إنك لا تقدر على ذلك.

فتقدم عمرو إلى صنم وكسره، وأمر أصحابه بهدم الخزانة فإذا هي خاوية!
فأقبل على السادن يسأله: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله رب العالمين.

* * *

وكانت رسالته إلى عمان أشبه الرسائل به وأولاها بانتدابه، لأنها كانت مجالًا مستجمعًا لكل ما فطر عليه من **اللباقة والدهاء والجرأة وحب الرئاسة والثراء.**

كتب النبي عليه السلام إلى جَيْفَر وعبّاد ابني الجُلَنْدي كتابًا يدعوهما فيه إلى الإسلام، قال فيه بعد السلام على من اتبع الهدى: «أما بعد، فإني أدعوكما بدعاية الإسلام. أسلما فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام ولَّيتكما، وإنْ أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإن ملككما زائل، وخيلي تحل بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما.»

فحمل الكتاب عمرو بن العاص، وكان عند ظن النبي به في مقدرته ودهائه، فبدأ بأصغر الأخوين عباد، لأنه لم يكن على ولاية الملك، فهو أقرب إلى حسن الإصغاء، فاحتفى به وأصغى إليه، ووعده أن يوصله إلى أخيه ويمهد له عنده.

ثم لقي جيفرًا فإذا هو أصعب مراسًا من عباد. فطفق يسأل عَمرًا عن نفسه وعن أبيه: هل أسلم من قبله أو مات على غير الإسلام؟ وسأله عما صنعت قريش، فلخص له موقفها أوقع تلخيص حيث قال: «إما راغب في الدين وإما مقهور بالسيف».. ثم عقب بكلام وجيز فيه وعد ووعيد، فقال له: «وأنت، إن لم تسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل. فأسلم تسلم، فيوليك على قومك، وتبقى على ملكك مع الإسلام، ولا تدخل عليك الخيل والرجال، وفي هذا، ومع سعادة الدارين راحة من القتال».

وأتبع هذا الوعيد بما يوائمه من قلة الإكتراث لجيفر حين لج هذا في عناده، وأعلنه بلقاء المسلمين دون أرضه وصدهم عن حوزة ملكه، فانصرف وقد ألقى في روع عباد ما ألقى، فإذا بعباد قد أتم له ما بدأه من النذير والنصيحة، وإذا بالأخوين ومن تبعهما مستجيبون للإسلام.

وكان جزاء عمرو على هذا التوفيق **أن عقد له النبي ولاية الزكاة**، يأخذها من الأغنياء ويفرقها على الفقراء، وهو عمل حبيب إلى طبعه لما فيه من تدبير المال

ومشابهة للمهمة التي تولاها زعماء بني سهم في الجاهلية، وله منها نصيب يرضيه، لأن الزكاة كما نص القرآن الكريم في الصدقات: «إنما الصّدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل..».

فله منها نصيب العاملين..

* * *

فإذا كان النبي عليه السلام قد اختاره لتلك المهام المرتبة، فإنما اختاره وهو يعرف من اختار، ولم تكن مرضاته كل ما توخاه عليه السلام بل هي مرضاته من طريق الخير لجميع المسلمين.

وقد أبقاه عليه السلام على ولاية الصدقة حتى توفاه الله، فلم يشأ أبو بكر رضي الله عنه أن يعزله عنها إلا برأيه ومرضاته، إيثارًا للسنة التي التزمها من إقرار كل ما أقره النبي عليه السلام في حياته. وألا يحل عقالًا عقله رسول الله (ﷺ)، ولا يعقل عقالًا لم يعقله. كما أوصى عَمرًا نفسه يوم أبلغه نعي النبي الكريم.

«ولم ير عمرو قط في حزن كالحزن الذي غمره يوم ورد إليه ذلك الكتاب فبكى طويلًا. وجلس يتلقى العزاء كما يتلقاه في أقرب الناس إليه...».

عَمْرُو...
بَطَلٌ من أبطال...
حروب الرِّدَّة...؟!

قدوم عمرو بن العاص من عُمان؟!

قال ابن الأثير:

«كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم)... قد أرسل عمرو بن العاص إلى جَيْفر عند منصرفه من حجّة الوداع...

فمات رسول الله (ﷺ).... وعَمْرو بعُمان...

فأقبل حتى انتهى إلى البحرين... فوجد المنذر بن ساوى في الموت...

ثم خرج عنه إلى بلاد بني عامر...

فنزل بقُرّة بن هُبيرة...

وقُرّة يقدّم رِجْلًا ويؤخّر أخرى ومعه عسكر من بني عامر...

فذبح له وأكرم مثواه...

فلمّا أراد الرحلة خلا به قرّة وقال: يا هذا إنّ العرب لا تطيب لكم نفسًا بالإتاوة... فإن أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتُطيع... وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم...

فقال له عمرو:

أكفرتَ يا قُرّة؟!...

أتخوّفنا بالعرب؟!...

فوالله لأوطئنَّ عليك الخيل في حِفْش أُمّك...

[والحِفْش: بيت تنفرد فيه النفساء]

وقدم على المسلمين بالمدينة فأخبرهم... فأطافوا به يسألونه...

فأخبرهم أنّ العساكر معسكرة من دَبَا إلى المدينة...

فتفرّقوا وتحلّقوا حلقًا...

وأقبل عُمر يريد التسليم على عَمرو... فمرّ على حلقة فيها عليّ وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد...

فلمّا دنا عُمر منهم سكتوا!...

فقال: فيم أنتم؟...

فلم يجيبوه!...

فقال لهم: إنّكم تقولون ما أخوفنا على قريش من العرب؟!...

قالوا: صدقتَ...

قال: «فلا تخافوهم... أنا والله منكم على العرب أخوف مني من العرب عليكم!!!

«والله لو تدخلون، معاشر قريش جُحْرًا لدخلته العرب في آثاركم...

«فاتقوا الله فيهم»!!!

ومضى عُمر...

فلمّا قُدِم بقُرَّة بن هبيرة على أبي بكر أسيرًا... استشهد بعَمرو على إسلامه...

فأحضر أبو بكر عَمْرًا فسأله... فأخبره بقول قُرّة إلى أن وصل إلى ذكر الزكاة فقال قُرّة: مهلًا يا عمرو!...

فقال: كلّا... والله لأخبرنّه بجميعه.

فعفا عنه أبو بكر وقَبِلَ إسلامه.

* * *

ماذا كان موقف عمرو في حروب الرِّدَّة؟!

كان بطلًا من أبطالها العظماء... الذين اكتسحوا جيوش المرتدة... وقهروهم وأبادوهم... حتى طأطأوا رؤوسهم خزايا للإسلام!!!

فما هو الدور الذي قام به عمرو في تلك الحروب؟!

أحد عشر جيشًا؟!

قالوا:

رجع أبو بكر إلى المدينة وهو يفكر في الوسيلة التي يقضي بها على الذين ارتدوا عن الإسلام القضاء المبرم...

فوزع الجند أحد عشر لواء... جعل على كل لواء منها أميرًا... ثم أصدر إلى كل منهم أمره أن يستنفر من يمر به من المسلمين أولي القوة... وأن يسير إلى قتال المرتدين...

قال ابن الأثير:

«**قطّع أبو بكر البعوث وعقد الألوية...** فعقد أحد عشر لواء...

١- عقد لواء لخالد بن الوليد... وأمره بطليحة بن خويلد... فإذا فرغ سار إلى مالك بن نُوَيْرَة بالبُطاح إن أقام له...

٢- وعقد لعكرمة بن أبي جهل وأمره بمُسَيْلمة...

٣- وعقد للمهاجر بن أبي أميّة وأمره بجنود العنسيّ... ثم يمضي إلى كندة بحضرموت...

٤- وعقد لخالد بن سعيد وبعثه إلى مشارف الشام...

٥- وعقد لعمرو بن العاص وأرسله إلى قُضاعة...

٦- وعقد لحذيفة بن مِحْصن الغفاريّ وأمره بأهل دَبَا...

٧- وعقد لعَرْفجة بن هرثمة وأمره بمَهْرة...

٨- وبعث شُرَحْبيل بن حَسَنَة في أثر عكرمة بن أبي جهل وقال: إذا فرغ من اليمامة فالحقْ بقُضاعة... وأنت على خيلك تقاتل أهل الردة...

٩- وعقد لمعن بن حاجز وأمره ببني سُلَيْم ومَن معهم من هوازن...

١٠- وعقد لسويد بن مُقَرّن وأمره بتهامة باليمن...

١١- وعقد للعلاء بن الحضرميّ وأمره بالبحرين...

ففصلت الأمراء من ذي القَصّة... ولحق بكل أمير جنده...
وعهد إلى كلّ أمير... وكتب إلى جميع المرتدين نسخة واحدة يأمرهم بمراجعة الإسلام ويحذرهم... وسير الكتب إليهم مع رسله»!!!

* * *

قال العقاد في كتابه «عمرو بن العاص»:
«أصبح عمرو أقرب من المقربين في العهد الجديد...
«ونظر أبو بكر فيمن يوليه حرب قضاعة...
«فلم ير أمامه خيرًا من صاحبه عمرو... وقد تولى حربها قبل ذلك في عهد النبي...
«وكان الخليفة الأول يومئذ من جنوده...
«فأبلى في تأديب قضاعة أحسن بلاء ولم يرجع عنها إلا وقد سلمت بحق الزكاة وثابت إلى شرعة الإسلام».

عَمْرو يقول لأبي بكر...
«إنّي سهم من سهام الإسلام...
وأنتَ بعد الله الرامي بها...؟!

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة...

فتوح الشام؟!

في سنة ثلاث عشرة وجّه أبو بكر الجنود إلى الشام بعد عوده من الحج...
وعندها اهتم أبو بكر بالشام وعناه أمره..

وكان أبو بكر قد ردّ عمرو بن العاص إلى عمله الذي كان رسول الله (ﷺ) ولّاه إيّاه من صدقات سعد هُذَيْم وعُذْرة وغيرهم قبل ذهابه إلى عمان... ووعده أن يُعيده إلى عمله بعد عوده من عُمان...

فأنجز له أبو بكر عِدة رسول الله (ﷺ)....

فلما عزم على قصد الشام كتب له:

إني كنتُ قد رددتك على العمل الذي ولّاك رسول الله (ﷺ) مرّة ووعدك به أخرى... إنجازًا لمواعيد رسول الله (ﷺ)... وقد وليته...

وقد أحببتُ أن أُفْرغك لما هو خير لك في الدنيا والآخرة...

إلا أن يكون الذي أنت فيه أحبّ إليك!!!

إني سهم من سهام الإسلام؟!

فكتب إليه عمرو:

«إنّي سهم من سهام الإسلام...

«وأنت بعد الله الرامي بها...

«والجامع لها...

«فانظر أشدّها وأخشاها وأفضلها فارمِ به»!!!

فأمَرَه وأمَرَ الوليدَ بن عُقبة – وكان على بعض صدقات قُضاعة – أن يجمعا العرب... ففعلا...

عَمْرو قائدًا إلى فلسطين؟!

وأرسل أبو بكر إلى عمرو بعض مَن اجتمع إليه... وأمره بطريق سمّاها له... إلى فلسطين...

وأمر الوليد بالأردنّ... وأمدّه ببعضهم...

وأمّر يزيد بن أبي سفيان على جيش عظيم هو جمهور من انتدب إليه... فيهم سُهَيْل بن عمرو في أمثاله من أهل مكة... وشيّعه ماشيًا... وأوصاه وغيره من الأمراء...

ثم إنّ أبا بكر استعمل أبا عُبَيْدة بن الجرّاح على مَنِ اجتمع... وأمره بحِمْص...

واجتمع إلى أبي بكر ناس فأرسلهم مع معاوية بن أبي سفيان وأمره باللحاق بأخيه يزيد...

البطل عَمْرو يواجه تسعين ألفًا؟!

فلمّا وصل الأمراء إلى الشام...

نزل أبو عبيدة بالجابية...

ونزل يزيد البلقاء...

ونزل شرحبيل الأردنّ...

ونزل عمرو بن العاص العَرَبة...

فبلغ الروم ذلك فكتبوا إلى هِرَقْل... وكان بالقُدْس... فقال:

أرى أن تصالحوا المسلمين... فوالله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من

الشام ويبقى لكم نصفه مع بلاد الروم... أحبّ إليكم من أن يغلبوكم على الشام ونصف بلاد الروم!...

فتفرّقوا عنه وعصوه...

فجمعهم وسار بهم إلى حِمْص... فنزلها وأعدّ الجنود والعساكر...

وأراد إشغال كلّ طائفة من المسلمين بطائفة من عسكره لكثرة جنده، لتضعف كلّ فرقة من المسلمين عمّن بإزائه...

فأرسل تذارق أخاه لأبيه وأُمّه في تسعين ألفًا إلى عمرو!!!

القادة يستشيرون عَمْرًا؟!

وأرسل جَرَجَة بن توذر إلى يزيد بن أبي سفيان...

وبعث الفيقار بن نسطوس في ستين ألفًا إلى أبي عبيدة بن الجراح...

وبعث الدّراقص نحو شُرَحْبيل... فهابهم المسلمون وكاتبوا عَمْرًا: ما الرأي؟...

فأجابهم: إنّ الرأي لمثلنا الاجتماع... فإن مثلنا إذا اجتمعنا لا نُغْلَب من قلّة... فإن تفرّقنا لا يقوم كلّ فرقة له بمن استقبلها لكثرة عدوّنا...

رَأْي الخليفة مِثْل رَأْي عَمْرو؟!

وكتبوا إلى أبي بكر فأجابهم مثل جواب عمرو!!!

وقال: «إنّ مثلكم لا يؤتى من قلّة وإنما يؤتى العشرة آلاف من الذنوب!!!

«فاحترسوا منها...

«فاجتمعوا باليرموك... متساندين...

«وليُصَلِّ كل واحد منكم بأصحابه...»!!!

الجيشان يصطفان للقتال؟!

فاجتمع المسلمون باليرموك... والروم أيضًا وعليهم التذارق...

وعلى المقدمة جَرَجَة...
وعلى المجنّبة باهان...
والدراقص على الأخرى...
وعلى الحرب الفيقار...
فنزل الروم وصار الوادي خندقًا لهم...
وإنّما أرادوا أن يتأنّس الروم بالمسلمين لترجع إليهم قلوبهم!!!

عَمْرو يقول: أبشروا؟!

ونزل المسلمون على طريقهم ليس للروم طريق إلا عليهم...

فقال عمرو: أبشروا... حُصرت الروم... وقَلَّ ما جاء محصورٌ بخير!!!

وأقاموا صفرًا عليهم... وشهرَيْ ربيع لا يقدرون منهم على شيء من الوادي والخندق...

ولا يُخْرج الروم خرجة إلا أغار عليهم المسلمون.

أقول: كان هذا ما ذكره ابن الأثير عن إعداد الجيوش لحروب الشام...

وها هنا نثبت لطيفة من لطائف عمرو بن العاص... في مسألة حرصه على أن يكون أميرًا... كلما سنحت له فرصة إلى تحقيق أمنيته!!!

عَمْرو يقول لعُمَر: لو كلَّمْتَ الخليفة أن يجعلني أميرًا على أبي عبيدة؟!

قال العقاد في «عمرو بن العاص»:

«ثم ترامت أخبار الأهبة الكبيرة التي تأهب بها هرقل للقضاء على الدولة الإسلامية في نشأتها، ونمي إلى الخليفة أنه جمع مائة ألف أو يزيدون على مقربة من حدود فلسطين، فجرد جيشًا من ثقاة المسلمين الذين لم يختلط بهم في بادئ الأمر أحد من أهل الردة، وعقد لواءه لخالد بن سعيد بن العاص - أخي عمرو لأمه -

وأمره أن يستعين بالعرب في طريقه، وأن ينزل بتيماء مترقبًا لا يبرح مكانه إلا بإذنه، ولا يقاتل إلا من بدأ بقتاله، ولعله أراد بتجريد هذا الجيش تأمين الطريق من انتقاض أهل البادية حينما سمعوا بتحفز الروم للهجوم على بلاد المسلمين، ثم استطلاع الخبر وتعويق حركة الروم حتى يجمع لهم كفايتهم من الجند والقواد.

وقد كره عمر بن الخطاب ولاية خالد: «لأنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب». فسعى عند الخليفة في عزله، فعزله وعقد لواءه ليزيد بن أبي سفيان.

هنالك جاشت مطامع عمرو، فسمت به همته إلى قيادة الجيوش الإسلامية التي تصد الروم وتفتح الشام، ورأى أن خالد بن الوليد صاحبه القديم تكفل بدولة الأكاسرة، فليكن هو إذن كفيل المسلمين بدولة القياصرة، ولم يشأ أن ينتظر حتى يبرم الرأي في مسألة القيادة العليا وهو غائب عنها، فلما أخذ الخليفة في تجريد الجيوش وعقد الألوية لها، ذهب إلى عمر بن الخطاب فقال له متلطفًا: «يا أبا حفص! أنت تعلم شدتي على العدو، وصبري على الحرب، فلو كلمت الخليفة أن يجعلني أميرًا على أبي عبيدة، وقد رأيت منزلتي عند رسول الله، وإني أرجو أن يفتح الله على يدي البلاد ويهلك الأعداء».

فأجابه عُمر بصراحته الصادعة:

«كلا! ما كنت لأكذبك! وما كنت بالذي أكلمه في ذلك، فإنه ليس على أبي عبيدة أمير! ولأبو عبيدة عندنا أفضل منزلة منك وأقدم سابقة، والنبي (ﷺ) قال فيه: «أبو عبيدة أمين الأمة». فلم ييأس عمرو من إقناعه بعد ما سمع، وراح يقول له: «**ما ينقص من منزلته إذا كنت واليًا عليه**». فانتهره عمر قائلًا: «**ويلك يا عمرو! إنك ما تطلب بقولك هذا إلا الرئاسة والشرف، فاتق الله ولا تطلب إلا شرف الآخرة ووجه الله تعالى**».

واستقر رأي الخليفة على البعوث وقوادها، فأنفذ أبا عبيدة بن الجراح إلى حمص، ويزيد بن أبي سفيان إلى دمشق، وشرحبيل بن حسنة إلى وادي الأردن، **وعمرو بن العاص إلى فلسطين**، وخشي أن يقع الخلاف مرة أخرى على الرئاسة، فقال له وهو يودعه: «... كاتِبْ أبا عبيدة، وأنجده إذا أرادك، ولا تقطع أمرًا إلا بمشورته»

وأوصاه أن يذهب في طريق العقبة إلى فلسطين.

ويقدر عدد الجيش الذي قاده عمرو بتسعة آلاف مقاتل، معظمهم من أهل مكة والطائف وهوازن وبني كلاب، وعدد الجيوش الإسلامية كافة بسبعة وعشرين ألفًا من الفرسان والمشاة.

وكان ذلك في أواخر السنة الثانية للهجرة، على القول المشهور، أو في أوائل السنة التي بعدها، على قول آخر.

* * *

إلا أن دهاء عمرو أنزله من هذه الجيوش منزلة المشورة والمراجعة، وإنْ لم ينزله بينها منزلة الرئاسة العامة والقيادة العليا.

فلما اقترب جند المسلمين من مواقعهم التي قصدوا إليها، سمعوا بأهبة العدو، فإذا هو يزحف إليهم في جحافل جرارة تبلغ عدّتها مائة وخمسين ألفًا، من حاملي الشكة السابغة والعدة الكاملة. فترددوا وتشاوروا وكتبوا إلى عمرو بن العاص وإلى الخليفة، فوافاهم الجواب منهما معًا بالاجتماع للقاء الروم في موقع واحد، وكان رأي عمر أن يتراجعوا إلى اليرموك، وينتظروا جيوش الروم هناك..».

عَمْرو...
قائد عام الميمنة...
في معركة اليرموك؟!

فتح الامبراطورية الرومانية؟!

... وأمر خليفة رسول الله بالتعبئة العامة لفتح الشام، تلك البلاد الغالية من الامبراطورية الرومانية... وسير الجيوش التي جمعها من كل مكان لتلك الغاية... وكانت هذه الجيوش تعسكر بالجرف، فإذا آن لأحدها أن يسير خرج إليها الخليفة وودعه على النحو الذي ودع به جيش أسامة غداة بيعته... وانطلقت هذه الجيوش جميعًا في طريقها إلى الشام، مجاهدة في سبيل الله.

قال أبو بكر وهو يودع تلك الجيوش: «ألا إنَّ لكل أمر جوامع، فمن بلغها فهي حسبه. ومن عمل لله كفاه الله، عليكم بالجد والقصد فإن القصد أبلغ، ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له. ولا أجر لمن لا حسبة له، ولا عمل لمن لا نية له. ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لما ينبغي للمسلم أن يحب أن يخص به. هذه التجارة التي دل الله عليها، ونجى بها من الخزي، وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة»...

وأوصى... وأوصى... وما أعظم ما أوصى... إن كل كلمة من وصاياه دستور كامل، وسجل شامل، لمفاتح الخير..

وودع الصدّيق جيوشه.. وانطلقوا يفتحون الامبراطورية الرومانية في أعز مكان منها.. في الشام، في فلسطين، والأردن وسوريا.. وحيث يوجد بيت المقدس، أقدس مكان من تلك الامبراطورية..

وكان يشعر الصديق وهو يودع تلك الجيوش، أنها منتصرة بإذن الله.. ففيها

زهرة المسلمين مهاجريهم وأنصارهم، وفيها ما يزيد على ألف من أصحاب رسول الله...

أمبراطور الرومان يتجهز؟!

وسمع هرقل بمقدمهم، فسير إليهم قوات عظيمة... بلغ عدتها أربعين ومئتي ألف!

في حين كان عدد جيش المسلمين ثلاثين ألفًا!

واصطف الجمعان على نهر اليرموك.. لا يقدر المسلمون منهم على شيء، ولا يقدر الروم منهم على شيء..

وأقام هؤلاء وأولئك على هذه الحال شهرين كاملين، أيقن المسلمون خلالهما أن لا بد لهم من مدد يعينهم، فكتبوا إلى أبي بكر يصفون له الحال ويستمدونه.

خالد يسير إلى الشام؟!

وشاور أبو بكر أصحابه، ثم قال لهم: «والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد».

وكتب أبو بكر إلى خالد بالحيرة يقول: «سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك... فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة. فأتمم يتمم الله لك... ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل، فإن الله عز وجل له المن وهو ولي الجزاء».

وقسم خالد بن الوليد، جنده إلى قسمين، نصف أخذه معه، ونصف تركه للمثنى بالعراق... حيث سيخلفه في القيادة على العراق حتى يعود من مهمته.

وانطلق خالد على رأس تسعة آلاف مقاتل، ويمم وجهه شطر الشام.

ولم يسلك القائد العبقري الطريق المعهود من العراق إلى الشام. وإنما سلك طريقًا مهجورًا موحشًا، حتى يصل إلى جيوش المسلمين في أسرع وقت مستطاع... دون أن يشتبك مع الرومان في معركة جانبية، تؤخر إنجاده لأصحابه.

ووصل العبقري الشام... وعسكر بجنوده إلى جوار زملائه.

ولقد صادف مجيئه، أن عزز هرقل جيشه بباهان القائد القادر الذي هزم خالد بن سعيد من قبل، في معركة جانبية شنها العرب على الرومان..

وأقام الجيشان يتحين كل منهما فرصة النزال ويريدها مواتية ليتم بها النصر على عدوه.

معركة اليرموك العظمى؟!

وكانت جيوش المسلمين حين وصل إليها خالد، متعددة القيادات يقود كل جيش منها أمير، هذا جيش بقيادة أبو عبيدة، وهذا آخر بقيادة عمرو بن العاص، وهذا ثالث بقيادة عكرمة بن أبي جهل.. وهكذا..

بينما المعركة تحتاج إلى قائد واحد يديرها، وينتزع بها النصر الحاسم... فمن يكون هذا القائد؟ ومن يجرؤ على الاختيار؟

وتشاور الأمراء.. وتكلموا.. ثم جاء دور خالد بن الوليد فتكلم فقال: «إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنّا سنتياسر، ولو علم بالذي كان ويكون لقد صحبكم. إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم، وأنفع للمشركين من إمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم، فالله الله!. فقد أفرد كل رجل منكم ببلد لا ينتقصه منه إن دان لغيره من الأمراء، ولا يزيده عليه إن دانوا له. إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله. هلموا! فإن هؤلاء قد تهيأوا، وإن هذا يوم له ما بعده، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها. هلموا فلنتعاور الإمارة فليكن بعضنا اليوم، والآخر غدًا، والآخر بعد غد، حتى تتأمروا كلكم، ودعوني أتأمر اليوم».

وهكذا انتزعت عبقرية خالد القيادة العامة... ورضي الجميع قيادته أول يوم!.

وابتدع خالد تكتيكًا جديدًا للمعركة، وعبأ الجيش فرقًا، كل فرقة منها ألف رجل...

وجعل على فرق القلب أبا عبيدة، **وعلى فرق الميمنة عمرو بن العاص**، وعلى

فرق الميسرة يزيد بن أبي سفيان...

واصطف الفريقان ٢٤٠,٠٠٠ من الرومان، قبالة ٤٠,٠٠٠ من المسلمين.. أي بنسبة ١:٦!.

ونادى عكرمة بن أبي جهل «من يبايع على الموت»؟

وبايعه أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، بينهم عمرو بن عكرمة وولده...

واندفع هؤلاء الأربعمائة الذين بايعوا على الموت على الروم هجمة رجل واحد!.

وزلزلت الهجمة الروم!.

٤٠٠ يزلزلون ٢٤٠,٠٠٠!.

ورأى خالد الروم ترتد، فأمر الجيش كله بالتقدم، فإذا الروم يلقونه بهجوم ليس دون هجومه عنفًا.

وقاتل الرومان مستميتين، واندفعوا يقتلون من المسلمين كل من وقع في يدهم..

ولذا ترجحت المعركة، واستمر ترجحها طيلة النهار.

ووقف عكرمة والذين بايعوه على الموت، لا يتراجع أحد منهم قيد أنملة، بعد أن وهب كل منهم لله نفسه، وبذلك حملوا وطيس المعركة من بداءتها إلى منتهاها.

فلما كانت الشمس في المغيب بدأت قوات الروم تهن، وبدأ الإعياء على وجوه فرسانهم، ورأى خالد أنهم يلتمسون إلى الهرب الوسيلة. أما والهاوية من ورائهم والمسلمون من أمامهم، فليس لهم إلى هرب من سبيل.

وقدر خالد أن فرارهم يزيد أصحابهم ضعفًا، فأمر رجاله ففسحوا طريقًا يؤدي بهم إلى الوادي.

ولم يلبث هؤلاء الفرسان حين رأوا وسيلة النجاة تهيأت لهم أن فروا هاربين وتفرقوا في البلاد.

عند ذلك انقض خالد بفرسانه ومشاته على مشاة الروم، فاقتحموا عليهم خندقهم فتراجعوا، وكانت وراءهم هاوية الداقوصة فترديوا فيها وكأنهم جدار دك من أساسه.

وشدد المسلمون الضغط عليهم فجعلوا يتراجعون، فيتردى في الهاوية منهم فريق بعد فريق.

وظلوا كذلك يتلاحقون، حتى قيل إنه قتل منهم يومئذ مائة إلف!.

وقتل يومئذ تذارق أخو هرقل، كما قتل عدد كبير من أمراء الجيش على الروم.

وتمت هزيمة الرومان.. وغلب أربعون ألفًا - بل أقل أربعمائة - مائتين وأربعين ألفًا!.

وكان عدد القتلى من المسلمين ثلاثة آلاف، من بينهم عدد من كبار الصحابة والفرسان ذوي المكانة والبلاء.

وكان عكرمة وابنه عمرو، قد أصابتهما الجراح من كل جانب أثناء المعركة فلما أصبح القوم جيء بهما إلى خالد، فوضع رأس عكرمة على فخذه، ورأس عمرو بن عكرمة على ساقه، وجعل يمس عن وجهيهما، ويقطر في حلقيهما الماء حتى استشهدوا!.

ما أعظم هذا!.. والد وولده.. يستشهدان معًا.. بعد أن واجها مائتين وأربعين ألفًا من الرومان!.

تلك هي الروح المسلمة الحقيقية، حين انبعثت تنتصر لله، وتقاتل في سبيل الله...

وتلك هي اليرموك، يوم غابت شمس امبراطورية الرومان، وأشرقت شمس دولة الإسلام.

كان عَمْرو يقود عشرة آلاف مقاتل؟!

نعم... كان الفارس العظيم... عمرو بن العاص... في معركة اليرموك على رأس عشرة آلاف!!!

قال أحد الرواة في وصف المعركة:

«عبأ خالد الجيش تعبئة لم تعبها العرب قبل ذلك. فجعله ٣٨ إلى ٤٠ كردوسًا[١].

«وقال: **إن عدوكم قد كثر وطغى وليس من التعبئة تعبئة أكثر في رأي العين من الكراديس...**

---

(١) الكردوس: القطعة من الجيش... وكان الكردوس يزيد قليلًا عن الألف... أي فرقة بلغة اليوم...

«فجعل القلب ١٨ كردوسًا... وعليه أبو عبيدة... وفيه عكرمة بن أبي جهل... والقعقاع بن عمرو...

«وجعل الميمنة ١٠ كراديس... وعليها عمرو بن العاص... وفيها شرحبيل ابن حسنة...

«وجعل الميسرة ١٠ كراديس... وعليها يزيد بن أبي سفيان...

«وجعل على كل كردوس رجلًا يأتمر بأمر من فوقه... رئيس الميمنة أو الميسرة أو القلب...

«وكان رؤساء الكراديس من أهل النجدة والغناء أمثال القعقاع بن عمرو وعكرمة ابن أبي جهل وعياض بن غنم وهاشم بن عتبة وعبد الرحمن بن سيف الله (وكان عمره إذ ذاك ثماني عشرة سنة) إلى أمثالهم ممن عرف بالشجاعة والإقدام...

«لم يكف هذا النظام البديع خالدًا بل جعل للجيش طليعة وعليها قباث بن أشيم... وقاضيًا وهو أبو الدرداء... وقارئًا وهو المقداد (كان يقرأ عليهم سورة الجهاد «الأنفال» كما كان يفعل النبي... (ﷺ)... من بعد بدر عند لقاء العدو)... وصاحب أقباض (ميرة) وهو عبدالله بن مسعود... وواعظًا وهو أبو سفيان... فكان يسير في الجيش... ويقف على الكراديس فيقول: «الله الله إنكم زادة العرب وأنصار الإسلام... وإنهم زادة الروم وأنصار الشرك. اللهم إن هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك»...

«وتضعضع الروم... فاقتحموا في خندقهم فاقتحمه عليهم... فعمدوا إلى الواقوصة حتى هوى فيها المقترنون وغيرهم... فمن صبر من المقترنين للقتال هوى به من جشعت به نفسه... فيهوي الواحد بالعشرة لا يطيقونه... كلما هوى اثنان كانت البقية أضعف... فهوى فيها عشرون ومائة ألف... ثمانون ألف مقترن وأربعون ألف مطلق... سوى من قتل في المعركة من الخيل والرجل...

«وقد استمر القتال النهار كله... ومعظم الليل... ولم يطلع الصبح إلّا وخالد في رواق رئيس الروم... وقضى المسلمون على صناديدهم ورؤسائهم... وأصابوا كل ما في العسكر... وقد بلغ سهم الفارس فيها ألفًا وخمسمائة درهم...

«في أثناء الموقعة قدم البريد بوفاة أبي بكر... وعزل خالد عن الإمارة... وتولية أبي عبيدة...

«وحين رأى الناس رسول عمر سألوه عما وراءه... فأخبرهم بالسلامة والإمداد...

«وأسر إلى خالد بالخبر... وبما قاله للجند...

«فحمد له رأيه واستحسنه...

«وأخذ الكتاب منه فوضعه في كنانته... ولم يذعه والناس فيما هم فيه لئلّا تهن قوتهم...

«حتى إذا ما انتهت الموقعة... سلم الكتاب لأبي عبيدة... وسلم عليه بالإمارة!!!

«انتهى خبر الهزيمة إلى هرقل وهو دون حمص... فارتحل عنها وجعلها بينه وبين المسلمين... وأمّر عليها أميرًا وخلفه فيها... كما أمّر على دمشق أميرًا...

«وودّع سوريا الوداع الأخير فقال: «سلامًا عليك يا سوريا... سلامًا لا لقاء بعده»...

«كانت هذه الموقعة من المواقع الفاصلة في تاريخ الشرق...

«فقد تقلّص سلطان القياصرة عن رقعة فسيحة... وظهر سلطان الإسلام... وتتابعت بعدها فتوح المسلمين في بلاد بني الأصفر.»!!!

* * *

عمرو يخطب في جنوده: ثِبُوا في وجوههم وَثْبَة الأسَد؟!

قال العقاد في وصف المعركة:

«فأقام عمرو بن العاص على الجناح الأيمن، ويزيد بن أبي سفيان على الجناح الأيسر، وأبا عبيدة بن الجراح على القلب. واتخذ مكانه في كبة الجمع ولجأ إلى

طريقته التي اختارها لحرب بني حنيفة وهي طريقة الكراديس، لأنها أصلح الطرق للنفاذ في الصفوف، وأدعاها إلى التنافس بين المقاتلين وتمييزهم بالتبعة أو بالثناء.

«وكانت كل فرقة من الميمنة أو القلب أو الميسرة تتألف من كراديس عدة، على كل منها قائد معروف، ومنهم صاحبه القديم القعقاع، وزميله في حرب اليمامة عكرمة بن أبي جهل، وزميله في دومة الجندل عياض بن غنم، وابنه عبد الرحمن وهو يومئذ دون العشرين. جملة الكراديس جميعًا ثمانية وثلاثون معظمها في القلب، وعدته ثمانية عشر كردوسًا رئيسهم أبو عبيدة وفيهم عكرمة والقعقاع...

«وكان موضع الميمنة بحيث يستطيع الالتفاف بالجيش الروماني إذا أمعن في الهجوم والإطباق عليه مع القلب إذا ارتد إلى الوراء.

«وفرغ من التعبئة إلى «القوة الأدبية»، يوليها حقها من عنايته الكبرى. وأخرج المقداد يقرأ على الجيش سورة الأنفال، ودعا كل رئيس أن يعظ جنده ويبصرهم برماه في حركاته، **وجماع هذه العظات خطبة عمرو بن العاص حيث قال: «غضوا الأبصار، واجثوا على الركب واشرعوا الرماح، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم، حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا في وجوههم وثبة الأسد، فوالذي يرضى الصدق ويثيب عليه ويمقت الكذب ويجزي بالإحسان إحسانًا، لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفرًا كفرًا وقصرًا قصرًا، فلا تهولنكم جموعهم ولا عددهم، فإنكم لو صدقتموهم الحملة تطايروا تطاير الجحول».**

«وخطب مثله معاذ بن جبل وأبو سفيان، وبرز القعقاع وعكرمة قائدا المجنبة في القلب يرتجزان، واختير يوم القتال في يوم ريح سموم سافياء في حمارة القيظ فكانت طاقة المسلمين به أكبر من طاقة الروم.

«ثم اشتبك الجيشان...».

عَمْرو يسابق... خالد بن الوليد... إلى الموت؟!

وقال العقاد في «عمرو بن العاص» كذلك:

«ويؤخذ من المصادر المختلفة أن عَمْرًا قد اشترك في أكثر حروب الشام بين

دمشق وفلسطين...

وأن شجاعته فيها جميعًا كانت كفاء دهائه وحزمه...

فلم يكن يرضى لنفسه مقامًا في الشجاعة دون مقام أحد من القواد... أيًّا كان حظه من سمعة البأس والإقدام...

وذكروا في وصف وقعة اليرموك...

«أن الروم هجموا في بعض حملاتها بقضهم وقضيضهم على فريق من المسلمين... فانكشف المسلمون... وولى صاحب رايتهم...

فلحق به خالد بن الوليد!!!

وعمرو بن العاص!!!

يتسابقان لأخذها من يده!!!

فأخذها عمرو!!!

واندفع بها يقاتل المتقدمين من الروم!!!

حتى كرَّ إليه المسلمون... وتجمعوا حوله!!!

فأدبر الروم منهزمين»!!!

عَمْرو...
بطل معركة...
أجنادين؟!

إبادة مائة ألف؟!

بينما كان أبو عبيدة يسير مظفرًا في شمال الشام، كان عمرو بن العاص، وشرحبيل، يواجهان قوات الروم التي اجتمعت بفلسطين، ويجاهدان للقضاء عليها.

وكانت هذه القوات عددًا عظيمًا، يقودها أخطر قواد الرومان وأدهاهم، ويسمى أرطبون.

وكتب عمرو إلى عمر... فأمر أمير المؤمنين يزيد بن أبي سفيان أن يوجه أخاه معاوية إلى قيسارية ليفتحها، فينقطع المدد الذي يأتي إلى أرطبون عن طريق البحر.

والتقى معاوية بأهل قيسارية، وكانوا قوة هائلة، وقاتلوا مستميتين... إلا أن النتيجة دائمًا معروفة...

فقضى معاوية عليهم حتى كانت قتلاهم في المعركة ثمانين ألفًا، بلغوا بعد الهزيمة والفرار مائة ألف.

وسقطت قيسارية، وامتنع المدد عن أرطبون عن طريق البحر.

ثم استولى العرب على ميناء غزة... ففقد أرطبون كل أمل في مدد يأتيه من جهة الموانئ!

رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب؟!

ووضع عمرو داهية العرب خطته، وأحكم تكتيكه، وتب إلى عُمر يخبره بدهاء أرطبون، وخطورته، ووصف له من قوة الروم وعُدتهم.

فأمر عمر بإمداد عظيم، فأرسل إلى عمرو!

ونظر عمر في كتاب عمرو، وابتسم لصفته أرطبون بالدهاء والمكر، وقال لمن حوله: «قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عَمَّ تنفرج؟»

هذا أدهى الخلق؟!

وجاءت الإمدادات الحربية إلى عمرو، فبعث بعضًا منها إلى إيلياء والرملة... ثم سار في القوى الكبرى لجيشه يلقى أرطبون بأجنادين.

ووجد عمرو الروم في حصون وخنادق ومنعة.

فمكر عمرو مكرًا عجيبًا... وبعث رسلًا من عنده يتفاوضون في الصلح، وأسر إليهم أن يوافوه بمداخل العدو وعوراته.

لكن الرسل لم تَشْفِه... فآثر أن يتولى الأمر بنفسه!

وتفكر عمرو... وسار إلى أرطبون... ودخل عليه كأنه رسول!.

وتأمل عمرو حصونه، وعرف منها ما أراد.

وتحدث الرجلان... فارتاب الأرطبون في شخص محدثه، وقال في نفسه: «والله إن هذا لعمرو، أو إنه الذي يأخذ عمرو برأيه، وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله»!.

ثم دعا جنديًّا من رجال حرسه، فأسر إليه إذا مر العربي بمكان بذاته أن يقتله.

وأدرك عمرو إلى أن في الأمر كيدًا، فقال لأرطبون: «قد سمعت مني وسمعت منك، فأما ما قلته فقد وقع مني موقعًا وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا لنكاشفه ويشهدنا أموره. فأَرْجعُ فآتيك بهم الآن، فإن رأوا في الذي عرضت مثل الذي أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم وكنت على رأس أمرك».

سمع أرطبون هذا القول، فبدأ يشك في ظنونه، واسترجع الحارس الذي أسرّ إليه بقتل هذا العربي.

وقال أرطبون لعَمْرو: «انطلق، فجئ بأصحابك».

وخرج عمرو مسرعًا إلى عسكره، لا يلوي على شيء، ولا يظن أن يعود لمثلها.

وعرف أرطبون الأمر فقال: «خدعني الرجل، هذا أدهى الخلق»!

وبلغ النبأ إلى عُمر فقال: «غلبه عمرو، لله عمرو!».

هذا نوع من الرجال الذين حملوا دعوة الإسلام وبلغوا بها مشارق الأرض ومغاربها..

نوع ممتاز... عباقرة... تجد فيهم العظمة من أطرافها... عبادة، حرب، مكر، دهاء، سياسة، شجاعة، كرم، عزة، وفاء... كل مقومات العظمة تجدها في أصحاب محمد (ﷺ)!.

وهذا هو عمرو... وهذا نموذج من دهاء عمرو، وكيف لعب بقائد الرومان، وعبث به كأنما هو كرة قدم يدحرجها كيف يشاء.

ذلك هو الصنف الذي يصلح لحمل الإسلام... إن الإسلام في حاجة إلى رجال، لا إلى أعداد هائلة من البشر وكفى... وإنما نحتاج إلى مثل عمرو وخالد وسعد والقعقاع!!!

أجنادين؟!

والتقى الجمعان... عمرو وجيوشه... وأرطبون وجيوشه.

وبلغت الشدة بأجنادين ما بلغت باليرموك، وكثرت القتلى من الجانبين، وترجح النصر زمنًا بينهما.

ودائمًا... كان المسلمون أكثر صبرًا وثباتًا.

فلما آذنت الشمس بالمغيب، رأى أرطبون صفوفه تضطرب، ورجاله يسري فيهم الإعياء.

فانسحب بجيوشه متقهقرًا إلى بيت المقدس!

ثم رأى أرطبون الموقف ميؤوسًا منه، وأن مدينة بيت المقدس صائرة لا محالة إلى أيدي المسلمين، فانسحب بقواته إلى مصر.

وترك من ورائه المدينة المقدسة تنتظر مصيرها المحتوم!

وقال ابن الأثير في وصف معركة أجنادين:

ولما انصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص...

نزل عمرو... وشُرَحْبيل على أهل بَيْسان... فافتتحاها... وصالحا أهل الأردن...

واجتمع عسكر الروم بغَزَّة وأجنادين وبَيْسان...

وسار عمرو... وشرحبيل إلى الأرطبون ومَن معه وهو بأجنادين...

واستخلف على الأردن أبا الأعور...

فنزل بالأرطبون ومعه الروم...

وكان الأرطبون أدهى الروم وأبعدها غورًا...

وكان قد وضع بالرملة جندًا عظيمًا... وبإيلياء (القدس) جندًا عظيمًا.. فلمّا بلغ عمر بن الخطاب الخبر قال: قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب... فانظروا عمّ تنفرج؟

عَمْرو يشتت الأمر على أرطبون؟!

وكان معاوية قد شغل أهل قيسارية عن عمرو!...

وكان عمرو قد جعل علقمة بن حكيم الفراسيّ... ومسروق بن فلان العكّيّ على قتال إيلياء!...

فشغلوا مَن به عنه!!!

وجعل أيضًا أبا أيوب المالكيّ على مَنْ بالرملة من الروم... فشغلهم عنه... وتتابعت الأمداد من عند عُمر إلى عمرو...

دهاء عمرو؟!

وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطبون على شيء... ولا تشفيه الرسل...

فسار إليه بنفسه!!!

فدخل عليه كأنه رسول!!!

ففطن به الأرطبون وقال: لا شكّ أن هذا هو الأمير... أو من يأخذ الأميرُ برأيه!!!

فأمر إنسانًا أن يقعد على طريقه ليقتله إذا مرّ به...

وفطن عمرو لفعله فقال له: قد سمعتَ مني وسمعتُ منك...

وقد وقع قولك مني موقعًا وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر إلى هذا الوالي لنكايته... فأرجع فآتيك بهم الآن... فإن رأوا الذي عرضتَ عليّ الآن فقد رآه الأمير وأهل العسكر... وإن لم يروه ردَدتهم إلى مأمنهم...

فقال: نعم!!!

وردّ الرجل الذي أمر بقتله!!!

فخرج عمرو من عنده... وعلم الروميّ أنها خدعة اختدعه بها فقال: هذا أدهى الخلْق!!!

لله درّ عَمْرو؟!

وبلغت خديعته عمرَ بن الخطاب فقال: لله درّ عمرو!!!

وعرف عمرو مأخذه... فلقيه... فاقتتلوا بأجنادين قتالًا شديدًا كقتال اليرموك...

حتى كثرت القتلى بينهم!!!

وانهزم أرطبون إلى إيلياء!!!

ونزل عمرو أجنادين!!!

وأفرج المسلمون الذين يحصرون بيت المقْدِس لأرطبون... فدخل إيلياء!!!

* * *

وقال ابن الأثير في موضع آخر:

«واجتمعت الروم بأجنادَيْن وعليهم تذارق أخو هرقل لأبويه...

وقيل: كان على الروم القبقلار...

وأجنادَيْن بين الرملة وبيت جبرين من أرض فلسطين...

وسار عمرو بن العاص... ونزلوا بأجنادين وعسكروا عليهم...

فبعث القبقلار عربيًا إلى المسلمين يأتيه بخبرهم...

فدخل فيهم وأقام يومًا وليلة ثم عاد إليه فقال: ما وارءك؟

فقال: بالليل رهبان... وبالنهار فرسان...

«ولو سرق ابن ملكهم قطعوه...

«ولو زنَى رُجم..

«لإقامة الحق فيهم...»

فقال: إن كنتَ صدقتني لَبطن الأرض خيرٌ من لقاء هؤلاء على ظهرها!!!

والتقوا يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى...

فظهر المسلمون وهُزم المشركون... وقُتل القبقلار وتذارق... واستشهد رجال من المسلمين!!!

أقول: إنَّ عَمْرًا يواصل فتح بلاد فلسطين...

وها هو يطارد الأرطبون حتى ألجأه إلى القدْس... وسوف نرى أن هذا الأرطبون سوف يفر بعد ذلك إلى مصر...

فكان سببًا دعا عَمْرًا أن يشير على عُمَر بفتح مصر... للقضاء على هذا الأرطبون ومَن لاذوا بمصر فرارًا من عَمْرو!!!

عَمْرو يحاصر القُدْس...
فتستسلم..
لأمير المؤمنين عُمَر...؟!

فتح بيت المَقْدِس؟!

قال ابن الأثير:

«ثم دخلت سنة خمس عشرة... في هذه السنة فُتح بيت المقدس...

عمرو يفتح ما بقي من مدن فلسطين؟!

وسبب ذلك أنه لما دخل أرطبون إيلياء...

فتح عمرو غزّة!!!

ثم فتح سَبَسْطِيَة... وفيها قبر يحيى بن زكريّاء عليه السلام!!!

وفتح نابلس بأمان على الجزية!!!

وفتح مدينة لُدّ!!!

ثم فتح يُبْنى... وعَمَواس... وبيت جبرين!!! وفتح يافا!!!

وفتح عمرو مرج عيون!!!

فلمّا تم له ذلك... أرسل إلى أرطبون رجلًا يتكلم بالروميّة وقال له: اسمع ما يقول...

وكتب معه كتابًا... فوصل الرسول ودفع الكتاب إلى أرطبون وعنده وزارؤه...

فقال أرطبون: لا يفتح والله عمرو شيئًا من فلسطين بعد أجنادين...

فقالوا له: من أين عملتَ هذا؟

فقال: صاحبها رجل صفته كذا وكذا...
وذكر صفة عُمَر...
فرجع الرسول إلى عَمْرو... فأخبره الخبر... فكتب إلى عمر بن الخطاب يقول: إنّي أعالج عدوًّا شديدًا... وبلادًا قد ادّخرت لك... فرأيك!!!
فعلم عُمر أن عَمْرًا لم يقلْ ذلك إلا بشيء سمعه...
فسار عمر عن المدينة!!!
فقدم الجابية على فرس...
وكتب إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بالجابية ليوم سمّاه لهم في المجرّدة... ويستخلفوا على أعمالهم...

إنما شبعتم منذ سنتين؟!

فكان أول مَن لقيه يزيد... وأبو عبيدة... ثم خالد... على الخيول، عليهم الديباج والحرير!!!
فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها وقال: ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم!... إيّاي تستقبلون في هذا الزيّ وإنما شبعتم منذ سنتين؟!!...
وبالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلتُ بكم غيركم!!!
فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنها يلامقة[1] وإنّ علينا السلاح...
قال: فنعم إذَنْ!!!
وركب حتى دخل الجابية...
وعَمْرو وشُرَحْبيل كأنهما لم يتحرّكا...
وكانوا قد شجوا عَمْرًا وأشجاهم... ولم يقدر عليها... ولا على الرملة!!!

القُدْس تستسلم؟!

فبينما عُمَر معسكر بالجابية فزع الناسُ إلى السلاح...

---

(١) اليلمق: القباء المحشوّ.

فقال: ما شأنكم؟
فقالوا: ألا ترى إلى الخيل والسيوف؟...
فنظر فإذا كردوس يلمعون بالسيوف!...
فقال عمر: مستأمنة فلا تراعوا...
فأمنوهم!!!
وإذا أهل إيلياء وحيزها... فصالحهم على الجزية... وفتحوها له!!!

أرطبون يفرّ إلى مصر؟!

وكان الذي صالحه العوّام... لأنّ أرطبون والتذارق دخلا مصر لما وصل عُمَر إلى الشام...
وأخذا كتابه على إيلياء وحيزها... والرملة وحيزها...
وأرسل عُمَر إليهم بالأمان...
وجعل علقمة بن حكيم على نصف فلسطين وأسكنه الرملة...
وجعل علقمة بن مُجَزِّز على نصفها الآخر وأسكنه إيلياء...
وضمّ عَمْرًا وشرحبيل إليه بالجابية... فلقياه راكبًا... فَقبَّلا رُكبتيه!!!
وضمّ عُمَرُ كلّ واحد منهما... محتضنهما!!!

أمير المؤمنين عمر في القُدْس؟!

ثم سار إلى بيت المقدس من الجابية...
فركب فرسه فرأى به عرجًا...
فنزل عنه وأتى ببرذون فركبه... فجعل يتجلجل به!!!
فنزل وضرب وجهه وقال: لا أعلم من علّمك هذه الخيلاء؟!
ثم لم يركب برذونًا قبله ولا بعده!...
وفُتحت إيلياء (القدس) وأهلها على يديه!!!
ولحق أرطبون ومَنْ أبَى الصلح من الروم بمصر!!!

فلما ملك المسلمون مصرَ قُتِل!!!

* * *

وقالوا:

مجلس الشورى يجتمع؟!

وحاصر عمرو بجيوشه بيت المقدس شهورًا، واشتدت مقاومة المدينة، حتى كتب عمرو إلى عمر يستمده ويقول: «إني أعالج حربًا كؤودًا صدومًا، وبلادًا ادُّخِرَتْ لك، فرأيك».

وقرأ عمر كتاب عمرو، على المسلمين بالمسجد، واستشارهم فيه.

ورأى عثمان بن عفان ألا يبرح عمر المدينة: «فأنت إن أقمت، ولم تَسِرْ إليهم رأوا أنك بأمرهم مستخف، ولقتالهم مستعدّ، فلم يلبثوا إلا اليسير حتى ينزلوا على الصَّغَار، ويُعطوا الجزية».

وعارض علي بن أبي طالب رأي عثمان، وأشار على عمر بالسير إلى إيلياء، «فقد أصاب المسلمين جهد عظيم، من البرد والقتال وطول المَقام... فإذا أنت قَدِمت عليهم كان لك وللمسلمين الأمن والعافية والصلاح والفتح. ولست آمن أن ييأسوا منك ومن الصلح ويُمسكوا حصنهم ويأتيهم المدد من بلادهم وطاغيتهم، لا سيما وبيت المقدس معظَّم عندهم وإليه يحجون».

وأخذ عمر برأي عليّ، فأنابه على المدينة، وأمر الناس بالاستعداد للسير معه.

موكب عمر؟!

وسار عمر على رأس الجيش الذي اجتمع له، من المدينة حتى نزل الجابية، وكان قد كتب إلى أمراء الجيوش في الشام، أن يوافوه بها ليوم سمّاه لهم، وأن يستخلفوا على أعمالهم.

فكيف كان عمر، في طريقه إلى الشام؟

ليت الناس كلهم يجتمعون ليشهدوا أعجب منظر في التاريخ... موكب عمر،

حاكم أكبر أمبراطورية يومئذ... الأمبراطورية التي ابتلعت الكتلتين اللتين كانتا هما العالم القديم...

قالوا: سار عمر على بعير له، جعل عليه غرارتان، في إحداهما سويق، وفي الأخرى تمر!

وبين يديه قربة مملوءة، وخلفه جفنة للزاد!

ومعه جماعة من الصحابة...

وكان يقرب لهم جفنته في الصباح فيأكلون معه!

ثم ماذا؟

وكان يعلم المسلمين الذين يمر بهم، وينهاهم عما يخالف دينهم مما كانوا يقترفونه عن جهل، وأراد عمر دخول بيت المقدس وعليه مرقعة من صوف فيها أربع عشرة رقعة بعضها من أديم، فقال له أصحابه: لو ركبت بدل بعيرك جوادًا، ولبست ثيابًا بيضاء!.

ففعل... وطرح على عاتقه منديلًا من كتان دفعه إليه أبو عبيدة!

وقدم له برذون ركبه، فلما رآه يهملج به نزل عنه!.. وقال لأصحابه: أقيلوا عثرتي أقال الله عثرتكم يوم القيامة، فقد كاد أميركم يهلك بما دخل قلبي من العجب والكبر!.

ثم نزع ما كان عليه، وعاد إلى لبس مرقعته!!

وصف تفصيلي للموكب؟!

قالوا: قدم عمر بن الخطاب الجابية عن طريق إيلياء على جمل أورق، تلوح صلعته للشمس، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة... تصطفق رجلاه بين شعبتي الرحل بلا ركاب.

وطاؤه كساء أنبجاني ذو صوف.. هو وطاؤه إذا ركب، وفراشه إذا نزل!.

حقيبته نمرة أو شملة محشوة ليفًا!.. هي حقيبته إذا ركب، ووسادته إذا نزل!.

وعليه قميص من كرابيس، قد رسم، وتخرق جنبه!.

فقال: ادعوا إليَّ رأس القوم... فدعوا له الجلومس... فقال: اغسلوا قميصي، وخيطوه، وأعيروني ثوبًا أو قيمصًا!.

فأتي بقميص كتان، فقال: ما هذا؟

قالوا: كتان.

قال: وما الكتان؟... فأخبروه، فنزع قميصه، فغسل، ورقع، وأتي به، فنزع قميصهم ولبس قميصه!.

فقال له الجلومس: أنت ملك العرب، وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل، فلو لبست شيئًا غير هذا، وركبت برذونًا، لكان هذا أعظم في أعين الروم!.

فماذا كان جواب عمر؟

قال: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فلا نطلب بغير الله بديلًا».

فأتي ببرذون، فطرح عليه قطيفة بلا سرج ولا رحل، فركبه بها، فقال: احبسوا احبسوا ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا. فأتي بجمله فركبه.

وقالوا: لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره، ونزع خفيه، فأمسكهما بيده، وخاض الماء ومعه بعيره!.

فقال له أبو عبيدة: قد صنعت اليوم صنيعًا عظيمًا عند أهل الأرض، صنعت كذا وكذا.

فصك عمر في صدره... وقال: أو لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة!.. إنكم كنتم أذل الناس، وأحقر الناس، وأقل الناس، فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله!».

معاهدة بيت المقدس؟!

فلما عرف قواد عمر مقدمه إلى الجابية... ساروا إليه يتقدمهم يزيد بن أبي سفيان، ثم أبو عبيدة، ثم خالد بن الوليد، على الجند في عرض يأخذ بالأبصار!.

ورآهم عمر مقبلين، عليهم الحرير والديباج، فغلى الدم في عروقه لمرآهم، فنزل عن فرسه، وأخذ الحجارة، ورماهم بها، وصاح مغضبًا: «سَرُعَ ما لُفِتُّم عن رأيكم! إياي

تستقبلون في هذا الزي! وإنما شبعتم منذ سنتين! وبالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم».

إن عمر يثور أشد الثورة، أن رأى قواده الذين دوخوا الرومان، عليهم مظاهر العز والفخفخة!.

واعتذروا إليه جميعًا وقالوا: «يا أمير المؤمنين إنها يَلَامِقة، وإن علينا السلاح».

ورأى عمر سلاحهم، فخفف مرآه من ثورة غضبه...

فقال: «نعم إذا!».

وركب، حتى دخل الجابية، وسار القوم في صحبته.

ونزل عمر بمعسكر الجابية... وجاءت رسل صفرنيوس، أسقف بيت المقدس، يتمون الصلح مع أمير المؤمنين.

وصالحهم عمر على صلح دمشق، بل على صلح أكثر منه سخاء، وكتب لهم معاهدة هذا نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله، عمر، أمير المؤمنين، أهل إيلياء من الأمان... أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصُلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، إنه لا تُسكَنُ كنائسهم، ولا تُهدم، ولا ينتقص منها، ولا من حيِّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم.

«ولا يُكرَهون على دينهم، ولا يُضارّ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء (بيت المقدس) معهم أحد من اليهود.

«وعلى أهل إيلياء أن يُعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن.

«وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية.

«ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويُخلي بيعهم وصُلبهم، فإنهم على أنفسهم وعلى بِيَعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم.

«ومن كان بها من أهل الأرض، فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل

إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله. وإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصَد حصادهم.

«وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية».

ووقع عمر على المعاهدة... وشهد عليها **خالد، وعمرو، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية...**

ورجع رسل صفرنيوس بالمعاهدة إلى القدس، فسر الأسقف سروراً عظيمًا.

وساد الفرح أهل المدينة جميعًا... كيف لا وقد أعطت المعاهدة للجميع حرية العقيدة، وحرية الإقامة، وحرية الخروج من المدينة، وحرية اللحاق بالرومان، وحرية الحياة مهما تنوعت، ومهما تعددت؟

وتجلت عبقرية عمر، عبقرية الإسلام، واضحة أشد ما تكون في تلك المعاهدة.

أعطاهم عمر حق الحياة، وحق الاعتقاد، وحق الإقامة، وحق الهجرة، وحق الاختيار، وحق الأمن والاستقرار.

وهذا هو الإسلام في معاهداته، وفي المجال الدولي.. حرية، ووفاء، واحترام للعهود، واحترام للعقائد... لا إكراه في الدين.

لقد خلص النصارى بيت المقدس من سخافات حكم المسيحيين أنفسهم بتلك المعاهدة.

أين هذا مما كان يريد هرقل أن يُكره عليه أهل القدس من ترك مذهبهم إلى مذهب الدولة المسيحي الرسمي، فمن أبى جُدع أنفه، وصُلمت أذناه، وهُدِم بيته؟

لقد اعتبرها عمر مدينة دولية، لها كل الحرمات، وكل القداسات... لأي إنسان من أهل الأرض أن يقيم بها، أو يرحل عنها في حرية تامة عامة...

وهذا هو الإسلام في المحيط الدولي... وتلك هي سماحته، وهذه هي نظرته إلى الحرية واحترامه لحقوق الإنسان.

عمر يدخل بيت المقدس؟!

امتطى أمير المؤمنين فرسه، ودخل به بيت المقدس، ومعه عدد من قواده...

وتلقاه البطريق صفرنيوس وكبراء المدينة، وتلطف بهم وأدناهم، وتحدث إليهم حديثًا أدخل محبته في قلوبهم.

ورأى أئمة المسيحية، وقادة الرومان، رجلًا لا عهد لهم بمثله...

صدق، عدل، بساطة، رحمة، إنكسار لله، وذكروا جبروت قيصر، وعسفه، فمالت قلوبهم إلى عمر ميلًا شديدًا.

إلا أنهم محترفة مرتزقة، لا يعدلون بمناصبهم شيئًا من تكاليف الحق وتضحياته.

وجاء المساء، وانصرف القوم.. وخلا عمر بنفسه... فقام يصلي من الليل طويلًا، شكرًا لله على ما أنعم به عليه.

فلما أصبح جاءه صفرنيوس، وسار معه خلال المدينة، يشرح له من آثارها، وكم لها من آثار!.

وبينما الرجلان بكنيسة القيامة، أدرك عمر موعد الصلاة... فطلب البطريق إليه أن يصلي بها، فهي من معابد الله...

إلا أن عمر اعتذر، بأنه إن يفعل يتبعه المسلمون على تعاقب القرون، إذ يرون عمله سنة مستحبة، فإذا فعلوا أخرجوا النصارى من كنيستهم، وخالفوا عهد الأمان.

واعتذر للسبب نفسه عن الصلاة بكنيسة قسطنطين المجاورة لكنيسة القيامة، وكانوا قدموا له عند بابها بساطًا يصلي عليه، وإنما صلى في مكان قريب من الصخرة المقدسة على أطلال هيكل سليمان.

وفي هذا المكان شيَّد المسلمون بعد مسجدًا فخمًا، هو المسجد الأقصى.

أما في عهد عمر فقد كان هذا المسجد بسيط البناء كمسجد النبي (ﷺ) بالمدينة يوم أقيم.

عودة أمير المؤمنين؟!

وأنهى عمر رحلته إلى بيت المقدس، وحقق رجاءه. وفتح الله له المدينة العالمية، يفعل فيها ما يشاء.

بينما هرقل يفر مذعورًا إلى القسطنطينية، لا يدري ماذا يفعل، ولا ما سوف يفعله به عمر!

وكانت أنباء الفتح قد بلغت عليًا والمسلمين بالمدينة... فاستقبلوه بظاهر المدينة استقبالًا عظيمًا!!!

عَمْرو بطل ميدان فلسطين؟!

وقال العقاد في «عمرو بن العاص»:

«وكأنما شاءت الأقدار للخليفة الأول - أبي بكر الصديق - أن يفارق الدنيا وقد اطمأن إلى غزوة الروم، التي اضطلع بتبعاتها المرهوبة وهو عظيم الهمّ بها، شديد القلق من عواقبها. فانتهت أيامه بهذا النصر المؤزر الذي أوشك أن يكون حاسمًا كل الحسم في معارك الشام وفلسطين.

وأسلم الزمام إلى خير يد تُلقى إليها الأزمَّة من بعده، فبويع لعمر بن الخطاب بالخلافة والنصر مقبل، والحوادث مواتية لمن يتولاها بالحزم الذي هو أهله، وبالروية التي كانت قرينة لحزمه.

وكان عمر بن الخطاب من أعظم الناس ثقة بأبي عبيدة بن الجراح، لما سمع من تزكية النبي له، واختبر من أمانته وإيمانه في طويل الصحبة بين الرجلين العظيمين. وكان يبلغ من هذه الثقة أنه هم أن يبايعه بالخلافة في عجلة الموقف بعد وفاة النبي عليه السلام، وأنه كان يقول وهو يجود بنفسه: «لو كان أبو عبيدة حيًا لعهدت إليه».

فلم يلبث غير قليل أن وضع هذه الثقة في موضعها، فأسند إليه القيادة العامة في حرب الروم، واعتمد على رأيه فيما يأتيه من أخبار ذلك الميدان الفسيح.

والظاهر أن توحيد القيادة كان أعون على توزيع العمل بين القواد في أنحاء الميدان

كله، **فاستقل عمرو بن العاص بغزوات فلسطين وما جاورها.** وتم على يديه فتح سواحلها **وحصار بيت المقدس ومنازلة صاحبها «اريطيون»**، بالجرأة تارة، وبالمكيدة تارة أخرى، وكلتاهما من الصفات التي اشتهر بها عمرو بن العاص.

واتفقت المصادر على التنويه ببلاء عمرو في هذه الغزوات. فوضح منها جميعًا أنه لم يكن يألو ذلك العمل الجسيم الذي وكل إليه جهدًا من شجاعته ولا من تدبيره، وربما جشمته موارد التدبير مخاطر لم يتجشمها في موارد القتال!

وجماع تلك الأخبار **أن عمرًا كان بطل الغزوة الشامية في ميدان فلسطين،** وأنه ربما كان **بطل الغزوة من طلائعها الأولى، يوم كانت بعد في طور التأهب والاستطلاع.**

وليس رأي الخليفة الجديد في عمرو بمجهول، فربما كانت ثقته باقتداره واستعداده لعظيمات الأمور أكبر من ثقة أبي بكر الذي تابع في استعماله سنة النبي عليه السلام، فعمر بن الخطاب هو الذي قال فيه: «**لا ينبغي أن يمشي أبو عبد الله على الأرض إلا أميرًا**»، وهو الذي كان يقول كلما رأى رجلًا يلجلج في كلامه: «خالق هذا وخالق عمرو واحد». وهو الذي تبين صواب هذه الثقة في **غزوات فلسطين نفسها،** فجعل يقول لإخوانه: «رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب»، يعني أريطيون الذي كانت تصحفه قلة النقط والشكل في الحروف العربية يومئذ إلى أرطبون.

وما زالت ثقة الفاروق بكفاءة عمرو ودرايته تعظم وتتمكن كلما صحبه التوفيق في فتح مدينة بعد مدينة، والغلبة على جيش بعد جيش. حتى فرغ من السواحل والمشارف، واتجه بعزمه كله إلى حصار «إيلياء» أو بيت المقدس حاضرة البلاد.

وقد شدد الحصار عليها حتى يئس أريطيون من مقاومتها وفر منها إلى الديار المصرية، وقيل إن بطريقها لم يؤجل تسليمها للقائد العربي إلا لأنه أراد أن يكون التسليم بمحضر من الخليفة، فكتب عمرو يستدعيه ويعلمه برغبة البطريق، وتم الصلح في السنة الخامسة عشرة للهجرة بحضور الفاروق.

وما هو إلا أن سكنت الشام إلى الحكم العربي، وخفّ الطاعون الذي فشا في

أرجائها بين السنة السابعة عشرة والثامنة عشرة للهجرة، حتى تطلعت نفس عمرو إلى فتح أكبر وأخطر، ونازعته إلى منزلة أشبه به وأجدر: إلى فتح الديار المصرية التي يعلم المسلمون من القرآن الكريم أنها كرسي فرعون ذي الأوتاد، ويعلمون من أخبار أيامهم أنها درة التاج في دولة هرقل، وأن الروم لا يدعونها ولو غلبوا عليها، لأنهم عادوا إليها فانتزعوها من الفرس بعد مقامهم بها اثنتي عشرة سنة، وفاقًا لوعد القرآن أن الروم من بعد غَلَبِهم سَيَغلِبون.

وهنا تشترك المصادفة والتقدير اشتراكهما في كل عمل جسيم من أعمال التاريخ القديم والحديث!

ترى كيف كان يخطر هذا الخاطر على بال الفاروق لو لم يفاتحه فيه عمرو بن العاص؟

وترى كيف كان يخطر هذا الخاطر على بال عمرو بن العاص لو لم يكن **فاتح فلسطين على طريق مصر**، وكان فاتح دمشق أو فاتح السواد؟

وترى كيف كان التردد منتهيًا بالخليفة لو لم ينته وعمرو يغذ السير في طريقه إلى التخوم المصرية؟!

أفضى الفاتح الجسور بأمله وأمل الإسلام إلى الخليفة، فاستمع إليه، وتردد فيه بين ما عرف من كفاية عمرو، وما عرف من إقدامه على العظائم في سبيل الشرف والرئاسة.

بل تردد فيه بين دواعي الحرب، وهو لا يرى داعية للحرب إلا درءًا لخطر أو قصاصًا من عدوان.

وكان أقرب الناس إلى الفاروق يترددون مثله، ويرون في طماحة عمرو بن العاص مثل رأيه، منهم من يخلص في حذره، ومنهم من يغار من عمرو أن يكتب هذا الفتح الجليل على يديه!

وفي طليعة المخلصين حذرًا من عواقب هذا الطموح الجموح، عثمان بن عفان، فقد كان يذكر الفاروق بجرأة ابن العاص، وأنه يرد المهالك في سبيل طمعه، وما بالفاروق من حاجة إلى تذكير.

أما ابن العاص، فقد كان أخبر بالخليفة وبمصر من أن تفوته وسيلة الإقناع في هذا المقام!

إنه ليعلم حرص الفاروق على جند المسلمين أن يسفك دم واحد منهم في غير خطر واقع أو عدوان محذور.

فلتكن غزوته لمصر إذن دفعًا للخطر الواقع، وضمانًا لأرواح المسلمين، ولقد كانت هي كذلك لا مراء.

ولم يكن عمرو مغررًا بالفاروق، ولا كان الفاروق ممن يجوز عليهم التغرير، فإنه ألقى إلى الخليفة أن «أريطيون» **داهية الروم قد فر إلى مصر ليجمع فيها قوة الدولة الرومانية ويكر بها على الشام،** فلا أمان للمسلمين في فلسطين أو الشام أو الحجاز نفسه وباب هذا الخطر مفتوح!! وإنما يوصد الباب إذا ضربت الدولة الرومانية في مصر، وامتنع منها مدد الجند والمال والطعام لتلك الدولة المتداعية..

فعلم الفاروق أنه يستمع إلى صواب، واستجاب لرأي عمرو وهو بين الإقدام والإحجام، فأذن له في المسير، وأنظره كتابًا آخر يأتيه منه في الطريق، وقال له: «سيأتيك كتابي سريعًا إن شاء الله تعالى، فإن أدركك كتابي آمرك فيه بالإنصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئًا من أرضها، فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي، فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره».

في عام المجاعة...
عَمْرو يقول لعُمَر:
لأبعثنَّ إليك بِعِيرٍ...
أوَّلُها عندك وآخرُها عندي...؟!

عام الرمادة!

قالوا:

كان سبب المجاعة أن أمسك المطر في شبه الجزيرة العربية كلها تسعة أشهر كاملة، وتحركت الطبقات البركانية من أرضها، فاحترق سطحها، وكل ما عليه من نبات، فصارت الأرض سوداء مجدبة كثيرة التراب، فإذا تحركت الريح سفت رمادًا.

لذا سمي هذا العام عام الرمادة!.

ونشأ عن إمساك المطر، وهبوب الرياح، وهلاك الزرع والضرع، جوع أهلك الناس والأنعام، فقد فني الكثير من قطعان الغنم والماشية أو جف ما بقي منها، حتى كان الرجل يذبح الماشية فيعافها لقبحها، رغم جوعه وبلواه.

من ثم أقفرت الأسواق، فلم يبق فيها ما يباع ويشترى، وأصبحت الأموال في أيدي أصحابها لا قيمة لها، إذ لا يجدون لقاءها ما يسد رمقهم.

وطال الجهد، واشتد البلاء، فكان الناس يحفرون أنفاق اليرابيع، والجُرْذان، يخرجون ما فيها.

كان أهل المدينة أحسن من غيرهم حالًا أول العهد بالمجاعة.

فالمدينة حضر ادّخر أهله حين الرخاء ما اعتاد أهل الحضر ادخاره، فلما بدأ الجد، جعلوا يخرجون ما ادخروا يعيشون منه.

أما أهل البادية فلم يكن لهم مدخر، فاشتد بهم الكرب من أول الأمر.

ثم إنهم هرعوا إلى المدينة يجأرون إلى أمير المؤمنين بالشكوى، ويلتمسون لدى أهلها فتاتًا يقيمهم.

وازداد هؤلاء اللاجئون عددًا فضاقت بهم المدينة، واشتد بأهلها البلاء، فصاروا في مثل حال أهل البادية جوعًا وجدبًا.

ماذا صنع عمر؟!

اشتدت المجاعة... وجيء عمر بخبز مفتوت بسمن، فدعا رجلًا بدويًا فأكل معه، فجعل البدوي يتبع باللقمة الودك إلى جانب الصفحة.

فقال له عمر: كأنك مقفر من الودك؟

وأجابه الرجل: أجل! ما أكلت سمنًا، ولا زيتًا، ولا رأيت آكلًا له منذ كذا إلى اليوم!.

وقامت بنفس عمر أعتى ثورة يمكن أن تقوم بنفس رجل... وأقسم... لا يذوق لحمًا، ولا سمنًا، حتى يحيا الناس!!.

وظل على هذا العهد حتى أذن الله، فعاد المطر، وزال عن الناس الجدب!.

أول مبدأ خطير؟!

وعمر حين يقسم... إنما هو الحق يقسم... يعاهد الله ألا يذوق لحمًا ولا سمنًا، حتى يعود الناس إلى ما كانوا عليه من الرخاء.

وإذا عاهد عمر ربه، فإنما هو العهد النافذ الذي يدل على يقظة عمر الشديدة، وحساسيته البالغة نحو الناس، وحقهم عليه كحاكم لهم.

قدمت السوق عُكّةٌ من سمن، ووَطْب من لبن... فاشتراهما غلام له بأربعين درهمًا.

وذهب إليه الغلام فقال له: قد أبر الله يمينك، وعظم أجرك.. قدم السوق وطب من لبن، وعكة من سمن، فابتعتهما بأربعين.

قال عمر: أغليت... فتصدقْ بهما، فإني أكره أن آكل إسرافًا.

وأطرق عمر هنيهة ثم قال: كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسسني ما يمسهم؟!.

وذلك هو أول المبادئ الخطيرة التي وضعها عمر، في عام المجاعة...

ومن هو عمر حين قال هذا المبدأ الخالد؟

هو الرجل الذي يحكم العالم شرقه وغربه بلا منازع!.

ولو أمكنك الآن أن تتصور الكتلتين الشرقية والغربية يحكمهما جميعًا رجل واحد، بدولهما ومقدراتهما وإمكانياتهما الواسعة، لاستطعت أن تتصور مدى السلطة والإمكانيات التي كانت بيد عمر، حين نطق بذلك المبدأ.

لو شاء عمر لعاش في قصور وترف، وما عابه أحد، فهو رجل يحكم العالم كله!.

ولو شاء لتعالى على الناس، وهو حقيق أن يتعالى، فإن أحقر صعلوك على الأرض يتعالى، فما بال عمر لا يتعالى وقد خضعت له الملوك؟

ولو شاء لعاش ولو عيشة مقبولة مما يعيشها أوساط الناس، إن أراد أن يكون زاهدًا، ولحمد الناس منه ذلك وشكروه.

ولكنه اجتاز كل تلك الأحوال، وسما فوقها جميعًا، وأقسم قسمه الخالد الحق: لا يذوق لحمًا ولا سمنًا حتى يحيا الناس!!.

لماذا يا عمر تحرم على نفسك اللحم والسمن، وقد أحلهما لك الله؟

لماذا تشدد على نفسك هذا التشديد؟

إنما رسمت بما فعلت دستورًا خالدًا إلى يوم القيامة للجماهير والملوك... أنه ينبغي على من حكم الناس، أن يعاني الآلام التي يعانيها أقل إنسان في الناس.

حين جاءك غلامك بسمن ولبن... وأشار عليك أن تأكل منهما، ما دام في السوق مثلهما... رفضت يا عمر... وأطلقتها خالدة: كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسسني ما يمسهم؟!.

وهنا ينبغي أن نقوم جميعًا، فرادى، وجماعات، ونتفكر في قول عمر... وسوف نجد فيه حلًّا لمشاكلنا وخلافاتنا...

عمر يَسْوَدُّ وجهه؟!

ونفذ عمر ما عاهد الله عليه... حتى رآه الناس، عام الرمادة، وقد اسود لونه - وكان أبيض مشربًا بحمرة - ذلك أنه كان يأكل السمن واللبن واللحم، فلما أمحل الناس، حرمها على نفسه، وأكل بالزيت، وأكثر من الجوع حتى كان الناس يقولون، وقد رأوا ما أصابه لو لم يرفع الله المحل، عام الرمادة، لظننا أن عمر يموت همًّا بأمر المسلمين.

واسود وجه عمر... ونحل جسمه... وقرقرت أمعاؤه... من الجوع...

يا غوثاه! يا غوثاه!

إن رجلًا كعمر، لا يسوس الشعوب سياسة الشعراء، الذين يقولون ما لا يفعلون... كلا، وإنما هو يعمل لرفع المجاعة عن الشعب ما استطاع إليه سبيلًا، وذلك بعد أن يكون هو نفسه مثالًا حيًّا للشعب كله...

جاع عمر، وحرم على نفسه الملذات طول المجاعة... ثم انطلق يصدر أوامره إلى نوابه على الأقطار.

كتب إلى عمرو بن العاص بفلسطين يقول: «**سلام عليك! أما بعد، أفتراني هالكًا ومن قبلي، وتعيش أنت ومن قبلك! فيا غوثاه! يا غوثاه! يا غوثاه!**.

عمر يتفجع، ويتوجع، ويستنجد... لا لنفسه، كلا وإنما للشعب، للجائعين..

وأجابه عمرو: «**أما بعد، فلبّث لأبعثن إليك بعيرٍ أولها عندك وآخرها عندي**».

انظر... تجاوب، تفاعل، كل إنسان يتألم لما يصيب الآخر... عمر يستغيث، وعمرو يتسجيب فورًا. تمامًا كالجسد الواحد، إذا اشتكى عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر...

وبعث عمر بمثل هذا الكتاب إلى معاوية بن أبي سفيان، وأبي عبيدة بن الجراح بالشام، وإلى سعد بن أبي وقاص بالعراق.

فأجابوه جميعًا، بنحو مما أجاب به عمرو بن العاص...

كل أعضاء الجسم تستجيب لنجدة أي جزء يصاب أو يحتاج من الجسم... كما شبههم رسول الله... مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد...

القرى قبل العواصم؟!

وكان أبو عبيدة بن الجراح أسرع الأمراء استجابة لنداء عمر، وغياثًا لأهل شبه الجزيرة.

سبقهم جميعًا، فقدم في أربعة آلاف راحلة محملة طعامًا.

فولاه عمر قسمته فيمن حول المدينة.

فلما فرغ من ذلك أمر له عمر بأربعة آلاف درهم.

فقال: لا حاجة لي فيها يا أمير المؤمنين! إنما أردت الله وما قِبَله، فلا تدخل عَليَّ الدنيا!.

ما هذا يا أبا عبيدة!... أين لصوص الشعوب والجماهير، ليتعلموا من جميل فعالك؟

فأجابه عمر: خذها، فلا بأس بذلك إذ لم تطلبها، وإني قد وليت لرسول الله مثل هذا فأعطاني بعد أن قلت له مثل ما قلت لي.

وقبض أبو عبيدة المال، وانصرف إلى عمله. وهذا مبدأ آخر خطير... إن عمر يقرر أن على الدولة أن تدفع أجرًا إلى من يعمل لها، وعلى من يعمل أن يأخذ ذلك الأجر ويستمتع به لأنه حل له.

فعل هذا عمر، وفعله أبو عبيدة، اقتداء بفعل رسول الله.

ولا ينقص ذلك من أجر العامل عند الله...

الدولة ملزمة بإطعام الجميع؟!

وبعث عمرو بن العاص الطعام من فلسطين على الإبل، وفي السفن من ثغر أيلة (العقبة حاليًا). **بعث في البحر عشرين سفينة تحمل الدقيق والوَدَك، وبعث في البر ألف بعير تحمل الدقيق.**

وبعث معاوية بن أبي سفيان ثلاثة آلاف بعير من الشام.

وبعث سعد بن أبي وقاص ألف بعير من العراق تحمل كلها الدقيق.

هذا خلا خمسة آلاف كساء أرسلها عمرو، وثلاثة آلاف عباءة أرسلها معاوية.

إمدادات سريعة، تتوالى لنجدة الجزيرة العربية الجائعة... وهكذا كانوا، يغيثون بعضهم بعضًا..

فماذا كان مسلك عمر إزاء هذه الإمدادات؟

أصدر أمرًا بتعيين وزيرًا للتموين يشرف على توزيع الإمدادات على أهل الأمصار والبادية...

ثم ماذا؟... ثم أشرف بنفسه على إطعام أهل المدينة ومن وفد إليها!.

وقد يقول قائل: وهل إطعام الطعام أمر مهم حتى يباشره رئيس الدولة بنفسه؟

وأقول: نعم... إنه أمر إنساني... شعب جائع، فإذا رأى رئيسه يطعمه بنفسه، قرت عينه، واطمأن قلبه، وانشرح صدرًا.

وكأين من أمر يعتبره الناس شيئًا تافهًا، وهو خطير الأثر في نفوس الشعوب.

وانصرف مندوبوه، إلى أرجاء شبه الجزيرة يخففون عن الناس بلواهم.

فلقي المندوبون ما بعث به سعد بن أبي وقاص من الأقوات عند أفواه العراق، فأقاموا ينحرون للناس الجُزُر، ويطعمونهم الدقيق، ويلبسونهم العَبَاء، حتى رفع الله البلاء.

اللحم، والدقيق، والملابس... الغذاء والكساء، تلتزم به الدولة إزاء الجماهير... ضرورات الحياة.

وقال عمر لمندوبه الذي بعثه يلقى عير الشام: «أما ما لقيت من الطعام فملْ به إلى أهل البادية. فأما الظروف فاجعلها لُحُفًا يلبسونها، وأما الإبل فانحرها لهم يأكلون من لحومها، ويحملون ودكها، ولا تنتظر أن يقولوا ننتظر بها الحيا (المطر). وأما الدقيق فيصطنعون، ويُحرزون حتى يأتي أمر الله بالفرج».

أما عمر فقد تولى إطعام أهل المدينة ومن اجتمع إليهم بنفسه... فكان يأدم الخبز بالزيت يجعله ثريدًا، وينحر بين الأيام الجزور فيجعلها على الثريد، ويأكل مع القوم مما يأكلون!.

اشهدي أيتها الدنيا ماذا يفعل عمر... حاكم الدنيا كلها؟

يغد الطعام للجماهير، ثم يجلس معهم، ويأكل مما يأكلون!

وجهًا لوجه... الحاكم والشعب... ليس هناك حجب ولا عوائق ولا موانع... وإنما الجميع في المعركة، وفي التجربة...

وهذا أعلى أنواع الحكم، وأرفع أنواع الديموقراطيات!.

فكم تتعرض الدول لكوارث الفيضانات أو الزلازل أو البراكين، مما يؤدي إلى تشريد السكان وجوع المصابين، فما علمنا أن رئيس الدولة يعيش الكارثة، ويحرم على نفسه ملذات الحياة حتى ينعم بها المصابون!.

ولكن عمر... ذلك الذي تخرج على يدي رسول الله... يضرب للإنسانية كلها أروع الأمثال... ويعلمها أرفع أنواع الديموقراطية، حين يمتنع عن تناول كل صنف ليس في متناول كل الشعب، وحين يعد الأطعمة بنفسه، ويجلس وسط الجماهير يأكل معها!.

أسرة واحدة، وهذا أبوهم، يأكل معهم!.

ما أسعد الشعب بعمر، وما أسعد عمر بالشعب... إن هذا لهو الإسلام!.

فلما أقبلت الإبل من العراق والشام، كان ينحر على مائدته كل يوم عشرين جزورًا، يطعمها الناس.

وكان له رجال مخابرات، يجتمعون عنده إذا أمسوا، فيخبرونه بكل ما رأوه يومهم.

يريد عمر أن يعرف الحالة على الطبيعة، ربما هناك جياع لم يلتفت إليهم، أو عراة لم يهتم بأمرهم!.

إحساس بالمسؤولية فوق الإحساس نفسه!..

أقول: كان هذا شيئًا عن المجاعة... عام الرمادة.. سنة ثماني عشرة، وكيف كان موقف عمرو بن العاص... وهو بفلسطين... حين استغاثه أمير المؤمنين؟!...

فماذا كان موقف عمرو في الطاعون الذي أصاب الناس كذلك سنة ثماني عشرة؟!

كيف...

واجه عمرو...

خطر الطاعون؟!

مضت المجاعة بآثارها المخيفة... فأنزل الله بلاء آخر على المسلمين، يختبرهم به كما اختبرهم بالمجاعة!

فقد فشا الطاعون في عَمواس من أرض فلسطين، ثم انتقلت عدواه إلى الشام، فجعل يفتك بكل من يصابون به فتكًا ذريعًا.

لم يكن الواحد منهم يطعن حتى يدركه الموت.

وطال الوباء شهورًا، هلك أثناءها من المسلمين خمسة وعشرون ألفا بالشام وحدها.

وكان منهم أبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، ويزيد بن أبي سفيان... وغيرهم كثير. وانتشر الوباء في العسكريين كما انتشر في المدنيين على حد سواء.

أفرارًا مِن قَدَر الله يا عمر؟!

وكان عمر قد نوى الذهاب إلى الشام، تفتيشًا وتنظيمًا لشؤونه، بعد ما تم فتحه من أقصاه إلى أدناه.

وسار من المدينة، حتى إذا بلغ سرع على مقربة من تبوك لقيه أمراء الأجناد، أبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حَسَنة، فأخبروه أن الأرض سقيمة، وقصوا عليه الطاعون وشدة إصابته.

وجمع عمر المهاجرين الأولين يستشيرهم: أيتابع طريقه إلى الشام مع ما فيها من وباء أم يعود أدراجه إلى المدينة؟

واختلف رأيهم، فمن قائل: خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده، ولا نرى أن

يصدك عنه بلاء عرض لك.

ومن قائل: إنه لبلاء وفناء ما نرى أن تقدم عليه.

واختلف الأنصار، كما اختلف المهاجرون.

وعندما كثر الخلاف، جمع عمر مُهاجِرة الفتح من قريش فاستشارهم، فلم يختلف عليه اثنان، بل قالوا جميعًا: ارجع بالناس فإنه بلاء وفناء.

وأمر عمر فنادى ابن عباس في الناس ليعدوا رواحلهم متى أصبحوا.

فلما صلوا الصبح التفت عمر إليهم وقال: «إني راجع فارجعوا».

لم يكن أبو عبيدة حاضرًا مشاورات عمر، وما انتهى إليه من رأي، فلما عرف ذلك قال له: «أفرارًا من قدر الله يا عمر؟!».

ونظر عمر طويلًا إلى أبي عبيدة ثم قال: «لو غيرُك يقول هذا يا أبا عبيدة! نعم! فرارًا من قدر الله إلى قدر الله!».

وبينما الناس في هرج من هذا الشأن، أقبل عبد الرحمن بن عوف، فلما أخبروه الخبر قال: عندي من هذا علم، سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه، وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فرارًا منه».

وفرح عمر بهذا الحديث وقال: الحمد لله، انصرفوا أيها الناس!.

وعاد عمر ومن معه إلى المدينة... وعاد أمراء الأجناد ومن معهم إلى أعمالهم.

أمات أبو عبيدة؟!

وعاد عمر إلى المدينة... وكتب إلى أبي عبيدة: «أما بعد، فإني قد عرضت لي إليك حاجة، أريد أن أشافهك فيها، فعزمت عليك إذا نظرت في كتابي هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل إليَّ».

وتلا أبو عبيدة الكتاب... وأدرك أن عمر يريد أن يستنقذه من الوباء... وأن يحتفظ به حيًا ليخلفه في إمارة المؤمنين...

إلا أن أبا عبيدة كان أسمى من ذلك كله، كان يرى أن القائد ينبغي عليه أن

يبقى مع جنوده في السراء والضراء، يعاني ما يعانون ويألم كما يألمون... فقال: يغفر الله لأمير المؤمنين.

ثم كتب إلى عمر: «إني قد عرفت حاجتك إلي، وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيَّ وفيهم أمره وقضاءه. فحلّلني من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعني في جندي».

وقرأ عمر هذا الكتاب... فبكى... فسأله من حوله أمات أبو عبيدة؟!.. فأجاب ودموعه تسيل: «لا... وكأن قد».

أرأيت؟... كيف تسمو نفس أبي عبيدة، فلا يرى أن يترك جنوده في الطاعون، ويذهب ليجلس حول أمير المؤمنين بالمدينة.

أين هذا الفعل مما يكون من كثير من قادة العصر الحديث، حين يجبنون عن المعارك، ويدفعون إليها الشعوب، وهم في قصورهم يلعبون!

ومات الرجل الثاني؟!

قرأ عمر كتاب أبي عبيدة... فبكى...

وشاور أهل الرأي في الوسيلة التي ينقذ بها أهل الشام من الطاعون...

ثم كتب إلى أبي عبيدة: «إنك أنزلت الناس أرضًا عميقة، فارفعهم إلى أرض مرتفعة نَزِهة».

وإن أبا عبيدة ليفكر في تنفيذ هذا الأمر، إذ طُعن فمات!

ولقي أمين الأمة ربه راضيًا مرضيًا عنه... مطعونًا... شهيدًا بين جنوده، وأصحابه، الذين أحبهم وأحبوه، وأخلص لهم وأخلصوا له.

مات أبو عبيدة الرجل الذي رشحه أبو بكر ليخلف رسول الله (ﷺ) يوم السقيفة، حين أشار عليهم أن يختاروا أحدهما: عمر أو أبا عبيدة.

وفقد عمر بموته «الرجل الثاني» الذي كان يطمع أن يخلفه في إمارة المؤمنين... وكان يطمع أن يستنقذه من الطاعون، فبعث يستدعيه على عجل إلى المدينة... إلا أن قدر الله كان أسبق، وما تدري نفس بأي أرض تموت.

وخلف أبا عبيدة، معاذ بن جبل، فطعن ابنه، ثم طعن هو، وماتا جميعًا.

عبقرية عَمْرو؟!

واستخلف معاذ، عمرو بن العاص... فخطب الناس فقال: «إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار، فتحصنوا منه في الجبال».

ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا في المرتفعات، فأذهب ذلك شدة الوباء، وانتهى بزواله.

وبلغت عمر خطة ابن العاص في مقاومة الوباء، فلم يكرهها، بل رأى فيها تنفيذًا للأمر الذي بعث به إلى أبي عبيدة.

وزال الطاعون بعد أن أفنى من المسلمين بالشام خمسة وعشرين ألفًا.

وبعد أن انتقل من الشام إلى العراق، ففتك فيه بأهل البصرة أشد مما فتك بغيرهم، وكان أهل البصرة من خيرة جند المسلمين.

أقول:

وهكذا كانت عبقرية عَمْرو... حين صار أميرًا على الناس بعد موت أبي عبيدة... ثم معاذ بن جبل... اللذين ماتا في الطاعون...

أَمَرَ الناس أن يتفرقوا في الجبال... فتفرقوا في المرتفعات...

فأذهب ذلك شدة الوباء!!!

وانتهى بزواله!!!

البطل...
فاتح...
مصر؟!

عمرو يتحدى؟!

لم تكن الجبهة الأخرى، راكدة لا حراك بها تنتظر حتى تنتهي معركة فارس... كلا، فعمر هو عمر، والمسلمون هم المسلمون... على استعداد دائمًا أن يتحدوا العالم كله في وقت واحد!.

بينما كانت جيوش المسلمين تنساح في بلاد الفرس لتجهز على امبراطورية النار، كان عمرو بن العاص يتقدم بجنوده في بلادنا العزيزة، مصر الحبيبة... يفتح مدنها، ويجلي الرومان عنها، ويسقط دولتهم فيها.

وذلك أقصى درجات التحدي للعالم كله آنذاك!.

هناك تدمير لامبراطورية الشرق، وهنا تدمير لامبراطورية الغرب... في وقت واحد!.

وهناك انتصارات متتابعة... وهنا انتصارات متلاحقة...

ويدير هذا كله ذلك الرجل البسيط الرابض كالأسد بالمدينة، المسمى عمر!!.

متى بدأت الفكرة؟

ولقد بدأ عمرو سيره إلى مصر في شهر ذي الحجة للسنة الثامنة عشرة من الهجرة. وتخطّى إلى أرضها في مستهل السنة التاسعة عشرة.

ثم سار في قتال أهلها، وقتال الرومان بها حَذِرًا أول الأمر.

فلما جاءته الأمداد من أمير المؤمنين طوعت له سرعة السير، وكانت له الغلبة والنصرا.

وكانت مسيرة عمرو إلى مصر بإذن من عمر بن الخطاب. لكن عمر لم يأذن بهذا السير إلا بعد تردد طويل.

فالمتواتر أن ابن العاص خاطب الخليفة في غزو مصر حين فتحت بيت المقدس أبوابها، وبعد أن صالح أمير المؤمنين أهلها في السنة السادسة عشرة من الهجرة.

ولعل عَمْرًا قد ذكر في حديثه يومئذ أن قائد الروم «الأرطبون» انسحب بقوات الروم من فلسطين إلى وادي النيل فمن الخير تعقبه وهو منهزم قبل أن تتاح له فرصة التحصن في بلاد وافرة الخصب عظيمة الثروة.

ولزم ابن العاص الصمت في أثناء المجاعة التي انتشرت في شبه الجزيرة، فلم يخاطب عمر في غزو مصر.

ولما عادت شبه الجزيرة إلى مألوف حياتها، وبرأ الشام من الوباء، وجاء أمير المؤمنين إليها ليصلح شؤونها، وينظم جنودها، لقيه عمرو بالجابية، وسار معه في أرجاء البلاد، وعاد يحدثه في فتح مصر، ويدلي إليه بحجج جديدة ظن أنها تزيل تردده.

هذا الأرطبون بمصر قد جمع إليه الجند وأعد للقتال العُدة، فإذا لم يجد من يهاجمه خرج في قواته إلى فلسطين يقاتل المسلمين.

أليس الخير أن يغته المسلمون في مأمنه؟

وفكر عمر فيما يردده عمرو عن سخط المصريين على سلطان الرومان وأساليب حكمهم، فلم يرفض طلب عمرو، ولكنه استمهله حتى يكتب إليه بعد عودته إلى المدينة.

وأقام ابن العاص ينتظر هذا الكتاب ويدبر في أثناء انتظاره خطة الزحف إلى مصرا.

كيف كانت مصر؟!

كان خصب مصر[1]، ووفرة إنتاجها مضرب المثل في العالم كله.

وكان الفائض عن حاجات أهلها من القمح والشعير والحبوب يغذي الامبراطورية الرومانية.

ثم إنها كان بها غير الغلال أرزاق لا تحصى.

وكانت ثروتها من الأحجار والمعادن فوق الحصر.

وكانت أعظم مركز في العالم اجتمع فيه العلم والفن والصناعة والزراعة والتجارة!

وكانت عاصمتها الاسكندرية... اجتمع فيها البهاء والجمال... فكان سكانها يزيدون على المليون، وكانوا يمثلون الأجناس والعقائد المختلفة المعروفة لذلك العهد، فلم يكن المصريون الخُلّص منهم يزيدون على نصفهم، وكان النصف الآخر من الروم واليونان والفينيقيين والعرب وغيرهم!.

ومن هؤلاء من كانوا يدينون باليهودية، ومنهم من كانوا يدينون بالمسيحية، وكلهم يعيشون في جو المدينة الساحر، مطمئنين إلى رخائها وعظمتها.

كانت منارتها الكبرى، منارة فاروس، إحدى عجائب الدنيا السبع!.

وكان بها من المعابد الضخمة، وساحات الفن الفسيحة، والقصور الفخمة، والمسارح، والحمامات العامة، شيئًا كثيرًا جدًا.

وكان ذلك كله يثير دهشة السائح القادم إليها من أعظم المدن رقيًا وحضارة.

وكانت أكبر أسواق العالم، وأكثر موانئه ازدحامًا بالحركة.

وكانت ميناؤها أكبر موانئ العالم، وصناعة السفن بها أكبر صناعاتها.

كانت ميناؤها تتسع لاثني عشر ألف سفينة من مختلف الأحجام، وكان بناء السفن فيها متصلًا لا ينقطع في يوم من أيام العام.

وكان يبنى بها من السفن الحربية نوعان: أحدهما ضخم تحمل السفينة منه ألف

---

(١) انظر «الفاروق عمر ١، ٢» للدكتور محمد حسنين هيكل.

رجل، والآخر خفيف تحمل السفينة منه مائة رجل.

أما السفن التجارية التي كانت تصنع بالاسكندرية فكان بعضها يبلغ من الضخامة أن يحمل أربعة آلاف إردب من القمح، وكان الكثير منها يسير بالتجارة في البحر الأحمر.

مركز الإشعاع؟!

لم يكن النشاط التجاري والصناعي كل ما امتازت به الاسكندرية على غيرها من مدن العالم، فقد كانت منذ أنشأها الإسكندر الأكبر واستقر بها البطالسة إلى أن فتحها العرب، مركز النشاط العقلي والعلمي في العالم كله.

صحيح أن هذا النشاط كان يخبو أحيانًا، ويضطرب أحيانًا أخرى، وأن بعض المدن كانت تشارك فيه الاسكندرية أحيانًا، وبخاصة أيام حكم الرومان مصر.

لكن العاصمة المصرية ظلت دائمًا مرجع هذا النشاط، وظل أبناؤها من العلماء والشعراء والكتاب وأرباب الفن يوجهون الحياة العقلية في العالم عشرة قرون كاملة.

وإليهم يرجع الفضل في نشر الثقافة الإغريقية التي سبقت إنشاء مدينتهم، وفي إقامة مذاهب جديدة يمت بعضها بأوثق الصلة إلى مذاهب الإغريق، ويحالف بعضها هذه المذاهب، ويستقل بعضها بنفسه كل الاستقلال.

ولم يكن ذلك عجبًا، وقد كانت الاسكندرية ملجأ العلماء ورجال الفن والأدب من كل أمة وملة، وكان بها من المكتبات العامة ومن مناهل العلم ومدارسه ما لم يكن لغيرها.

وقد سمت مدرسة الطب في الاسكندرية إلى مكانة لم تسمُ إليها مدرسة أخرى في العالم كله.

فكان الأطباء الذين يتخرجون فيها مشهودًا لهم، وكانوا موضع الإكبار حيثما نزلوا من بقاع الأرض.

كذلك ازدهرت فيها دراسات الفقه والإلهيات ازدهارًا بدا واضحًا في المذاهب الفلسفية التي اختصت بها مدرسة الإسكندرية، والتي حاولت التوفيق بين المسيحية

في أساسها الروحي، ومذاهب الإغريق الفلسفية المستندة إلى منطق العقل وحده.

وكان الفلك والرياضة وتقويم البلدان والهندسة من فروع العلوم التي تدرس في معاهدها.

لا عجب وذلك شأن العلوم والآداب أن تزدهر الفنون وأن يزداد أهلها براعة وأن تظهر آثارها في نشاط أهل الإسكندرية وفي حياة مدينتهم.

وقد اشتهرت مصر منذ عهود الفراعنة الأولين ببراعة بنيها في هندسة العمارة، فكان طبيعيًا أن تجمع عمارة هذا العهد المسيحي بين جلال المعابد القديمة وزخرف العمارة الإغريقية. وأن تجمّل مباني الإسكندرية بالمرمر المصري البديع ونقوش الفسيفساء ذات الألوان، والفسيفساء الزجاجية.

والحق أن تنظيم الاسكندرية وعمارتها كانا من الروعة بما يقف النظر ويبهر الفؤاد.

فقد خططت على صورة رقعة الشطرنج: ثمانية طرق تجري بين الغرب والشرق، تقاطعها ثمانية أخرى تجري من الشمال إلى الجنوب، والطريقان المتوسطان منها فسيحان تقوم على جانبيهما أفخم مباني المدينة.

وكانت أسوار المدينة وحصونها وقصورها وكنائسها مشيدة من مرمر ناصع البياض يعشى النظر دونه، فكان ظاهر أكثرها يغطى نهارًا بنسيج أخضر من صناعة مصر.

هذه صورة عن عاصمة مصر لذلك العهد، وهي تشهد بترف أهلها وسمو مكانتها في الحضارة.

اضطهاد وتعذيب؟!

وكان الاضطهاد الديني منتشرًا في مصر وفي عاصمتها حين كان ابن العاص يحاول إقناع أمير المؤمنين بفتحها.

ذلك أن هرقل لم يلبث، حين انتصر على الفرس وأعلى الصليب في بيت المقدس، وحين رأى العالم المسيحي كله ينظر إليه لينقذ المسيحية مما ألم بها، أن فكر

في توحيد المذاهب المسيحية وصوغها مذهبًا واحدًا.

وقد تحدث في هذا الأمر إلى بطارقة الشام وبزنطية، ممن يمثلون شتى المذاهب المسيحية، ثم دعاهم إلى مجمع «خلقدونية» فأقروا مذهبًا مسيحيًا موحدًا.

عند ذلك جعل بطركة الدين في الاسكندرية لقيرس أسقف فاسيس في بلاد القوقاز وطلب إليه أن يحمل أهل مصر على اعتناق المذهب الرسمي «الموحد».

وكان بنيامين كبير أساقفة القبط بمصر إذ ذاك، وكان حبيبًا إلى الناس، عزيزًا عليهم، وكان رجلًا ذكيًا محبًا للخير والفضل، شديد التعصب للمذهب المسيحي الذي يؤمن المصريون به، مذهب اليعاقبة الذي يقول: «إن الطبيعة الإلهية والبشرية امتزجتا في المسيح فصارتا فيه طبيعة واحدة، فكان عند التجسد ذا طبيعتين، أما بعده فصار ذا طبيعة واحدة». وهذا المذهب يخالف مذهب الملكانية الذي يقول: «إن الابن مولود من الأب قبل الدهور غير مخلوق، وهو جوهره ونوره. والابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم، فصارا واحدًا وهو المسيح»!.

فلما قدم قيرس الاسكندرية في خريف سنة ٦٣١م، ليحمل أهل مصر على اعتناق المذهب الرسمي، فر بنيامين من الاسكندرية، وسار متخذًا من الأديار المنتشرة بالصحراء ملجأه حتى بلغ قوص، وهناك أقام بدَيْر صغير قريب منها، قائم في الصحراء تحميه الجبال فلا يسهل الوصول إليه.!.

وازداد الناس نفورًا من المذهب الجديد حين جاء صُفْرنيوس من بيت المقدس إلى مصر، وقام على رأس الملكانيين فيها.

لجأ قيرس إلى البطش والتعذيب، ولج في «الاضطهاد الأعظم» عشر سنوات حُسومًا.

وكان التعذيب وحشيًا لم يعرف عصر من العصور مثله!

عُذِّب أخو الأسقف الأكبر بنيامين بأن أوقدت له المشاعل وسلِّطت على جسمه، فأخذ يحترق حتى سال دهنه من جانبيه إلى الأرض، فلما لم يتزعزع إيمانه خلعت أسنانه ووُضِع في كيس مملوء بالرمل وحملَ إلى الشاطئ!.

ثم عرضت عليه الحياة إذا آمن بالمذهب الجديد فأبى!.

وتكرر العرض وتكرر الإباء مرات ثلاث، ألقي العابد بعدها في البحر فمات غرقًا!.

ماذا حدث للأب صمويل؟!

وتلقى الأب صمويل في ديره بالصحراء كتابًا يحمله إليه أمير فرقة عدتها مائة جندي يدعوه إلى المذهب الجديد، فمزق صمويل الكتاب وقال: «ليس لنا من رئيس إلا بنيامين، ولعنة الله على ذلك الكتاب الكفَّار الذي جاء من الامبراطور الروماني، ولعنة الله على مجمع خلقيدونية وكل من آمن بما أقرَّه»!.

وضُرب صمويل حتى ظُنّ أنه مات، لكنه عاد إلى نفسه وإلى محاربة قيرس.

وأمر قيرس فجيء به مكتوف اليدين من خلاف وفي عنقه طوق من الحديد.

فسار مستبشرًا وهو يقول: «سأمنح إن شاء الله اليوم الشهادة بأن يسفك دمي في سبيل المسيح»، ثم جعل يسب قيرَس لا يخشى شيئًا.

ودخل على قيرس، فأمر جنده أن يضربوه حتى سال دمه، ثم قال له: «صمويل أيها الزاهد الشقي. من ذا أقامك رئيسًا للدير، وأمرك أن تعلم الرهبان أن يسبوني ومذهبي؟»،

وأجابه العابد: «إن البر في طاعة الله وطاعة وليه البطريق بنيامين، لا في طاعتك والدخول في مذهبك الشيطاني، يا سلالة الطاغوت! ويا أيها المسيح الدجال!».

وأمر قيرس جنده بضرب صمويل على فمه وقال له: «لقد غرك يا صمويل أن رهبانك يجلُّونك ويُعلون من شأن زهدك، ولهذا تجرأت وقويت نفسك. ولكني سأشعرك أثر سبابك للعظماء إذ سوَّلت لك نفسك ألا تؤدي ما ينبغي عليك أن تؤديه لعظيم رجال الدين، وكبير جباة المال في أرض مصر».

وأجاب العابد: «لقد كان إبليس من قبل كبيرًا على الملائكة، ولكن كبره وكفره فسق به عن أمر ربه. وهكذا أنت أيها الخادع الخلقيدوني، فإن مذهبك مذموم، وإنك أشد لعنة من الشيطان وجنوده».

وضاق قيرس بكلام العابد ذرعًا فأومأ إلى الجند أن يقتلوه، واستنقذه حاكم الفيوم

من يديه، فأمر به أن ينفى من الأرض!.

وهكذا.. كان الذين يرفضون الدخول في المذهب الجديد يُجلدون ويُعذبون ويلقون إلى السجون ويلاقون الموت!.

فازداد الناس كرهًا لهرقل ولقيرس ولحكم الرومان!.

ولم يكتف صاحب السلطان من قبل قيصر بأن يأخذ منهم غلاتهم ومصنوعاتهم ليرسلها إلى بزنطية مقابل الضرائب المفروضة عليهم، بل اعتبرت الأرض ملكًا للدولة تفرض على أصحابها جزية، وإن شئت فقل تكليفًا يدفعونها أجرًا للأرض التي يزرعونها!.

وكانت مصر في أزمة طاحنة، تدهورت أسعار الحاصلات تدهورًا شديدًا، واقتصر أمرها على أن تؤخذ جزية لقيصر!.

لذا كره الناس حكم الرومان، وودوا لو استطاعت مصر أن تتخلص منه وأن تستقل بنفسها!.

عثمان يعارض؟!

عاد عمر من رحلته بالشام بعد أن استمع إلى حجج عمرو بن العاص في فتح مصر، فلما نزل المدينة، جمع أهل الرأي فيها، وذكر لهم حجج عمرو، وشاورهم في الأمر، فانقسموا في رأيهم.

ولما كان عمر يرى الفتح، فقد كتب إلى عمرو يأمره بالشخوص إلى مصر.

وبعث بالكتاب مع شريك بن عبدة وفيه يقول: «انذُب الناس إلى السير معك إلى مصر، فمن خف معك فسر به».

وكان عمرو محاصرًا قَيسارية حين جاءه كتاب أمير المؤمنين، فاستخلف معاوية ابن أبي سفيان على حصارها.

وتحرك في قوة صغيرة... أربعة آلاف.. ثم إنه رد شريك رسول أمير المؤمنين يطلب الأمداد حتى لا تضعف مسالح الشام.

وسار متمهلًا بساحل البحر، جاعلًا وجهته العريش.

وإنه لفي مسيرته إذ جاء النبأ بأن الذين يرون في فتح مصر خطرًا على الدولة الناشئة، وفي مقدمتهم عثمان بن عفان، قد ازداد نشاطهم بالمدينة.

وقال عُثمان لعمر: «يا أمير المؤمنين. إن عمرًا لمُجَرَّأ وفيه إقدام وحب للإمارة، فأخشى أن يخرج من غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا؟!».

لذلك كتب عمر إلى عمرو يقول: «إن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك، وإن كنت قد دخلت فامض لوجهك واعلم أني مُمِدك».

أدرك الرسول عَمرًا وهو برفح، فلم يذكر له شيئًا عن المدد الذي كان ينتظره، بل حاول أن يدفع إليه كتاب الخليفة...

وقدر عمرو أن الكتاب ينطوي على أمر بالعدول عنه، فأخذ يستدرج الرسول وهو يسايره وجعل يسأله عن المدينة وأنبائها.

وظل كذلك حتى نزلوا قرية بين رفح والعريش... وسأل عمرو عن هذه القرية من أي أرض هي؟ فقيل إنها من أرض مصر، فنزلها ونزل الرسول معه، ودفع إليه الكتاب.

فلما قرأه ابن العاص لمن حوله: «إن أمير المؤمنين عهد إليَّ وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع، ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر، فسيروا على بركة الله وعونه».

وواصل عمرو سيره في الأربعة آلاف الذين معه إلى العريش، فألفوها خلاء ليس بها للروم قوة، فتخطاها منحدرًا إلى الجنوب ولم يلق عمرو من يقف سيره حتى بلغ مدينة الفرما، وهناك لقيه الروم في قوة حاولت صده عن الغزو.

والطريق من العريش إلى الفرما طويل يبلغ نحو سبعين ميلًا، وهو يجري خلال الصحراء تتخلله عيون وقرى تهون على السائر شقته.

لذلك كان الطريق المعبد بين فلسطين ومصر من أقدم الحقب، حتى لقد شهد «مقدم إبراهيم ويعقوب ويوسف وقمبيز والاسكندر وكليوبترا وأسرة المسيح» إلى هذه البلاد.

سقوط الفرما؟!

وتحصَّن الروم بالمدينة لمواجهة العرب، مؤمنين بقدرتهم على الذود عنها، ورد العدو على أعقابه دونها.

إلا أن عمرو وأصحابه، حاصروا الفرما شهرًا ثم اقتحموها واتخذوها معقلًا بعد أن هزموا الروم فيها شر هزيمة!.

معركة بلبيس؟!

انضم إلى عمرو بعد فتح الفرما جند من البدو المقيمين على تخوم الصحراء المصرية، فعوضوا المسلمين عمن فقدوا في أول حصار ضربوه بمصر.

ثم إن عَمرًا سار منحدرًا إلى الجنوب ملازمًا هذه التخوم، فتخطى مدينة مجدل القديمة إلى موضع القنطرة اليوم.

ومن هناك اتجه غربًا إلى القصاصين...

وتابع مسيرته جنوبًا بغرب حتى بلغ بلبيس.

وفي هذا الطريق الطويل الذي قطعه فرسان المسلمين في أرض مصر لم يكن عمرو يدافع إلا بالأمر الخفيف!.

يروي المؤرخون أن راعيًا من البدو الموالين للمسلمين دنا من منازل قرية في طريق عمرو، فسمع نفرًا من القبط يقول أحدهم: ألا تعجبون من هؤلاء القوم يقدمون على جموع الروم وهم في قلة من الناس!.

ويجيب آخر: إن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه!

بلغ المسلمون بلبيس وصاروا على ثلاثة وثلاثين ميلًا من مدينة مصر وحصونها، وبعث المقوقس حاكم مصر إلى عمرو، أول ما نزل ببلبيس، من يفاوضه ليرجع عن مصر.

إن مثلي لا يُخدَع؟!

وتحدث عمرو إلى الأساقفة المفاوضين عن بعث الله رسوله بالحق، وأنه (ﷺ) أمر

أصحابه بالإعذار إلى الناس «فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه فمثلنا، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة، وقد أعلمنا أنا مفتتحوكم، وأوصانا بكم حفظًا لرحمنا فيكم، وأن لكم إن أجبتمونا بذلك ذمة إلى ذمة».

وأدرك الأساقفة إلى أن عَمرًا يشير بصلة الرحم إلى هاجر أم إسماعيل، فقالوا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء!.

ثم قالوا: آمنّا حتى نرجع إليك.

فقال عمرو: إن مثلي لا يُخْدَع، ولكني أؤجلكم ثلاثة أيام، لتنظروا وتناظروا قومكم، وإلا ناجزتكم.

فاستزادوه... فزادهم يومًا، ثم يومًا خامسًا.

ورجع وفد المفاوضات إلى المقوقس، فحدثوه بحديث عمرو...

فأبى قائد جند الرومان، الأرطبون، إلا مقاتلة المسلمين.

وقال الأساقفة المفاوضون للناس، وقد رأوا مخاوفهم: «أما نحن فسنجهد أن ندفع عنكم ولا نرجع إليهم، وقد بقيت أربعة أيام فلا تصابون فيها بشيء إلا رجونا أن يكون له أمان».

سار الأرطبون عقب هذا الحديث في اثني عشر ألفًا كاملي العُدة، حتى يأخذ المسلمين ببلبيس على غرة.

ولقد فاجأهم، وبيتهم بياتًا شديدًا.

لكن عَمرًا كان حذرًا كل الحذر، وكان كل جيشه فرسانًا في عُدة القتال.

وحميت المعركة بين الفريقين... فقتل فيها من العرب عدد ليس بالقليل، وخسر الروم ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير...

ثم ماذا؟... **ثم انهزم الأرطبون، وتمزق جيشه... وقتل في المعركة!**

وهكذا هزم عمرو بأربعة آلاف جيشًا عدته اثنا عشر ألفًا!.

ومكث عمرو نحوًا من شهر ببلبيس بعد انتصاره الساحق... ثم تقدم من بلبيس متاخمًا الصحراء حتى نزل قريبًا من قرية «أم دنين» على النيل... وكانت أم دنين تقع في موضع حي الأزبكية الآن.

معركة حياة أو موت؟!

أدرك الرومان أن المعركة بالنسبة لهم أصبحت معركة حياة أو موت... فإما انتصروا على العرب في مصر وإما تلاشت امبراطوريتهم إلى الأبد.

وجاء الرومان إلى حصن بابليون بأكبر قواتهم، وأمدوا حصن أم دنين بقوات مسلحة قوية.

وكان حصن بابليون حصنًا رومانيًا منيعًا يقع موقع مصر القديمة الآن، وكان متين البنيان، قوي الأسوار... وما زالت منه أطلال لا تزال تشهدها أعيننا حتى الآن.

وأدرك عمرو بن العاص دقة الموقف وخطورته.

وتجلت عبقرية عمرو مرة أخرى، فبعث رسولًا إلى المدينة بكتاب يطلب فيه المدد... بينما أذاع في الجند أن المدد موشك أن يجيء!!.

ثم إنه قدم إلى أم دنين فحاصرها، ووقف قبالتها يمنع عنها العتاد والتموين.

ومضت أسابيع لم يتغير الموقف فيها.

وإن الفريقين لكذلك إذ جاءتهم الأنباء بمقدم أول مدد لهم.

وأقبل المدد، ورآه حماة حصن أم دنين من جنود هرقل. فرعبوا، وقل خروجهم للقاء المسلمين!.

فلما رأى عمرو ذلك منهم، وكان قد عرف مداخل الحصن ومخارجه، تخير وقتًا أمر فيه أصحابه أن يشدّوا كلهم على الحصن شدَّة رجل واحد ليأخذوه عنوة!.

وسار هو في طليعتهم إلى بابه، ففتحه الله عليهم فاستولوا عليه بعد قتال عظيم، وبعد أن أسروا من بقي فيه حيًا!.

قالوا: رأى عمرو جماعة يترددون في القتال فصاح بهم يحثهم عليه ويدفعهم إليه، فقال له أحدهم: إنا لم نخلق من حديد!.

فانتهره عمرو بقوله: اسكتْ! إنما أنت كلب!.

وأجابه الرجل: فأنت أمير الكلاب!.

فأعرض عمرو عنه ونادى بأصحاب رسول الله وقال لهم: «تقدموا فبكم ينصر الله».

فاندفعوا في الوطيس وتبعهم الناس، ففتح الله على المسلمين.

وتم الاستيلاء على أم دنين... وعبر عمرو مع جنده النيل في السفن التي كانت بمرساها، وسار على رأسهم يتخطون الصحراء مجتازين أهرام الجيزة!.

ماذا يريد الداهية؟!

وحار الرومان في خطة عمرو... ماذا يريد بمسيره إلى صحراء الهرم؟

هل يريد الاسكندرية؟... هل يستطيع ذلك ووراءه حصن بابليون زاخرًا بالرجال والأسلحة؟ حقًا إنه لثعلب الصحراء!!.

إنه فكر أن يسير إلى الفيوم يُشيع الفزع في نفوس أهلها، ويقيم الدليل للمصريين على أن دولة الرومان قد انتهت.

والطريق إلى الفيوم يقطعه الفارس في ساعات معدودات، فإذا استطاع عمرو إشاعة الفزع في هذا الإقليم بلغ مقصده، وكسب من الوقت ما يكفي أمير المؤمنين لإرسال مدد جديد يستطيع به عمرو أن ينفذ خطته الكبرى.

إبادة ورعب؟!

وانطلق ثعلب الصحراء العربي إلى الفيوم... وسعدت صحراء الفيوم بوقع حوافر الخيول العربية، تحمل أصحاب رسول الله (ﷺ) ومن معهم...

لكن عَمرًا لم يلبث حين بلغ تخوم الفيوم أن علم أن الروم أعدوا للدفاع عن الإقليم، ووضعوا الجنود على مداخله.

فلزم الصحراء، وجعل يغير بكتائب قليلة على البلاد القريبة منه، يسوق الحيوانات طعامًا لجيشه.

وجاءه البدو المقيمون بهذه المنطقة بأنباء عرف منها أن كتيبة من الروم بإمرة رجل اسمه حنا تسير مختفية في النخيل والآجام قبالته متنطسة أخباره، فإذا حاول اقتحام البلاد الآهلة دعت الجيش المرابط في ثغور الفيوم لمواجهته.

فماذا فعل عمرو عندما علم بتلك الأخبار؟

واصل عمرو السير، حتى بَعُد بحنا وكتيبته عن الجيش...
ثم ارتد إليه... وحاصره ومن معه... وقتلهم عن آخرهم!!
وحقق الثعلب العربي مراده بتلك الفعلة، فرعب أهل الإقليم جميعًا.
واكتفى عمرو بما فعل... وانسحب عائدًا إلى أم دنين سريعًا!!!

مداورة ومناورة؟!

اشتهر القائد الهتلري «رومل» بلقب «ثعلب الصحراء» أيام الحرب العالمية الثانية، لمهارته في قيادة المعارك ضد جيوش الحلفاء، وإنزاله أكبر الهزائم بقواتهم في الصحراء الممتدة من شاطئ الأطلنطي إلى الإسكندرية.

وأنا أقدم إلى العالم الآن عمرو بن العاص، ثعلب الصحراء العربي، وسوف يرون أن عبقرية عمرو فاقت عبقرية رومل أضعافًا مضاعفة...

وأن عَمرًا جاء بعجائب في مناوراته ومداوراته لقوات الرومان فاقت مناورات رومل لقوات الحلفاء.

لقد دهم رومل بقواته المصفحة القليلة قوات الحلفاء الكبيرة، فأنزل بها شر الهزائم وما زال يطاردها وهي تفر أمامه منهزمة مذعورة... حتى وصل إلى العلمين، وأصبح معلومًا أنه سوف يدخل الاسكندرية ظافرًا منتصرًا، وأحرقت القيادة البريطانية أوراقها واستعدت للرحيل!.

حتى كانت معركة العلمين، حيث احتشدت له قوات الحلفاء، واستغلت بعده عن خطوط تموينه، وخاضت معه معركة فاصلة، واندحر على أثرها اندحارًا أبديًا.

وانتهت عبقرية الثعلب الألماني إلى لا شيء... فلا هو دخل الاسكندرية، ولا هو حتى احتفظ بخطوطه الأصلية.

هذا عن رومل... أما عمرو بن العاص فإنه جاء إلى مصر من بعيد جدًا... من قيسارية في شمال سوريا... في أربعة آلاف... واقتحم بتلك القوة القليلة حدود مصر، واستولى على العريش، ثم الفرما، ثم بلبيس ثم أم دنين، ثم ذهب إلى الفيوم، فأشاع فيها الرعب، ثم ها هو يعود سريعًا منها إلى أم دنين!.

كل هذا وللرومان في مصر أكثر من مائة ألف مقاتل من خيرة الجنود، في أحسن الحصون وهو لا يملك سوى ما تبقى من الآلاف الأربعة!.

كل هذا وهو غريب عن البلاد، والرومان بين أهليهم!.

فلم يظفر الرومان به في معركة واحدة، وسوف نرى فيما بعد أنه استولى على بابليون، ثم استولى على الاسكندرية عاصمة البلاد، ثم واصل زحفه من الاسكندرية إلى برقة وطرابلس حتى كاد يبلغ الاطلنطي لولا أن منعه أمير المؤمنين من ذلك... ثم عاد من شمال أفريقيا منتصرًا إلى الاسكندرية، نفس الطريق الذي سار فيه رومل، ولكن شتان بين نهاية ونهاية... فأي الثعلبين أمهر، وأيهما أعلى وأقدر؟

ليس من شك أنه عمرو بن العاص، فقد انتهت حملته إلى فتح مصر كلها، ثم إسلامها، ثم استقرار الإسلام بها إلى يوم القيامة.

أما رومل، فانتهى إلى لا شيء... فلا هو انتصر، ولا هو حمل إلى الناس دعوة تنفعهم، أو دينًا يرشدهم.

وهذا هو الفارق بين أصحاب رسول الله، وبين هؤلاء الناس، الذين يظهرون كالفقاقيع، تنتشر فوق الماء ثم تتلاشى مع الهواء.

أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض...

لقد مكثت حملة عمرو في الأرض، أرض مصر، إلى يومنا هذا، لأنها جاءت تحمل دعوة الإسلام، تحمل ما ينفع الناس.

وهذا ما ينبغي أن نركزه في عقولنا... ينبغي أن نفهم أن قائدًا عربيًا واحدًا مثل عمرو بن العاص، يساوي في دهائه ومكره ومهارته الحربية والسياسية عددًا من الذين كفروا أمثال رومل وأشباهه.

وإنما هناك حجاب بيننا وبين عباقرتنا، عباقرة الإسلام!.

مثال من مناوراته؟!

لماذا انسحب عمرو سريعًا من مداوراته في الفيوم؟

أعن جبن أو خوف كان ذلك الانسحاب؟ كلا... إن رسولًا من المسلمين جاءه

فذكر له أن أمير المؤمنين بعث إليه بمدد جديد. وأن هذا المدد سار من الفرما إلى بلبيس في الطريق الذي سار فيه عمرو، وأنه يوشك أن يصل إلى حصون الروم.

فرجع عمرو للقاء المدد خشية أن يقطعه الروم عنه، وأن يردوه عن عبور النيل إليه.

وأبدى عمرو في ذلك مهارة فائقة، فقد كانت جيوش الروم مشرفة على النيل من حصن بابليون، وكانت تستطيع أن تخرج من الحصن وأن تعبر النيل، وأن تحول بين قائد المسلمين والمدد المقبل إليه.

واستطاع عمرو أن يعبر إلى الشاطئ الشرقي وجيشه معه، وأن يتصل بالمدد الذي نزل هليوبوليس «عين شمس» على مقربة من الحصن الروماني.

كيف أتم القائد البارع هذه المعجزة من معجزات الحرب؟

ولماذا لم يمنعه الرومان من العودة، وإنها لفرصة لهم، يا لها من فرصة؟!

وكيف يخرجون من بابليون يمنعونه، وقد رأوا مصارعهم في بلبيس وأم دنين والفيوم؟

كيف وقد رأوا قومًا يحبون الموت كما يحبون هم الحياة؟

لقد حققت خطة عمرو أهدافها حين أشاع الرعب في إقليم الفيوم، فتحدثت مصر كلها أن هؤلاء قوم لا يُغلبون!.

مرحبًا.. يا أصحاب رسول الله؟!

وأمد عُمَر عَمرًا بأربعة آلاف على كل ألف منهم رجل وكتب إليه: «إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل مقام ألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، وخارجة بن حذافة. واعلم أن معك اثني عشر ألفًا، ولا تغلب اثنا عشر ألفًا من قلة».

ودعا عمر لقائد المدد، الزبير بن العوام، وودعه، فسار الزبير على رأس الجيش حتى دخل مصر، وجعل وجهته عين شمس.

وتخطى عمرو بن العاص النيل وسار إلى عين شمس، واتصل بالزبير وبالمدد العظيم الذي جاء معه، واغتبط بمقدمهم أيما اغتباط.

ومن ذا الذي لا يغتبط بمقدم أصحاب رسول الله ورؤياهم؟

كيف لا، وعلى رأسهم الزبير، حواري رسول الله، الشديد المراس، القوي الشكيمة؟

وشرفت أرض مصر بمقدمهم... واختار عمرو بن العاص أطلال عين شمس، فعسكر بها، وعسكر معه المدد الذي جاء مع الزبير!!!

معركة عين شمس؟!

والآن نقص على الناس أسلوبًا آخر من أساليب البراعة، ونموذجًا من نماذج المهارة العسكرية الفائقة، لينظروا أي الرجلين كان أعظم عسكرية وأشد دهاء.. عمرو أم رومل؟

أيقن عمرو أن ساعة الفصل بينه وبين الرومان قد اقتربت.

فجمع أصحابه من أولي الرأي في الحرب وتداول معهم في خطة القتال. فكان كل أمله أن يستخرج الرومان من حصن بابليون ليقاتلهم في الفضاء.

وسرعان ما جاءته عيونه بأن الله محقق عما قليل رجاءه، فقد تداول تيودور أمير جند الروم مع أصحابه، فرأوا أن مقامهم بالحصن يظهرهم أمام المصريين مظهر الجبن والضعف، ويغري الناس بالانضمام إلى المسلمين ومعاونتهم. وقد كانت أعدادهم تفوق أعداد المسلمين، وكانوا خيرًا منهم عُدة. لذلك عزموا الخروج إلى العرب لمناجزتهم، وقرروا السير إلى عين شمس لإجلائهم عنها.

وعرف عمرو خطتهم، فدبر للقائهم والقضاء عليهم.

فماذا فعل الثعلب العربي؟

أخرج خمسمائة رجل ساروا تحت الليل من وراء الجبل حتى دخلوا مغار بني وائل عند قلعة الجبل..

وأخرج خمسمائة آخرين جعل عليهم خارجة بن حُذافة، فساروا قبيل الصبح إلى أم دنين (حي الأزبكية الحالي)...

وزوَّد هؤلاء وهؤلاء بأوامره...

فلما تنفس الصبح سار هو من عين شمس، على رأس قواته كلها، حتى بلغ موضع العباسية الآن... وهناك انتظر جموع الروم القادمة من حصن بابليون..

وخرج الروم من حصنهم في الصباح الباكر، وتقدموا إلى ناحية عين شمس، وتعاهدوا أن يقضوا على الغزاة القضاء التام!.

والتقى الفريقان كل يريد أن يقضي على عدوه... وعلا غبار المعركة...

وإنهم لكذلك إذ انحدرت الكتيبة المختبئة في مغار بني وائل تهوي من الجبل فتعصف بمؤخرة الروم عصفًا!.

وفوجئ الروم بمكيدة الثعلب العربي، فتولاهم الفزع لما أصابهم، فاضطربت صفوفهم، وتقهقروا متياسرين نحو أم دنين...

عند ذلك خرج الكمين الآخر إليهم يقوده حذافة بن خارجة، فأمعن فيهم قتلًا!!

ورعب الرومان، وتصوروا أن ثلاثة جيوش من العرب تقاتلهم من ثلاث نواح مختلفة، وأنهم لا أمل لهم في المقاومة، فانحل نظامهم، ولاذ أكثرهم بالهرب يطلبون النجاة من سيوف العرب!!

عبقرية عمرو؟!

تلك هي عبقرية عمرو، وهذا هو دهاؤه، فأين مهارة رومل من مهارته؟

وساق الفزع طائفة إلى النهر فنزلت السفن تلتمس النجاة في حمى الماء حتى تبلغ الحصن على ظهره.

وكان عدد الذين هلكوا في الموقعة وفي الطلب أجل من أن يحصى.

ورأى العرب ما أصاب عدوهم من الفزع، فمالوا إلى حصن أم دنين فاستولوا عليه كرة أخرى.

وانتهت معركة عين شمس إلى نصر حاسم، كما هي العادة دائمًا في كل معركة كان يخوضها المسلمون مع أعدائهم!.

ادخلوا مصر؟!

أما الذين هربوا إلى حصن بابليون لائذين به فلم يلبثوا حين سمعوا بهلاك من هلك من جيش الروم أن فروا من ملجئهم وركبوا السفن، وساروا في فرع رشيد حتى بلغوا حصن نقيوس إلى الشمال من منوف!.

ولئن بقيت مع ذلك بالحصن قوة كبيرة وُكل إليها الدفاع عنه.

فهل وقف عمرو عند هذا الحد؟... كلا وإنما سار إلى مدينة مصر فاستولى عليها بغير قتال.

ثم نقل معسكره من عين شمس فأنزله في شمال الحصن وشرقه بين البساتين والكنائس في المكان الذي أقام فيه الفسطاط من بعد.

وعلم بأن حامية الروم بالفيوم فرت إلى «نقيوس» حين علمت بنصر المسلمين فجهز على الفور كتيبة سارت في طريق الصحراء، فاستولت على إقليم الفيوم كله!.

ولم يكتف بهذا، بل أرسل قوة أخرى إلى جنوب الدلتا، فاستولت في إقليم المنوفية على أثريب ومنوف.

وأمر عمرو أن يؤتى بالحكام من الروم مجموعة أيديهم في الأصفاد وأرجلهم في القيود.

ورأى المصريون ذلك المنظر، فخشعت نفوسهم، وازدادوا رعبًا.

واستولى الرعب على كثير منهم، ففروا إلى الاسكندرية جماعات كثيرة، يرجون أن يجدوا في حصونها وأسوارها ملجأ، ويطمعون أن يمدها قيصر من البحر بقوات تمكنها من دفع الغزاة القاهرين!!!

حصار بابليون؟!

كثر اللاجئون من الرومان إلى حصن بابليون، وعزموا على الدفاع عنه، والقتال دونه. وعزم عمرو محاصرة الحصن...

وكان ذلك الحصن حين الفتح العربي قلعة رومانية من أمنع القلاع وأقواها.

كانت أسواره ترتفع نحو ستين قدمًا، وكان سمك هذه الأسوار ثمانية عشر قدمًا، وكانت صروحه تزيد على الأسوار ارتفاعًا، وكان في كل صرح سُلم صاعد إلى أعلى البناء يشرف الناظر منه على جبل المقطم من الشرق، وعلى الجيزة والأهرام فصحراء ليبيا من الغرب. وكان النيل يبلغ باب الحصن الأكبر، فكانت السفن الرومانية ترسو عنده إلى جانب درج يهبط منه إليها. وكان هذا الباب الأكبر مصنوعًا من الحديد ومُصفحًا به، فكان اقتحامه مستحيلًا لمتانته ولحماية السفن له.

هذا إلى أن جزيرة الروضة القائمة وسط النهر كانت بها حصون قوية تزيد حصن بابليون منعة وقوة... وكان في داخل الحصن آبار يستسقي منها حماته، كما كانت المزارع والحدائق الممتدة من حوله تمده بالتموين الوفير.

وكان يحيط بالحصن خندق عليه قنطرة متحركة لا يستطاع فتحها أو تحريكها إلا من داخله.

وكان الروم بالحصن يرمون العرب بالمجانيق، فيجيبهم العرب بالحجارة والسهام.

ودام الحصار على ذلك شهرًا والعرب لا ينفد لهم صبرا!

وبدأ الفيضان ينزل.. وكان المقوقس بالحصن منذ ابتدأ الحصار، وكان على إمرة جنود الحصن قائد يسميه العرب «الاعيرج»... ورأى المقوقس وأصحابه أن المدد لن يأتي ليرفع عنهم الحصار قبل أشهر، وأن العرب سيضيقون عليهم الخناق في هذه الأثناء... فتشاوروا بينهم في الأمر، ودبروا أمرًا...

مفاوضات سرية... بالروضة؟!

تسلل المقوقس وجماعة من أصحابه من الحصن تحت جنح الليل، وركبوا السفن إلى جزيرة الروضة، فلما بلغها أرسل إلى عمرو بن العاص برسالة مع أسقف بابليون وجماعة معه يقول فيها: «إنكم قد ولجتم في بلادنا، وألححتم في قتالنا، وطال مقامكم في أرضنا، وإنما أنتم عُصبة يسيرة، وقد أظلتكم الروم، وجهّزوا إليكم، ومعهم من العُدّة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى في أيدينا، فابعثوا إلينا رجالًا منكم نسمع من كلامهم، فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم

على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم القتال، قبل أن تغشاكم جموع الروم، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه.

«ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفًا لطلبكم ورجائكم، فابعثوا إلينا رجالًا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء».

لقد أراد المقوقس أن يخدع عمرًا، فذهب يخوفه بجموع الروم، وأنه خير له أن يتفق معه قبل أن تبغته تلك الجموع فتقضي عليه قضاء مبرمًا!!!

ونسي المقوقس أنه أمام عمرو، وأنه أمام رجل يقود قومًا يحبون الموت كما يحب هو الحياة!.

والآن ماذا حدث لوفد المفاوضات؟!

وأبطأ رسل المقوقس عنه يومين كاملين... وفي اليوم الثالث عادوا إليه يحمل رئيسهم رسالة عمرو إلى المقوقس يقول فيها: «إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال: إما دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا، وإما أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون. وإما جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين».

هذا هو رد عَمرو... لقد لخص رسالة جيشه في كلمات... إما الإسلام، وإما الجزية، وإما القتال!.

وهذا هو الحق المسلح، أو هذا هو الإسلام. دعوة إلى الله تسندها القوة، لا لإلجاء الناس إلى الفكرة، ولكن ليعلم الناس أن الأمر جدّ لا هزل، وأن الدعاة على استعداد لخوض المعارك حتى آخر رَجل منهم في سبيل إعلاء ذلك الحق.

لو استقبلوا الجبال لأزالوها؟!

وسأل المقوقس رسله كيف رأوهم؟ فأجابه رئيسهم: «رأينا قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة. ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة. وإنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كأنه واحد منهم، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد من العبد. وإذا حضرت الصلاة لم يتخلّف

عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في صلاتهم».

وفكر المقوقس طويلًا فيما سمع من أوصاف الجيش المسلم، ثم قال لأصحابه: «والذي يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقدر على قتال هؤلاء أحد! ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل، لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم».

ازداد المقوقس رعبًا حين سمع من أوصاف الجيش المسلم... ورد رسله إلى المسلمين يقول لهم: «ابعثوا إلينا رسلًا منكم نعاملهم، ونتداعى نحن وهم إلى ما عساه يكون فيه صلاح لنا ولكم».

إن المقوقس يلجأ إلى الحيلة، والمراوغة، لعله يظفر من عَمرو بشروط مقبولة... ولكن هيهات.

نحُّوا عني هذا الأسود؟!

ورفض عَمرو ما طلبه المقوقس... فبعث عشرة نفر، أحدهم عُبادة بن الصامت، وكان أسود اللون، ضخمًا طويلًا. وأمره أن يكلم القوم، وألا يجيبهم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هذه الخصال الثلاث.

ودخل العشرة على المقوقس، وأراد عُبادة مخاطبته، فلما رآه قال: «نحُّوا عني هذا الأسود، وقدِّموا غيره يكلمني»!!!

لكنهم جميعًا أجابوا بأنهم يرجعون إلى قول عُبادة ورأيه.

رضي الله عنكم وأرضاكم يا أصحاب رسول الله (ﷺ)!!!

لقد اشمأز هذا المسمى بالمقوقس حين وقعت عينه على رجل أسود يرأس وفدكم، ويكلمه باسمكم، فصاح مغاضبًا «نحوا عني هذا الأسود، وقدموا غيره يكلمني»!.

ولكنكم أصررتم على زعامة الأسود، وأبيتم إلا أن يكون هو أميركم، وهو المتحدث الرسمي باسمكم!.

إن المسمى بالمقوقس هذا، يتكلم بالمنطق الذي تعارف عليه أهل زمانه، وأهل كل زمان... ولكنكم أنتم الذين رباكم رسول الله فأحسن تربيتكم، لكم منطق آخر نزل

من السماء «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»... فلا فرق عندكم بين أسود وأبيض، وعبد وسيد، وأصفر وأحمر... الكل سواء، إخوة في الله، يسعى بذمتهم أدناهم.

لقد ارتفعت الإنسانية بفعلتكم تلك ارتفاعًا كبيرًا... بقدر ما نزلت بقول المقوقس نزولًا عظيمًا.

أين الأمريكان ليسمعوا ويشهدوا... ويقارنوا بين هذا الفعل وبين ما يحدث كل يوم في الولايات المتحدة من تفرقة عنصرية؟!!

خسئت يا مقوقس... خسئت أيها المظلم الجهول... إنك لم تستطع أن تفهم أصحاب رسول الله، وظننت الأمر أمر ألوان وأوضاع، وغاب عنك أن هؤلاء دعاة الدين الجديد، دين الأخوة والرحمة والمساواة!!!

وتقدم عُبادة بن الصامت رضي الله عنه، وذكر ما أمر الله ورسوله المسلمين به من الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والجهاد في الله، وحب الاستشهاد في سبيله.

وأعجب المقوقس بكلامه، وأبدى إعجابه لأصحابه، ثم قال لعُبادة: «لقد توجَّه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قومٌ معروفون بالنجدة والشدة، ممن لا يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل.

«إنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم لضعفكم وقلتكم.

«وقد أقمتم بين أظهرنا شهرًا، وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم. ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بأيديكم، وتطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم، قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به»!!!

وتقدم عُبادة بن الصامت، وأجاب المقوقس مزدريًا جمع الروم وعددهم، ذاكرًا قوله تعالى: **﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرةً بِإِذْنِ اللَّهِ واللَّهُ مَعَ الصابِرِينَ﴾**، وأن كل رجل من المسلمين يدعو ربه صباح مساء أن يرزقه الشهادة وأنهم إلى ذلك في أوسع السعة من معاشهم وحالهم.

ثم قال له: «فانظر الذي تريد فبيِّنه لنا، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك، أو نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيتها شئت، ولا تطمع نفسك في الباطل،

بذلك أمرني الأمير، وبها أمره أمير المؤمنين، وهو عهد رسول الله (ﷺ) من قبل إلينا».

ثم ذكر له أنهم إن أسلموا انصرف العرب عنهم، وإن أبوا الإسلام وأدّوا الجزية أدخلهم المسلمون في حمايتهم ودافعوا عنهم، وإن أبوا الإسلام والجزية جميعًا فليس إلا الحرب تفصل بين الفريقين!.

أي ناس كان هؤلاء القوم؟... إنهم يتكلمون بلغة القاهر الذي لا يُغلب، إنهم أصحاب رسول الله... صلى الله تعالى عليه وآله وسلم!!!

فشل المفاوضات؟!

حاول المدعو بالمقوقس أن يصرف عُبادة إلى اتجاه غير هذه الخصال الثلاث، والتفت إلى من معه يستطلع رأيهم، فأبوا إجابة المسلمين إلى شيء مما طلبوا.

ولم لا؟... إن من ورائهم جيوش الرومان لا أول لها ولا آخر... وسوف تلقي على هؤلاء المهازيل درسًا لا ينسى!.

وانصرف عبادة وأصحابه لم يغيروا مما قالوه حرفًا.

إلا أن المقوقس عاد ينصح أصحابه بمصالحة المسلمين.

سألوه: أي خصلة نجيبهم إليها؟!.

قال: «إذًا أخبركم. أما دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به. وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم، ولن تصبروا صبرهم، ولا بد من الثالثة».

قالوا: فنكون لهم عبيدًا أبدًا؟!

قال: «نعم! تكونون عبيدًا مُسلطين في بلادكم، آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم، خير لكم من أن تموتوا عن آخركم، أو تكونوا عبيدًا تباعوا وتمزقوا في البلاد مستعبدين أبدًا أنتم وأهلكم وذراريكم».

قالوا: الموت أهون من هذا!.

وعادوا إلى الحصن، وقطعوا الجسر من الجزيرة، وعادت الحرب بينهم وبين المسلمين.

مشروع معاهدة للصلح؟!

وعاد المقوقس يلح على عمرو في الصلح!!!

وتصالح عمرو والمقوقس على أن يفرض على جميع مَن بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين دينارين، على كل نفس شريفهم ووضيعهم ممن بلغ منهم الحلم، ليس على الشيخ الفاني، ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم، ولا على النساء شيء.

وأن لهم أرضهم وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم وبرهم وبحرهم، وألا يغزوا، ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة.

عقد هذا الصلح وعُلق نفاذه على رضا الإمبراطور به... وأخذ المقوقس على نفسه أن يبعث به إلى هرقل.

وركب المقوقس النهر إلى الإسكندرية ومنها بعث بتفصيل ما حدث إلى القسطنطينية مصحوبًا بمذكرة ضافية طلب في ختامها إلى هرقل إقرار الصلح.

الإمبراطور ينكل بالمقوقس؟!

استدعى الإمبراطور إليه المقوقس، وناقشه في أمر هذا الصلح، فقال له المقوقس: «لو رأيت هؤلاء العرب وبلاءهم في القتال، لعرفت أنهم قوم لا يُغلبون. فليس لنا من سبيل خير من الصلح مع عَمرو قبل أن يفتح حصن بابليون عنوة، وتصبح البلاد غنيمة لهم».

وثار هرقل، وعجب كيف يغلب ثمانية آلاف من العرب جيشه بمصر الذي يبلغ أكثر من مائة ألف من الجند؟!

واتهم المقوقس بأنه خان الدولة، وتخلى للعرب عن مصر، وحكم عليه بأنه مجرم، ووصفه بالجبن والكفر، وأسلمه إلى حاكم المدينة فشهره، وأوقع به المهانة، ثم نفاه من البلاد.

ورفض الإمبراطور إقرار الصلح مع عمرو... وعرف المسلمون بمصر هذا الرفض،

في الأيام الأخيرة من ديسمبر سنة ٦٤٠ ميلادية، فانتهت الهدنة وعاد القتال بين الفريقين.

الإمبراطور يصاب بانهيار عصبي؟!

إلا أن الإمبراطور تحطمت أعصابه تحطيمًا شديدًا بعد حديثه مع المقوقس!!!

لقد فعل به الأفاعيل، إلا أنه كان بينه وبين نفسه يوقن أن مصر سوف تنتزع منه كما انتزعت من قبل بلاد الشام كلها، وأن الإسكندرية سوف تسقط كما سقطت دمشق وبيت المقدس.

ونظر هرقل فرأى إمبراطوريته التي انتصرت على يديه نصرًا عظيمًا على غريمتها الإمبراطورية الفارسية، ولقنتها درسًا لا تنساه، ها هي تتساقط أمام أولئك الحفاة العراة من العرب!

وانهارت أعصاب الإمبراطور... وكانت نكبة مصر من الأسباب التي عجلت منيته فقد حُم بعد لقاء المقوقس، وأعجزه الاضطراب عن التفكير في إمداد حصن بابليون، أو تنظيم الدفاع عنه!!!

ومات هرقل في النصف الأول من فبراير سنة ٦٤١ ميلادية، فاضطرب الروم لموته أي اضطراب!!!

إلا أن متانة الحصن، مكنت لحماته أن يثبتوا للغزاة إلى آخر شهر مارس والأيام الأولى من شهر إبريل.

إني أهب نفسي لله؟!

ضاق العرب ذرعًا بالشهور السبعة التي انقضت منذ حاصروا الحصن، ففكروا في ضرورة اقتحام الحصن مهما كان الثمن.

وكان الزبير بن العوام أشدهم حماسة، وأكثرهم على الموت في سبيل الله إقبالًا، فقام في الناس فقال: «إني أهب نفسي لله، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين».

ثم أقبل بعد أيام في الليل مع كتيبة آزرته، فطمّموا الخندق المحيط بالحصن في موضع اختاروه، ووضعوا سُلّمًا على السور علاه الزبير بعد أن أمر أصحابه إذا سمعوا تكبيره أن يرقَوْا إليه، وأن يجيبوه جميعًا.

واستوى الزبير بأعلى الحصن، وانطلق يكبر وسيفه يلمع في يده!!!

فتبعه أصحابه، وصعدوا السلم، وساروا إلى جانبه، وكبروا معه!!!

وأجاب المسلمون من خارج الحصن تكبيرهم!!!

فأيقن الروم أن العرب قد اقتحموا الحصن فهربوا!!!

وعمد الزبير إلى باب الحصن ففتحه، ودخل المسلمون، واستولوا على ما فيه!!!

خرج جند الروم من الحصن، يعلوهم عار الهزيمة، وقد دفعهم الغيظ أن يسحبوا القبط الذين سجنوهم داخل الحصن أثناء الحصار، وقطعوا أيديهم، ونكلوا بهم تنكيلًا أثار الأسقف المصري حنا النقيوسي مؤرخ ذلك العهد فقال فيهم: «أعداء المسيح الذين دنسوا الدين برجس بدعهم، وفتنوا الناس عن إيمانهم فتنة شديدة، لم يأت بمثلها عبدة الأوثان ولا الهمج، وعصوا المسيح وأذلوا أتباعه، فلم يكن في الناس من أتى بمثل سيئاتهم، ولو كانوا من عبدة الأوثان»!!!

دهاء عَمْرو؟!

أمر عمرو بعد ما استتب له الأمر، فأقيم جسر من السفن بين الحصن وجزيرة الروضة، وبين الجزيرة والجيزة، فوصل بذلك بين شاطئي النهر، وتيسر له الإشراف على ما يجري فيه من السفن والبضائع.

ثم إنه نشر جنوده فيما استولى عليه من الأقاليم...

فرأى رجال الشرطة من القبط ينظرون إليهم باحتقار ويقولون: ما أرث العرب، وأهون عليهم أنفسهم!. ما رأينا مثلنا دان لهم!.

وخشي عمرو أن يدفع الاستخفاف بمنظر جنوده المصريين إلى الثورة عليهم، فوضع خطة بارعة للقضاء على تلك الهواجس.

أمر بجمال فذبحت وطبخت بالماء والملح، ودعا القبط فأجلسهم إلى جانب

جنده من العرب، فجعل العرب يحتسون المرق وينهشون اللحم على نحو زاد زراية القبط عليهم، وزادهم طمعًا فيهم!.

فلما كان الغد أمر بطعام من ألوان مصر فصنع، وأمر جنده أن يجيئوا في ثياب أهل مصر وأحذيتهم، ودعا القبط كما دعاهم أمس، فأكل العرب أَكْل أهل مصر ونحوا نحوهم، فتفرق القبط بعد الطعام وقد رابهم ما رأوا!!!.

ثم أمر عمرو جنوده بكرة الغداة، فتسلحوا للعرض، فعرضهم على أعين القبط.

ثم قال لهؤلاء: إني قد علمت أنكم قد رأيتم في أنفسكم، أنكم في شيء حين رأيتم اقتصاد العرب، وهون تزجيتهم، فخشيت أن تهْلِكوا، فأردت أن أريكم حالهم وكيف كانت في أرضهم، ثم حالهم في أرضكم، ثم حالهم في الحرب.

فتفرق القبط وهم يقولون: لقد رمتكم العرب برجلهم!!!

وقالوا: إن العرب قوم لا يُغلبون، وقد وطِئونا تحت أقدامهم!!!

وبلغ عُمَر ما صنع عَمرو، فقال لجلسائه: إن عَمْرًا يقاتل بالقول، وغيرُه يقاتل بالسيف... والله إن حربه للّيِّنة ما لها سطوة ولا ثورة كثورات الحروب من غيره.

ما هذا الذي فعله داهية العرب؟ إنها عبقرية السياسة، ودهاء القائد العربي!

دائمًا وأبدًا أهل مصر قوم يحبون الزينة، ويحبون حسن المظهر، تجد هذا في ملابسهم، نساء ورجالًا، وفي أعيادهم وطقوسهم... يسرفون في المظاهر، ويسعفهم بذلك ما هم فيه من نعيم مقيم.

فرأوا جنود العرب بسطاء المظهر والملبس، فنظروا إليهم نظرة الاستهزاء، وعجبوا من أنفسهم كيف يمكنون هؤلاء من حكمهم، وهم أعظم منهم مظهرًا وأكبر إخراجًا.

فانفتق عقل عمرو عن تلك الألعوبة السياسية، فأراهم من العرب أحوالًا ثلاثة... مرة وهم على طبيعتهم العربية البدوية... ومرة وهم في ملابس المصريين من زينة... ومرة وهم في عرض عسكري كأنهم الأسود الكاسرة...

وأراهم أنهم قادرون أن يكونوا حيث يشاءون من المظهر أو القوة... وإنما فقط هم يتواضعون لله... فرُعب القبط، وعلموا أنهم أمام قوة لا قبل لهم بها!.

إلى الإسكندرية؟!

سار عمرو بجيشه من حصن بابليون في شهر مايو من نفس السنة... وآثر السير على الضفة اليسرى للنيل حيث مديرية البحيرة اليوم.

وقد استطاع أثناء مقامه ببابليون أن يستعين بالقبط الذين دخلوا في سلطانه على إصلاح الطرق وإقامة الجسور، فكان ذلك مما أعانه على سرعة السير إلى الإسكندرية.

واستصحب عمرو في سيره جماعة من رؤساء القبط، اختارهم، وأحسن معاملتهم ليكونوا أداة اتصال بينه وبين من يلقاهم من أهل البلاد.

ولم تخل رحلة القائد العربي إلى الإسكندرية من بعض المناوشات... فقد خرج إليه المدافعين عن حصن «نقيوس» بالقرب من منوف، يريدون لقاءه، فدمرهم تدميرًا، وجعلهم أحاديث!.

وكانت المناوشة الثانية... أن بعث شريك بن سُمَيّ على كتيبة لتعقب الروم الذين فروا من نقيوس يريدون الإسكندرية.

ولحق شريك الروم الفارين، إلا أنه كان قلة بالنسبة للروم، فأحاط بهم الروم.

إلا أن المسلم لا ينهزم أبدًا... وجد شريك مرتفعًا من الأرض قريبًا منه فأوى إليه ومن معه وحاربهم منه!.

وأمر مالك بن ناعمة الصَّدَفيّ.. فشق ناعمة بفرسه الروم واقتحم صفوفهم، وطار سريعًا إلى عمر بنقيوس، ولم يستطع أحد له إدراكًا!.

وأمد عمرو شريكًا بمجرد ما بلغه حرج موقفه..

فماذا فعل الروم؟.. فروا قبل أن يلقوا المدد العربي!.

ومن يومها وهذا المرتفع يسمى إلى يومنا هذا «كوم شريك»!.

وكانت المناوشة الثالثة... أن عمرًا سار في قوته الكاملة في اتجاه دمنهور، حين علم أن الروم استعدوا للقائه عند سُلْطَيْس على ستة أميال إلى الجنوب من دمنهور.

ودار بين الفريقين قتال شديد... انتهى بهزيمة الروم.

وفر الروم إلى الإسكندرية، وانضموا إلى القوات الضخمة التي تنتظر المعركة الفاصلة بقيادة تيودور القائد الأكبر.

معركة كِرْيَوْن؟!

رأى تيودور أن خير وسيلة لصد الغزاة، هو الحيلولة بينهم وبين بلوغ أسوار الاسكندرية...

فخرج بنفسه إلى كريون في جند عظيم... وكانت حصون كريون آخر سلسلة الحصون قبل الاسكندرية، وكانت ترعة الثعبان أمامها تحمي المدافعين عنها، والطريق بينها وبين الاسكندرية كان معبدًا، تسير الإمدادات فوقه إلى ساحة المعركة.

سار عمرو بن العاص في جيشه... والتقى الروم في كريون... وأدرك الفريقان أن المعركة لها ما بعدها، فاشتد بينهما القتال بضعة عشر يومًا، ترجح فيه كفة المسلمين تارة، وترجح كفة الروم تارات... حتى لقد صلى عمرو يومًا صلاة الخوف ركعة وسجدتين مع كل طائفة من جنده!.

وازدادت حماسة المسلمين، وهبت عليهم رياح الجنة، فاستماتوا في القتال... وكان عبدالله بن عمرو بن العاص يقاتل في أحد أيام المعركة، فأصابته جراحات بالغة... إلا أنه اندفع رغم جراحاته يقاتل غير عابئ بجراحه، وعرف أبوه ما أصابه، فبعث رسولًا يسأل عن حاله، فتمثل عبدالله بقول الشاعر:

أقولُ لها إذا جَشَأَتْ وجاشَتْ مكانَكِ تُحمدِي أو تَستَريحي

ورجع الرسول إلى عمرو بجواب عبدالله، فرضي عنه وقال: هو ابني حقًا!.

ثم فتح الله للمسلمين، وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة، واتّبعوهم حتى بلغوا الاسكندرية.

وانهزم الروم في تلك المعركة الحاسمة، وفر من بقي منهم إلى الاسكندرية يحتمي بحصونها!.

أجمل مدن العالم؟!

سار عمرو على رأس الجيش المنتصر حتى بلغ الاسكندرية دون أن يلقى مقاومة ما!

وأصبح الجيش العربي لأول مرة أمام المدينة الساحرة الباهرة العجيبة.

ولقد كانت الاسكندرية أجمل مدن الدنيا يومئذ... تحيط بها سلسلة من الحصون المنيعة... ترتفع قبابها ومسلاتها في الفضاء... كانت كنيسة سان مارك «القديس مرقص» تشمخ بين المسلات كأنها درة في العمارة... وفي جانب آخر من المدينة معبد السرابيوم الساحر، وعمود «دقلديانوس» الفارع يشرف على القلعة التي تحرس المعبد وما حوله...

وهناك منارة فاروس ترتفع في السماء تعلن أنها من عجائب الدنيا السبع.

إن المسلمين أمام مدينة قد فاقت المدائن والقدس ودمشق وكل ما فتحوه من قبل...

وتحمس الجند، فأمرهم عمرو باقتحام أسوار المدينة وأبراجها...

واندفعوا ينفذون الأمر مهللين مكبرين... وإذا بالحجارة العظيمة تتساقط عليهم مقذوفة من المجانيق المنصوبة فوق أسوار المدينة!.

وعاود عمرو حذره... فأمر رجاله بالارتداد إلى ما وراء مرمى المجانيق.

حصار الإسكندرية؟!

وقف القائد العربي بجنوده بعيدًا عن مرمى المجانيق، وقرر أن يحاصر المدينة، حتى يضطر العدو إلى الخروج للقائه... إلا أنه بعد قليل من حصار المدينة أراد أن يذهب السأم عن جنوده، فبعث كتائب تجوس خلال البلاد تطارد الروم فيها، ثم أبقى معظم الجند على حصار الإسكندرية.

وطال الحصار... فزادت مخاوف الروم بالاسكندرية، خاصة بعد علمهم بانتشار العرب في الصعيد وفي مصر السفلى وفي الوجه البحري، واستيلائهم على ما فيها من حاميات الروم وسقوط البلاد بأيديهم... وماذا تساوي الاسكندرية بعد سقوط وادي النيل بأيدي العرب؟

عُمر يأمر بالاقتحام؟!

طال حصار الاسكندرية أربعة عشر شهرًا... وأمير المؤمنين ينتظر أنباء الاسكندرية دون جدوى...

فاشتد غضبه لبطء الفتح وقال لأصحابه: «ما أبطأوا بفتحها إلا لما أحدثوا»!.

ثم كتب إلى عمرو بن العاص: «أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر. إنكم تقاتلونهم منذ سنتين. وما ذلك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحبّ عدوكم. وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم.

«وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف، إلا أن يكونوا غيَّرهم ما غيّر غيرهم. فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس، وَحُضَّهم على قتال عدوهم، ورغبهم في الصبر والنية، وقدِّم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومُر الناسَ جميعًا أن يكون لهم صدمةٌ كصدمة رجل واحد.

«وليكن ذلك عند الزوال، يوم الجمعة، فإنها ساعة تَنَزُّل الرحمة، ووقت الإجابة، وليَعِج الناس إلى الله، ويسألونه النصر على عدوهم».

أرأيت؟.. إن عُمَر يقرر أن سبب بطء الفتح هو الميل إلى الدنيا!

ثم يضع بنفسه خطة الاقتحام ويختار قواد الجيش بنفسه، ويحدد ساعة الصفر، ساعة الهجوم!.

تالله إنها لخطة كاملة... تصلح دائمًا أن تقرر على الضباط والجنود من أبنائنا، ليدرسوها ويتفكروا فيها ويضعوا خططهم على أساس منها.

إنها تكتيك، وتربية، وسياسة، وقيادة، وربانية، وضمان للنصر في النهاية!.

اقتحموا؟!

قرأ عمرو كتاب أمير المؤمنين... وأخذ يفكر في خطة يفتح بها الإسكندرية.

ولكن كيف السبيل إلى ذلك، الإسكندرية يتحصن بها خمسون ألفًا من الرومان، في حصون هي غاية المناعة؟

جمع عمرو الناس وقرأ عليهم الكتاب، ثم دعا أولئك النفر الذين ذُكروا فيه فقدمهم.

وأمر الناس أن يتطهروا، ويصلوا ركعتين، ثم يرغبوا إلى الله عز وجل ويسألوه النصر على عدوهم، ففعلوا...

واستشار عَمرو مَسلمة بن مُخَلَّد في خطة الفتح، فأشار عليه أن يعقد لعُبادة ابن الصامت ليباشر القتال.

ودعا عمرو عُبادة بن الصامت، وتناول منه سِنان رمحه، وعقد له، وولاه قتال الروم.

وخرج عُبادة بن الصامت، على رأس الجيش، واقتحموا الإسكندرية اقتحام رجل واحد، كما أمرهم أمير المؤمنين... وكانت معركة هائلة، فاقت معارك القادسية، والمدائن، ونهاوند... ففتح الله عليه ليومه... وهرب الروم في البر والبحر!.

ودخل المسلمون الإسكندرية قهرًا، في مستهل السنة العشرين من الهجرة، فاقتحموا أسوارها، وفتحوا أبوابها، ففر الروم منهم إلى البر والبحر، وأذعن لهم سكان العاصمة وأسلموهم مقاليدها.

ودخل أصحاب رسول الله (ﷺ) ظافرين... ورأوا الإسكندرية لأول مرة...

ماذا رأوا؟... رأوا المدينة في أبهى صورها... الحضارة كلها آنذاك كانت في الإسكندرية!

ولكي ندرك جميعًا ما كانت عليه الإسكندرية وقت دخول العرب إليها، وما تركته في نفوسهم من آثار عميقة، علينا أن نقرأ عبارة عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين في هذا الفتح إذ يقول: «أما بعد، فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها، غير أني أصبت فيها أربعة آلاف بنية، بأربعة آلاف حمام، وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية، وأربعمائة ملهى للملوك».

بل لقد بعث عمرو رسولًا إلى عمر ينبئه بالفتح، فسأله الرسول: «ألا تكتب معي كتابًا؟» فكان جواب عمرو: «وما أصنع بالكتاب؟ ألست رجلًا عربيًا تبلغ الرسالة وما رأيت وما حضرت؟؟».

لقد آثر عمرو أن يترك لرسوله شرح الإسكندرية لعُمر... لأنه لم يجد كلامًا يستطيع تصويرها!

قال المؤرخون: «لما فتحت الإسكندرية وُجد بها اثنا عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر».

وقالوا: «إن أهل الإسكندرية جميعًا كانوا يلبسون الثياب السود والحمر، لأن أرضها وبناءها من المرمر الأبيض، وكان تألق الرخام سببًا في اتخاذ الرهبان السواد في لباسهم، وكان من المؤلم أن يسير الإنسان في المدينة بالليل، فإن ضوء القمر إذا وقع فيها على الرخام الأبيض جعلها تضيء حتى كان الحائك يستطيع أن يضع الخيط في الإبرة بغير أن يستضيء بمصباح»!!.

الجميع يستظلون بالإسلام؟!

ماذا وجد العرب في الإسكندرية؟.. وجدوا أجناسًا مختلفة تسكنها، أديانًا ومذاهب متباينة تتجاور فيها...

هذه اللغات واللهجات العديدة التي يتكلمها أهلها... لم تمنعهم من الاندماج والطمأنينة في ظل عيش مترف، ونعيم مقيم.

قالوا: «فلم تكد المدينة تستعيد طمأنينتها بعد انتهاء حصارها، حتى عادت سيرتها الأولى، تستمتع بصنوف اللهو، وتستمرئ المتاع بشتى ألوانه...

فهذه مجالس العلم تُعقَد يتحدث حضورها في الفلسفة والرياضة والطب والفن وغير ذلك.

وهذه دور اللهو فيها الراقصات البارعات، والمغنيات المشجيات، وفيها من التمثيل الموسيقي وألوان الفن الجميل كله.

وهذه دور الصناعة تعج عجيجًا شديدًا، فهي تنتج من كل شيء.

وهذه متاجر المدينة في أحيائها، يتعامل الناس فيها مغتبطين.

وهؤلاء أغنياء الإسكندرية في ثيابهم الجميلة، يذهبون إلى دور اللهو وإلى المتاجر وإلى دور العلم وإلى مسارح التمثيل.

حياة حافلة شاملة، ومدينة زاخرة وافرة، وأمم متباينة، وألوان مختلفة، وعقائد مختلفة، وأجناس مختلفة، ومستويات مختلفة... ولكن كل هذا حكمه الإسلام، واستظل بحكم الإسلام، وعاش سعيدًا تحت حكم الإسلام!.

وفي هذا أبلغ رد على أولئك الجهال الذين يزعمون أن الإسلام لا يصلح نظامًا عامًا لكل الناس.

ولقد كانت الإسكندرية وقتئذ أكبر عاصمة عالمية، فيها جميع اللغات، وجميع الحضارات وجميع الأجناس، وجميع الأديان وجميع الاتجاهات... ومع هذا كله حكمها الإسلام، ونظمها، وكفل لأهلها أسعد حياة!!!

رجل لا ينام؟!

سار البشير إلى أمير المؤمنين... فبلغ المدينة في الظهيرة، فأناخ راحلته بباب المسجد، ودخله وجلس قريبًا من بابه.

وخرجت جارية من دار عمر بن الخطاب، فرأته شاحبًا عليه ثياب السفر، وعرفت منه أنه رسول عَمرو بن العاص، فدخلت مسرعة إلى الدار، ثم رجعت إليه مسرعة، وقالت: قم أجب أمير المؤمنين يدعوك.

ودخل الرجل الدار يتبعها، وأجاب عُمر حين سأله: ما عندك؟

فقال: خيرًا يا أمير المؤمنين، فتح الله الإسكندرية.

فخرج عمر فورًا إلى المسجد، ومعه البشير، وأمر المؤذن أن يؤذن في الناس أن الصلاة جامعة.

فلما اجتمع الناس قال عمر للرجل: قم فأخبر أصحابك.

فلما أخبرهم، قام عمر فصلى شكرًا لله، ثم دخل منزله، واستقبل القبلة، ودعا بدعوات ثم أمر الجارية فجاءت الرسول الذي حمل النبأ بفتح الإسكندرية بطعام خبز وزيت.

وأكل الرجل على حياء! ثم أتته بطبق من تمر، فأكل على حياء كذلك!.

فلما فرغ من طعامه سأله عمر: ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد؟

وأجاب معاوية: قلت إن أمير المؤمنين قائِلٌ.

فأردف عمر: بئسما ظننت! لئن نمتُ النهار لأضيعنّ الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية؟!

هذا هو عمر... رجل لا ينام... فمن ذا يستطيع أسلوب عمر في الحياة؟

عبقرية عمرو...
السياسية...
أو كيف حكم الإسلام مصر...؟!

الدعوة أولًا؟!

سقطت مصر كلها بأيدي الفاتحين المسلمين... وبينما هم يتمون الاستيلاء على البلاد التي لم تستسلم بعد... تسلم عمرو وهو عند بلهيت كتابًا من الخليفة يطلب إليه أن يخير الأسرى، فمن دخل الإسلام كان للمسلمين أخًا.

وسمع الأسرى ذلك، فأسلم كثيرون، فجعل المسلمون يكبّرون لإسلام كل واحد منهم.

تلك أقصوصة لها دلالتها... تدعونا أن نقف أمامها طويلًا... فيتبين لنا في غير خفاء أن عمر كان يهدف إلى نشر الإسلام أولًا وقبل كل شيء بمصر، كما كان ذلك هدفه من فتوحاته كلها.

وها هو يأمر عَمرًا أن يخير الأسرى، وها هو فريق كبير منهم يختار الإسلام، ويدخل فيه!.

الانطلاق إلى برقة؟!

وأصبح الأمر في مصر خالصًا للمسلمين من شواطىء بحر الروم إلى بلاد النوبة...

فهل هدأ عمرو واستراح إلى ذلك؟... كلا فهو المؤمن المنطلق في سبيل الله... لذلك خرج في قواته، فسار من الإسكندرية إلى برقة...

ولم يكن الطريق بينهما صحراويًا كما هو اليوم. بل كان يجري في أرض

خصبة، يحيط به من الجانبين زروع وفاكهة وكروم وعمران متصل.

وسار فرسان المسلمين في نزهة ممتعة حتى انتهوا إلى برقة... فسلمت صلحًا... ورضيت أداء جزية ثلاثة عشر ألف دينار كل عام!.

.. ثم إلى طرابلس؟!

ثم واصل عمرو سيره إلى طرابلس، وكانت ميناء حصينًا به قوة من الروم تحميه... وعرف العرب أثناء حصارها، أن المدينة غير محصنة من جانب البحر، فانسلّ جماعة منهم من تلك الناحية، وصاحوا مكبرين، فلم يسع الروم إلا الفرار إلى السفن تاركين المدينة يفتح الحراس أبوابها، فيدخلها عمرو على رأس جيشه!.

إلى الأطلنطي؟!

هل وقف عمرو عند هذا الحد؟... كلا إنه سيَّر كتائب أذاعت الرعب في قلوب أهل الإقليم، فاستسلم السكان جميعًا.

وكتب عمرو إلى أمير المؤمنين يستأذنه في السير إلى تونس وما وراءها من شمال إفريقية حتى المحيط الأطلنطي... فلم يأذن له..

فعاد إلى برقة حيث أقبلت إليه أكبر قبائل البربر فدانت له بالطاعة.

فلما تأكد للقائد العربي أن لم يعد للروم سلطان بشمال إفريقيا، عاد إلى الاسكندرية بالأسرى والغنائم!.

وهنا نقف مرة أخرى، نقارن بين القائد العربي عمرو بن العاص، وبين القائد الهتلري رومل...

فنجد أن قائدنا العربي أتم فتح مصر كلها، وتغلب على أكثر من مائة ألف من الرومان بثمانية آلاف من المسلمين، ثم واصل سيره من الاسكندرية إلى برقة ثم إلى طرابلس، وكان يريد أن يواصل سيره إلى المحيط الأطلنطي...

أرأيت؟... نفس الخط الذي سار فيه رومل، حيث سار من طرابلس إلى برقة إلى العلمين بالقرب من الاسكندرية، حيث انهزم هزيمته التي ذهبت به إلى الأبد.

ولكن شتان بين سير وسير... هذا عمرو يسير منتصرًا دائمًا، قد قضى قضاء تامًا على أعدائه، وذاك رومل يسير إلى حتفه، حيث انتهى إلى الأبد.

لقد سار الرجلان في طريق واحد، هو الطريق من الاسكندرية إلى طرابلس، وقطعا نفس المسافة... ولكن أحدهم انتصر، وما زال نصره حتى يومنا هذا قائمًا والآخر انهزم إلى الأبد، وما زالت هزيمته إلى يومنا هذا قائمة.

نعم... فإن ما فيه مصر، وما فيه ليبيا من إسلام حتى الآن، كان أثرًا من آثار نصر عمرو... كما أن ما فيه الألمان من هزيمة كان أثرًا من آثار هزيمة رومل.

وهذا هو الفارق بين فتح الإسلام وفتح الطغيان.

محاولة فتح النوبة؟!

وأراد عمرو أن يؤمن حدود مصر من الجنوب كما أمن حدودها من الغرب، فبعث عُقبة بن نافع الفِهْرِيَّ إلى النوبة.

فلقيه أهلها وقاتلوا المسلمين قتالًا شديدًا، ارتد عقبة على أثره ولم يعقد صلحًا ولا هدنة.

وظلت كتائب عمرو بعد ارتداد عقبة تناوشهم على الحدود.

على أن أهل النوبة لم يفكروا في اجتياز حدود مصر لمقاتلة قوات المسلمين، واكتفوا أن ردوا عدوهم عن ديارهم.

لذلك لم يخش عمرو جانبهم، وأقام مطمئنًا إلى سلامة مصر من ناحية الجنوب.

هل فتحت مصر صلحًا أم عنوة؟!

إنما كان القتال بين العرب والروم في أرض مصر.

وقد انتصر العرب على الروم. وأجلوهم عن مصر وأزالوا دولتهم فيها.

وهم لذلك قد فتحوا مصر عنوة في وجه الروم الذين قاتلوهم وانهزموا أمامهم.

ولم يفتحوها عنوة في وجه المصريين الذين لم يقاتلوهم.

أما بالنسبة للمصريين، فإن الروم قد حرموا عليهم الجيش والتسلح وصناعة

الأسلحة، وبهذا وقفوا أثناء المعركة موقف المتفرج، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء... فكان فتح مصر صلحًا بالنسبة للمصريين.

ماذا في المعاهدة؟!

أقر عمرو الصلح بينه وبين المصريين... ورضي المصريون ذلك الصلح ودخلوا فيه.. فماذا كان في هذا الصلح؟

أورد الطبري نص هذا العهد:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان، على أنفسهم، وملتهم، وأموالهم، وكنائسهم، وصُلبهم، وبَرهم، وبحرهم، لا يُدخل عليهم شيء من ذلك، ولا يُنتقص، ولا تساكنهم النوبة.

«وعلى أهل مصر أن يُعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهيت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف.

«وعليهم ما جنى لصُوتُهم (لصوصهم). فإن أبى أحد منهم أن يُجيب رُفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة.

«وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رُفع عنهم بقدر ذلك.

«ومن دخل في صلحهم من الروم والنوبة فله مثلُ ما لهم، وعليهم مثل ما عليهم.

«ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا.

«عليهم ما عليهم أثلاثًا، في كل ثلثٍ جباية ثلثِ ما عليهم.

«على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته، وذمة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمم المؤمنين.

«وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسًا، وكذا فرسًا، على ألا يُغزوا، ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة»...

وقبل أهل مصر هذا التصريح الذي أعلنه عمرو، ودخلوا فيه...

كم كانت الجزية؟!

لم يرد في عهد عمرو تفصيل الجزية، ولا طريقة توزيعها بين سكان مصر.

وقد اتفق المؤرخون على أن الجزية قُدرت بدينارين على كل حالم من الرجال دون سواهُم، فلا جزية على الأطفال والنساء والرقيق والشيوخ الفانين والعجزة غير القادرين والصبيان.

وواضح أن هذه الجزية كانت على الرؤوس، وأنها كانت غير خراج الأرض يلزم به الرجل على قدر المساحة التي يزرعها.

ثم كتب عمر إلى عمرو أن يفرق بين أهل مصر في مقدار الجزية على قدر يسارهم، فيجعلها أربعة دنانير على الموسر، ودينارين على أوساط الناس، ودينارًا على من دونهم.

وهذا التطور من عمر اتبع من بعد. يقول أبو يوسف في كتاب الخراج: «الجزية واجبة على جميع أهل الذمة... وإنما تجب على الرجال منهم دون النساء والصبيان. على الموسر ثمانية وأربعون درهمًا، وعلى الوسط أربعة وعشرون، وعلى المحتاج الحرّاث العامل بيده اثنا عشر درهمًا، يؤخذ ذلك منهم في كل سنة».

ماذا ولماذا؟... ماذا دفع المسلمين إلى فرض الجزية على من صولح من أهل الذمة، ولماذا هذه الجزية؟

ينبغي هنا أن نتأمل الأمر مليًّا، فإن فيه شبهة قد تجوز على كثيرين...

إن هذه الجزية معناها بلغة عصرنا الحاضر، ضريبة دفاع...

وإذا كانت أرقى دول العالم مدنية في عصر الفضاء والصواريخ، تفرض على أبنائها ضرائب متعددة، لتستطيع تسليح جيوشها بأحدث الأسلحة، ولتتمكن من مواجهة نفقات التسلح... فإن الدولة الإسلامية ليست بدعًا من الدول حين تفرض على أبنائها تلك الضريبة لتتمكن من إعداد جيوشها لمواجهة أعدائها.

وهذا هو المقصود من الجزية التي فرضها الإسلام على أهل الذمة... ذلك أنهم ينعمون بنعمة الدفاع عن أراضيهم، ويقوم جنود المسلمين بالدفاع عن تلك الأراضي، ويبذلون في ذلك ما يبذلون من دمائهم وأموالهم... فلا أقل من أن

يشارك الذميون في نفقات الدفاع.

ولذلك نرى عمر في فتوحات فارس، يسقط الجزية عن الفارسيين الذين قبلوا أن يقاتلوا مع المسلمين أعداء البلاد... فحيثما انتفي سبب الجزية انتفي دفعها.

ونرى كذلك الإسلام يسقط الجزية عن الذمي إذا أسلم... لأنه في هذه الحال سيقوم بواجب الدفاع بدمه عن البلاد.

ونرى الإسلام يسقطها أصلًا عن الذين لا يصلحون لقتال، النساء والشيوخ والصبيان..

ونراه يسقطها عن الذين لا يستطيعون أداءها... كالرقيق العاطلين...

فليس الأمر أمر إعنات، وإنما هو مصلحة الدولة العليا...

ثم نرى عمر يجعل تلك الجزية. فئات ثلاث أربعة دنانير للقادر، وديناربن لمتوسط الحال... ودينار للجماهير...

أرأيت؟... دينار للرجل العادي... إن جمهور المصريين فقراء... الملايين الكادحة هم غالبية الشعب... يدفع كل رجل قادر على الكسب والقتال منهم دينارًا واحدًا!.

هذا عن الجزية التي فرضها الإسلام لمصلحة الدولة العليا، ولتكون شيئًا مفروضًا على رعايا الدولة الإسلامية من أهل الذمة، بديلًا عن الزكاة التي يدفعها رعاياها المسلمون. إذ لا يتأتى أن يدفع المسلمون ضريبة الزكاة، ويقوموا بأداء ضريبة الدم بقتالهم عن الوطن، بينما الذميين لا يدفعون ضريبة ولا يقاتلون عدوًا؟!

وإنما تقضي العدالة أن تكون هنا ضريبة وهناك ضريبة تقابلها، ليتحقق التوازن بين المواطنين.

وما هذا الخراج؟!

وهنا شبهة أخرى... هي: ما هذا الخراج الذي فرضه عَمرو على أرض مصر كلها؟

الخراج بلغة عصرنا الحديث هو ضريبة الأطيان... وقد فرض عمرو على الفدان من أرض مصر سبع كيلات قمحًا سنويًا.

أرأيت؟... هذا هو الخراج، أي ضريبة الأطيان الزراعية.

ضريبة طبيعية، فرضها عمرو على كل من يزرع شيئًا من الأراضي الزراعية... مصريًّا كان أو غير مصري.

وقدرها تقديرًا عادلًا، وترك تقديرها إلى أهل مصر، فهم أدرى بشؤونهم.

حرية العقيدة؟!

كان أول أمر أذاعه عمرو بن العاص في الناس جميعًا من النوبة إلى الاسكندرية، أن لا إكراه في الدين، وأن حرية العقيدة أمر مقدَّس، فلن يضار أحد في حريته، أو في ماله، بسبب دينه أو مذهبه.

فمن شاء أن يبقى ملكانيًّا أو مونوفيسيا فله ما يشاء. ومن شاء أن ينتقل من دين إلى دين أو من مذهب إلى مذهب فلن يصاب لذلك بسوء!!!.

ومن أسلم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم.

منشور عجيب أذاعه عمرو بن العاص في أنحاء البلاد!

ونفذت هذه السياسة بدقة وإخلاص.

ذكر ساويرس أن أسقفًا ملكانيًّا بقي على مذهبه حتى مات، ولم يمسسه أحد بسوء.

وأن بنيامين المونوفيسي كان يستميل الناس إلى مذهبه بالحجة والبرهان، فلا يقف أحد في سبيله، ولا يعطل أحد نشاطه.

وقد بقيت كنائس الملكانيين، وكنائس المونوفيسيين قائمة تؤدى فيها الشعائر، ولا يجرؤ أحد أن يدنس حرمتها أو يحمل أحدًا من أهل هذا المذهب أو ذاك على أمر لا يرضاه!.

ورأى المصريون حكمًا جديدًا، يحترم الحريات، ويترك الناس أحرارًا في آرائهم، وعقائدهم ومذاهبهم الفكرية، وقارنوا بين ما جاءهم به حكم الإسلام وما كانوا عليه من اضطهاد وتعذيب دام عشرة أعوام أيام الرومان، فأيقنوا أن دين الفاتحين هو دين الحرية!!

والمساواة؟!

وخفف عمرو وطأة الضرائب، وألغى ما قرره الروم من فروق بين الناس في أمرها.

كان الروم يحصلون غير جزية الرؤوس ضرائب كثيرة من أنواع شتى، أكثرها غير عادل.

وكانوا قد منحوا امتيازات طبقية لبعض الطوائف، فأعفوهم من الجزية، ومن ضرائب معينة، خصوصًا أهل الإسكندرية...

فألغى عمرو ما كان غير عادل من تلك الضرائب، وسوى بين الناس في أدائها.

فتحدث الناس بعدالة الإسلام!!!

العاصمة الجديدة؟!

كتب عمرو إلى أمير المؤمنين يستأذنه في المقام بالإسكندرية، وإقامة حكومته بها، وسأل عُمر الرسول: هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟

فأجابه: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل.

لذلك كتب إلى عَمرو: «لا أحب أن تنزل المسلمين منزلًا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف». واختار عمرو المكان المجاور لحصن بابليون تحقيقًا لرغبة عُمر...

فهو مكان يستطيع أمير المؤمنين أن يأتي من المدينة إليه دون أن يحول بينه وبين المسلمين ماء.

فلما عاد من الإسكندرية أمر جنده أن ينزلوا عنده، وأن يختطوا دورهم حوله. واختطت المدينة، وقسمت بين أحياء العرب، وبناها لهم القبط.

وبنى عمرو مكان فسطاطه (خيمته) وما حوله مسجدًا بين حدائق وأعناب.

وظل قائمًا مع أصحابه حتى حرروا قبلته.

ثم إنه اتخذ في المسجد منبرًا يخطب الناس فوقه، فلما عرف صنيعه ذاك كتب إليه عمر: «أما بعد، فإنه قد بلغني أنك اتخذت منبرًا ترقى به على رقاب المسلمين. أما حسبُك أن تقوم قائمًا والمسلمون تحت عقبيك! فعزمت عليك إلا ما كسرته!».

فكسره عمرو... وأزاله.

وبنى عمرو دارًا لعمر بن الخطاب وكتب إليه: إنا قد اختططنا لك دارًا عند المسجد الجامع.

فأجابه عمر: أنّى لرجل من الحجاز أن تكون له دار بمصر!. وأمره أن يجعلها سوقًا للمسلمين، فنفذ عمرو أمره!!!

نموذج للمجتمع الإسلامي؟!

كما أنشئت الكوفة، والبصرة، مدّنا إسلامية، يطبق فيها النظام الإسلامي الصحيح، كذلك أنشئت الفسطاط مدينة إسلامية، بعيدة عن مدينة مصر، مستقلة عنها في كل شيء.

ودائمًا أبدًا نلحظ في تلك المدن التي ينشئها الجيش الإسلامي، أن المسجد يتوسطها، وينتشر من حوله بيوت الجنود.

وفي هذا المجتمع الصغير، تتمركز الفكرة الإسلامية، بقوتها ومبدئها.

القوة ممثلة في الجيش، والفكرة ممثلة في كتاب الله...

مجتمع كامل يطبق الإسلام على نفسه في كل شيء، وعلى استعداد دائمًا لبذل دمه في سبيل عقيدته.

ومن هذا المجتمع الصغير ينبثق الإسلام نورًا على البلاد التي فتحها، وتوجيهًا لأبنائها، وعدلًا في حكمها.

وهو أبرع أسلوب في الدعوة إلى دين الله... وعرض الفكرة على الأجانب عنها.

إن أهل مصر كان أغلبهم أهل كتاب.. فكيف يعرض عليهم الإسلام؟

إن ذلك هو الأسلوب... وسرعان ما اقتنع المصريون، وسرعان ما دخلوا بعد ذلك في دين الله أفواجًا!!!

فليأت البطريك آمنًا؟!

فلما أيقن رُهبان القبط أن عَمرًا يحترم حرية العقائد، خرج عدد عظيم من الأديار

التي كانوا قد اعتصموا بها من الاضطهاد. وساروا إلى عمرو يعلنون له الطاعة.

وكتب للقبط جميعًا أمانًا خص فيه بنيامين بقوله: «فليأت البطريق الشيخ آمنًا على نفسه وعلى القبط الذين بأرض مصر والذين في سواها لا ينالهم أذى».

وعلم بنيامين بما أذاعه الفاتح العربي، فخرج من مخبأه بالصحراء، ودخلها إلى الإسكندرية، فدخلها دخول الفاتح، في مظاهر من ابتهاج القبط، لا يساورها خوف، ولا يشوب صفوها كدرا!.

ثم دعاه عمرو إليه، وقابله بالترحيب والتكريم... وجعل له ولاية الدين على القبط يسوسهم في أموره بما يشاء.

وخرج البطريرك القبطي من حضرة الفاتح الإسلامي، وعاد إلى الإسكندرية يلهج بحمده والثناء عليه ويقول لأتباعه: «عدت إلى بلدي الاسكندرية فوجدت بها أمنًا من الخوف، واطمئنانًا بعد البلاء، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم».

وكان المصريون يقولون: «ما خرج الروم وانتصر عليهم المسلمون إلا لما ارتكبه هرقل من الكبائر، وما أنزله بالقبط وملتهم على يد قيرس. لقد كان هذا سبب ضياع أمر الروم وفتح المسلمين لبلاد مصر».

المصريون يتدفقون على الإسلام؟!

الحرية دائمًا هي الأرض الطيبة التي تنبت الأفكار الطيبة.

أشاع عمرو جوًّا من الحرية في ربوع البلاد، كما أشاع جوًّا من العدالة والمساواة في أنحائها... فأقبل العقلاء من المصريين على النظر في المذاهب المختلفة، ثم انتهى إلى قبول الإسلام والدخول فيه؟

لماذا؟... إن أحدًا لم يكرههم على الإسلام، أو يرهبهم ليقبلوا هذا الإسلام، فلماذا تدفقوا عليه؟ لأنهم رأوا فيه ما يمضي مع الفطرة السليمة الكريمة...

رأوا فيه شعاع لا إله إلا الله، التي تهفو لها الأفئدة عن طواعية وحنين... لأنها فطرة الله التي فطر الناس عليها.

ورأوا فيه قومًا عدولًا، يحب أحدهم ما يحب لنفسه.

ورأوا فيه دعوة عامة لكل الناس، لا تفرق بين لون ولون، ولا بين حر وعبد، ولا بين شريف ووضيع، وإنما الكل سواء.

والعقول السليمة إذا هيأت لها جوًّا من حرية البحث، تهتدي بفطرتها إلى ما في الإسلام من تعاليم.

يقول بتلر في هذا الصدد: «ليس من العدل أن يقال إن كل من أسلم من القبط إنما يقصد الدنيا وزينتها، وإذا كان منهم من أسلم طمعًا في أن يتساوى بالمسلمين الفاتحين حتى يكون له ما لهم وينجو من دفع الجزية، فإن هذه المطامع ما كانت لتدفع إلا من كانت عقيدتهم غير راسية. أما الحقيقة المرة فهي أن كثيرين من أهل الرأي والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان من عصيان لصاحبها، إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء في الله، ونسيت ذلك في ثوراتها وحروبها التي كانت تنشب بين شيعها وأحزابها. ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجأوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه، واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته».

تلك شهادة رجل أجنبي عن هذا الدين، فيها أكبر الدلائل على أن المصريين أقبلوا على الإسلام عن بحث واقتناع ورغبة... في جو من الحرية التامة.

السياسة الإسلامية العليا للبلاد؟!

كيف كانت سياسة عمرو العليا في حكم مصر؟!

وإنما تأتي خطورة جواب السؤال من أنه التخطيط العام للسياسة الإسلامية في حكمها للقطر المصري...

أما الجيش وقياداته فكانت حقًّا خالصًا للمسلمين الفاتحين... وهذا ما تمليه ظروف البلاد آنذاك.

وأما الشرطة بأكملها فقد تركت للمصريين، كما كانت أيام الرومان.

وكانت الأوامر إلى الجيش الإسلامي الفاتح، أن يكون دائمًا مستعدًّا للدفاع عن البلاد ضد أي عدوان خارجي، لذلك حرم على أفراده أول الأمر امتلاك أي شبر من أراضي مصر.

وفرضت للجنود مهايا يقتضونها لنفقتهم ونفقة عيالهم... وأقاموا على ذلك كل خلافة عمر. على أن هذا المنع لم يدم إلا ريثما اطمأن المسلمون إلى قرارهم في مصر. عند ذلك أبيح لهم أن يتملكوا الأرض، فإذا ملكوها دفعوا عنها الخراج كسائر الناس، فلا يزاد خراجها ولا ينقص بسبب تغيُّر مالكها، وكونه مسلمًا أو قبطيًا.

فكانت المهايا تصرف إلى الجيش من حصيلة الجزية، وإن تبقى شيء أرسل إلى المدينة، العاصمة المركزية للدولة.

هذا عن الجيش والشرطة، أما المناصب المدنية فترك عمرو أكثرها لجماعة من الروم كانوا يتولونها من قِبَل دولتهم قبل الفتح ثم آثروا البقاء بمصر بعد الفتح.

ورضي كثير منهم الإسلام ليكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.

أقر عمرو ميناس على حكم مصر السفلى حيث كان من عهد هرقل.

وأقر غيره من بني جنسه على حكم بعض الأقاليم.

كما أقر الروم الذين كانوا فيما دون ذلك من المناصب ولم يتركوا مصر.

وشغل القبط المناصب التي خلت لأن أصحابها من الروم تركوا البلاد.

ما هذا؟... هذا هو الإسلام.

لقد جاء عمرو إلى مصر، فوجدها على أوضاع معينة، فماذا يفعل؟

هل يطبق نصوص الإسلام فورًا بلا إبطاء مهما كانت الظروف، كما يذهب إلى ذلك بعض مسلمي اليوم، أم يسوس البلاد بما تقتضيه ظروفها وأحوالها؟

إن تغيير النظام القائم في دولة من الدولة يتعذر أن يتحقق طفرة واحدة، فلا بد من الإبقاء عليه مؤقتًا حتى يتطور على الأيام ليلائم العهد الجديد.

ولم يكن لعمرو أول الفتح أن يسلك غير هذه الخطة، فهي بعينها الخطة التي سلكها المسلمون في العراق والشام، وهي كانت محتومة في مصر أكثر منها في تلك البلاد.

أما وقد كان جماعة من الروم عمالًا على الأقاليم حين جاء الفتح، فليبقوا كما كانوا، ولينظر الفاتح العربي في هدوء، فيدخل ما يحسن إدخاله على نظام الحكم من تعديل يزيد نصيب أهل البلاد من هذا الحكم، على شريطة ألا يضطرب النظام فيسيء اضطرابه إلى الحاكمين والمحكومين على سواء.

هل كانت هذه السياسة شيئًا استبداديًا من تفكير عَمرو وحده؟

كلا... فقد كان عمرو يكتب إلى الخليفة بما يتم في مصر، ويطلعه على كل خطواته فيها!.

فإذا علم أن عمرو لم يكن يفعل شيئًا إلا بعد استشارة أهل الرأي. وأنه كان يكتب بكل شيء إلى عُمر، وأن عمر لا يقر باطلًا أبدًا، أدركنا أن تلك السياسة هي سياسة الإسلام، لأنها ثمرة أفكار قادة الإسلام في مصر والمدينة آنذاك.

ومن هذا نعلم أن مصر في الأيام الأولى للفتح كان بها نظامان... نظام ترك البلاد على ما هي عليه، ونظام طبق فيه الإسلام بحذافيره.

أما الإسلام فطبق بأكمله على أهل الفسطاط لأنهم جميعًا مسلمون.

وأما سائر البلاد من أهل الذمة، فتركوا نظامهم الاجتماعي، وعقائدهم الدينية.

ماذا ندرك من هذا؟... ندرك من ذلك أن تطبيق الإسلام يستلزم وجود المجتمع الإسلامي أولًا، ثم بعد هذا يأتي التشريع نتيجة طبيعية لذلك المجتمع.

وندرك من هذا كذلك أن الإسلام لا يقر الطفرة من الجاهلية إلى الإسلام مرة واحدة، وإنما يدعو إلى التطور التدريجي بالمجتمع.

وهذا ما ينبغي أن يوضع في الاعتبار أمام الأنظار، عندما يفكر قوم في تطبيق الإسلام على مجتمع من المجتمعات.

عُمَر يأمر باستشارة البطريك؟!

عجيب هذا الإسلام... إنه يبتلع آراء الناس جميعًا، سواء كانوا له أم عليه، ويهضمها، ويخرجها نظامًا طيبًا إلى الجميع.

لما عرف عُمر مكانة بنيامين من المصريين، كتب إلى ابن العاص أن يلتمس الرأي عند البطريق القبطي في خير الوسائل لحكم البلاد وطمأنينة أهلها.

وفرح بنيامين فرحًا شديدًا... وأخلص المشورة لعمرو...

وكانت آراؤه أن يحصل الخراج من غَلّة الأرض عند فراغ الناس من زروعهم، ومن عصر كرومهم.

وأن تحفر خلجان مصر، وتصلح جسورها، وتسد ترعها.

وأن يعطى العمال أرزاقهم بغير انقطاع لئلا يرتشوا.

وألا يباح مطل الناس حقوقهم بغيًا بغير حق.

وألا يلي أمور الناس عامل ظالم.

أرأيت؟... كلمة الحق دائمًا واحدة... إن بنيامين القبطي يشير بالعدل والنظام... تمامًا كما يشير الإسلام!

إن البطريرك يرى أن إصلاح نظام الحكم في مصر يجب أن يعتمد على الأسس الآتية:

تحصيل ضريبة الأطيان الزراعية بعد جني المحاصيل... الاهتمام بمشروعات الري والطرق لزيادة الرقعة المزروعة... صرف مهايا العمال بانتظام لئلا يرتشوا... سرعة إنهاء أعمال الدولة، أعمال الجمهور لئلا تتعطل مصالحه... عزل كل موظف ظالم مهما كانت أوضاعه.

أرأيت؟... إن ما أشار به البطريرك وأقره عمرو، هو هو نفس ما يُنادَى به الآن لإصلاح أداة الحكم في هذه البلاد!!.

إن الشعب المصري كان يتطلع وقتئذ إلى النهوض ببلاده بعد أن انزاح كابوس الاستعمار الروماني عنه، تمامًا كما انبعث ينهض ببلاده بعد أن انزاح كابوس الاستعمار البريطاني.

وارتاح عمرو إلى ما أشار به البطريرك، فكتب إلى عماله في أرجاء البلاد، وأمرهم أن يتبعوا هذا الرأي لا يحيدون عنه.

خليج أمير المؤمنين؟!

وانطلق الفاتح العربي يشعل الثورة في أنحاء البلاد المصرية...

والإسلام دائمًا وأبدًا ينادي بمبدئه الخالد «إن أريد إلا الإصلاح»...

هذا هو عمرو بعد أن أشاع العدل والمساواة في أنحاء مصر، ينطلق إلى تنفيذ المشروعات الكبرى للنهوض باقتصادها.

وبادر عمرو إلى القيام بهذا العمل العظيم... وأتمه في وقت قصير لم يبلغ عامًا كاملًا.

وكان هذا الخليج يجري مبتدئًا من شمال بابليون متجهًا شمالًا بشرق إلى بلبيس، فإذا جاوزها اتجه شرقًا إلى بحيرة التمساح، ليخرج من جنوب هذه البحيرة فيتابع جريانه خلال البحيرات المرة فيبلغ البحر الأحمر عند السويس.

ولا شك أن في القيام بهذا العمل العظيم، وإتمامه في هذا الزمن الوجيز مما يشهد لعمرو بالمقدرة الإدارية الممتازة!!!

معسكرات العمل؟!

جند عمرو الألوف من العمال المصريين للقيام بحفر الخليج... وكانت أوامره صريحة قاطعة، أن يتم المشروع في أقرب وقت مستطاع!!!

وما هي إلا شهور حتى خرج الخليج إلى الوجود عملًا رائعًا، يشهد للقيادة العربية بالعبقرية، ويشهد للانتاج المصري بالعظمة.

عَمْرو يشق قناة السويس؟!

وانطلق العملاق العربي في ثورته الإصلاحية... وكان أعجب ما فكر فيه عمرو أنه كان يريد حفر خليج بين بحيرة التمساح وبحر الروم، يصل مياه البحرين، بحر القلزم (الأحمر) وبحر الروم (الأبيض المتوسط) على نحو ما هو حادث اليوم!.

واعتزم عمرو القيام بهذا العمل الضخم، لولا اعتراض أمير المؤمنين بأنه يسهل للروم اختراق هذه القناة وتسيير سفنهم إلى البحر الأحمر.

ولم يكن للعرب إلى يومئذ أسطول تجاري أو أسطول حربي يقف في وجه أسطول الروم أو ينافسه.

فكان العدول عن حفر قناة تصل مياه البحرين بعض ما يقضي به الحذر!.

ما هذا؟.. إنه العملاق العربي إذا انطلق، إن عمرو بن العاص كان يريد، وعزم فعلًا، على شق السويس، لولا أن منعه من ذلك أمير المؤمنين لأسباب عسكرية، هي

حماية العالم الإسلامي من أسطول الروم.

ثم افتتح خليج أمير المؤمنين، وسارت السفن فيه من الفسطاط إلى البحر الأحمر... وكان طريقًا عالميًا للتجارة الدولية، أعاد إلى مصر أهميتها كطريق عالمي للمواصلات...

ولو أن أمير المؤمنين وافق عَمرًا على رأيه، وتركه يشق قناة السويس، ويصل بحيرة التمساح ببحر الروم لكان من ذلك طريقًا عالميًا آخر ولنعم العالم بطريقين عظيمين مائيين، يصلان البحر الأبيض بالبحر الأحمر... الأول خليج أمير المؤمنين، والثاني قناة السويس.

عقلية فعالة متطورة؟!

كان حكم عمرو لمصر رحمة للمصريين، نعموا فيه بعدالة الإسلام، ورحمة الإيمان.

أخذ بنصيحة بنيامين في أمر ضريبة الخراج وتحصيلها، وكان يذهب إلى أبعد من ذلك في تخفيف وطأته، فقد كان هذا الخراج يزيد وينقص تبعًا لحالة الفيضان ومحصول الزراعة، وكان أعيان كل قرية وبلد يجتمعون كل عام في لجنة تحدد مقدار ما يحصل منها حسب هذه الأحوال.

فإذا زاد المال الذي يحصل من بلد على الخراج المفروض عليها، أنفق الزائد في إصلاح أحوالها.

ولقد جعلت في كل بلد قطعة أرض خصص ريعها للمنافع العامة كإصلاح الكنائس والحمامات والطرق وما إليها.

وكان ما يحصل من ضريبة الخراج أقل بكثير مما كان الروم يحصلونه من الضرائب الكثيرة الفادحة التي فرضوها على المصريين فيما سوى العاصمة من أرجاء البلاد.

كما أسقط عمرو الامتيازات التي كان يتمتع بها أهل الإسكندرية، وسوى بينهم وبين سائر سكان البلاد.

ومن هنا نعلم أن عقلية عمرو عقلية متطورة فعالة، تتبلور مع الأحداث ولا تقف جامدة أمام حوادث الحياة.

وهكذا كان هؤلاء الناس دائمًا، لم يكونوا كأكثر مسلمي اليوم، غافلين عن دنياهم، جاهلين بها، وإنما كانوا حركة دائبة، وتوثبًا دائمًا نحو الأرقى فالأرقى.

وتدفقت تبعًا لسياسة عمرو العملية في مصر الأموال على الخزانة العامة، حتى بلغ ما يجبى من ضريبة الجزية وحدها ستة عشر مليونًا من الدنانير سنويًا، فضلًا عما كان يجبى من ضريبة الخراج!.

وبقي نظام الإدارة في دواوين الدولة جاريًا مجراه من قبل..

وطابت الحياة لعمرو بن العاص في مصر!!!

وطابت الحياة للمصريين جميعًا... ونعم الجميع بنعمة الحكم الصالح في ظلال الإسلام!!!

مصر شجرة خضراء؟!

وبعث عمرو يصف مصر إلى أمير المؤمنين فقال:

«إعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها عشر، يُكنفها جبل أغبر، ورملٌ أعفر.

«يخط وسطها نيل مبارك الغَدَوات، ميمون الرَّوحات، يجرى فيه الزيادة والنقصان، كجري الشمس والقمر. له أوان يدرّ حِلابه، ويكثر فيه ذبابه، تمده عيون الأرض وينابيعها. حتى إذا ما اصْلخمّ عجاجه، وتعظمت أمواجه، فاض على جانبيه، فلم يمكن الخلص من بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب وخفاف القوارب، وزوارق كأنهن في المخايل، ورق الأصائل.

«فإذا ما تكامل في زيادته، نكص على عقبيه كأول ما بدأ في جريْته، وطما في دِرته.

«فعند ذلك يخرج أهل ملة محقورة، وذمة مخفورة، يحرثون بطون الأرض، ويبذرون بها الحب، يرجون بذلك النماء من الرب.

«لغيرهم ما سعوا من كدهم، فناله منهم بغير جِدّهم.

«فإذا أحدق الزرع وأشرق، سقاه الندى، وغذاه من تحته الثرى.

«فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، إذا هي عنبرة سوداء، فإذا هي زُمُرُّدة خضراء، فإذا هي ديباجة رقشاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء، الذي يصلح هذه البلاد ويُنَمِّيها، ويقر قاطنيها فيها، ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها، وألا يُستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها.

«وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها.

«فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال، والله تعالى يوفق في المبدأ والمآل».

يقول المؤرخون: فلما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب وقرأه قال: «لله درُّك يابن العاص! لقد وصفت لي خبرًا كأنني أشاهده».

الإصلاح أولًا؟!

كان عمرو ينفق من خراج مصر ومن الجزية ما يحتاج إلى إنفاقه في حفر ترعها، وإقامة جسورها، وبناء قناطرها، وقطع جزائرها... ثم يبعث ما يبقى بعد ذلك إلى أمير المؤمنين.

وقد احتاج تعمير البلاد أول الأمر نفقات باهظة... كما أعفى عمرو القرى التي أصابها الخراب من دفع الضريبتين.

وكان أمير المؤمنين في حاجة إلى المال لتنفيذ سياسته في شبه الجزيرة، فألح على عمرو ليبعث إليه الخراج كاملًا.

إلا أن عَمرًا أصر على سياسته، حتى ضاق عُمر بذلك... وكتب إلى عمرو كتابًا يقول فيه: «... لقد أكثرت في مكاتبتك في الذي على أرضك من الخراج، وظننت أنه سيأتينا على غير نزر، ورجوت أن تفيق فترفع إليَّ ذلك، فإذا أنت تأتيني بمعاريض تبعث بها لا توافق الذي في نفسي.

«ولست قابلًا منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك.

«ولست أدري مع ذلك ما الذي نفرك من كتابي وقبّضك؟!

«فلئن كنت مُجزئًا كافيًا صحيحًا إن البراءة لنافعة. وإن كنت مضيّعًا نَطفًا إن الأمر لعلى غير ما تحدّث به نفسك.

«وقد تركت أن أبتغي ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فترفع إليّ ذلك.

«وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا عُمالك عمال السوء، وما تُوالَس عليه وتُلَفَّف.

«اتخذوك كهفًا، وعندي بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك عنه.

«فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتُعْطاه. فإن النَّهر يُخرج الدَّرَّ. والحق أبلج، ودعني وما عنه تلجلج، فإنه قد برح الخفاء. والسلام».

إلا أن عَمرًا دفع عن نفسه في لغة شديدة فبعث إلى أمير المؤمنين كتابًا يقول فيه: «... أكثرت في كتابك وأنّبت وعرّضت وثربت. وعلمت أن ذلك عن شيء تُخفيه على غير خبير، فجئت لعمري بالمُفظعات المُقذعات... وقد عملنا لرسول الله (ﷺ) ومَن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأمانتنا، حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا، نرى غير ذلك قبيحًا، والعمل به شينًا، فيعرف ذلك لنا ويصدّق فيه قيلنا.

«معاذ الله من تلك الطعم، ومن شر الشّيم، والاجتراء على كل مأثم.

«فاقبض عملك فإن الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية، والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عِرْضًا، ولم تُكرم فيه أخًا.

«والله يا بن الخطاب لأَنا حين يراد ذلك مني أشد لنفسي غضبًا، ولها إنزاهًا وإكرامًا. وما عملت من عمل أرى عليّ فيه مُتَعَلَّقًا ولكني حفظت ما لم تحفظ.

«ولو كنتُ من يهود يثرب ما زدت. يغفر الله لك ولنا!.

«وسكتُّ عن أشياء كنت بها عالمًا، وكان اللسان بها مني ذلولًا، ولكن الله عظَّم من حقك ما لا يُجْهل. والسلام».

عُمر يتهم عَمرًا؟!

ورأى أمير المؤمنين أن يأخذ ابن العاص بالشدة فكتب إليه: «... فقد عجبت من

كثرة كتبي إليك في إبطائك بالخراج، وكتابك إلي بِثْنيّات الطرق.

«وقد علمت أني لست أرضى منك إلا بالحق البين. ولم أقدمك إلى مصر أجعلها طُعْمة لك ولا لقومكَ، ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك.

«فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فإنما هو فيء المسلمين. وعندي من قد تعلم قوم محصورون والسلام».

فأجابه عمرو: «فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يستبطئني في الخراج، ويزعم أني أحيد عن الحق، وأنكب عن الطريق.

«وإني والله ما أرغب عن صالح ما تعلم.

«ولكن أهل الأرض استنظروني إلى أن تدرك غلتهم، فنظرت فكان الرفق بهم خيرًا من أن يُخْرَقَ بهم، فيصيروا إلى بيع ما لا غنى لهم عنه والسلام».

أرأيت؟.. إن عَمرًا يصر على ألا يرهق الفلاحين بتحصيل الخراج قبل جني المحاصيل، ولا يريد أن يشتد عليهم في ذلك حتى يضطروا إلى بيع ما يَحتاجون إليه من ماشية وخلافها مما لا غنى عنه!.

إن عَمْرًا كان ينظر بعين الواقع الذي يعيش فيه، وعين الرحمة التي غرسها الإسلام في قلبه!.

مصادرة نصف أموال عَمْرو؟!

وكتب أمير المؤمنين إلى عمرو يقول: «إنه قد فشت لك فاشية، من متاع ورقيق وآنية وحيوان، لم يكن حين وُلّيت مصر».

وأجابه عمرو: «إن أرضنا أرض مُزْدَرَع، ومَتجر، فنحن نُصيب فضلًا عما نحتاج إليه لنفقتنا».

وعلى الفور قرر عُمر أن يفاجئ عَمرًا بالتفتيش عليه، والتحقيق معه، ثم مصادرة نصف أمواله!.

فأرسل أمير المؤمنين إليه: «إني قد خبرت من عمال السّوْء ما كفى.

«وكتابك إليَّ كتاب مَنْ قد أقلقه الأخذ بالحق.

«وقد سُؤْت بك ظَنًّا.

«ووجهت إليك محمد بن مَسْلَمَة ليقاسمك مالك، فأطْلعْه طِلعَه، وأَخْرجْ إليه ما يُطالبك، وأعْفِه من الغِلظة عليك، فإنه بَرِحَ الخفاء».

وفاجأ ابن مسلمة عَمْرًا بمصر... ودفع إليه كتاب أمير المؤمنين...

وفتش على عَمرو، وعلى أعماله، وعلى أمواله، ثم قاسمه ماله، أي صادر نصف أمواله.

فقال له عمرو: «إن زمانًا عامَلَنا فيه ابنُ حَنْتَمةَ هذه المعاملة لزمانُ سوْء! لقد كان العاص يلبس الخز بكفَاف الديباج».

وأجابه المفتش الإداري العام، محمد بن مَسلمة: «مه! ولولا زمان ابن حنتمة هذا الذي تكرهه، ألفيت مُعتقِلًا عنزًا بفناء بيتك يسرّك غزرُها ويسوءك بَكؤها»؟!.

قال عمرو: «أنشدُك الله ألا تخبر عُمر بقولي، فإن المجالس بالأمانة».

وأجابه ابن مسلمة: «لا أذكر شيئًا مما جرى بيننا وعُمر حيٌّ».

فانظر إلى أي مدى بلغت شدة أمير المؤمنين مع ولاته؟!

لقد فاجأه بالتفتيش عليه، ثم صادر نصف أمواله!!!

ومع هذا كله كان عَمرو شديد الخوف أن يعزله عن مصر، ويبدو هذا جليًّا حين رجا ابن مسلمة ألا يذكر شيئًا من حديثه لعُمر!!!

إن عَمْرًا الذي دوخ الرومان بفلسطين ومصر، يذوب خوفًا أن تبلغ كلماته عمر ابن الخطاب!!!

أجِلْها...
على صَلعة...
عَمْرو...؟!!

كيف نفسر هذا الأمر؟!...

أربعة آلاف أضيف إليهم أربعة بعد ذلك... فتح بهم عمرو بن العاص... مصر كلها... وليبيا... والنوبة وهي المعلوم من السودان آنذاك!!!

وكان للرومان أكثر من مائة ألف... من الجنود في مصر... مضافًا إليهم القوات الرومانية التي انهزمت في فلسطين والقدس ففرَّت إلى مصر... لتقاتل قوات عمرو الزاحفة - كما كانوا يتوهمون - ومع هذا اندحروا جميعًا.وهم أعظم قوة للرومان في العالم... اندحروا خزايا ندامى خاصة قواتهم التي كانت تحمي عاصمتهم عاصمة العالم... الاسكندرية...

كانوا فيها خمسين ألفًا مدججين بأعظم الأسلحة...

ولكن فرُّوا وتبددوا... فلماذا؟!

هل لذلك من سرّ... وما هو هذا السرّ؟!!

سرّ ذلك أنَّ القوات الإسلامية كانت تملك أمضى سلاح... سلاح «العَدْل»... الذي هو أخطر أسلحة الإسلام!!

إنَّ الشعوب.. إنَّ الناس لا يعنيها كثيرًا ماذا تعتقد؟... يهوديًّا... مسيحيًّا... مسلمًا؟... كل أولئك لا يعني الناس في شيء... وإنما الذي يعنيهم... ويثير التفاتهم: هل أنت عادل أم ظالم؟...

فإن كنت عادلًا... أحبوك... ونصروك... وإن كنت ظالمًا... أبغضوك... وهزموك...

ومِن هنا أحب الناس الجيش الإسلامي لما سمعوا عن عدله... وأبغضوا

الرومان لما ذاقوا من ظلمهم...

وإليك أمثلة من عدالة الإسلام!!!

أجِلْها على صَلْعة عمرو؟!

قال أنس: كنا عند عمر بن الخطاب إذ جاء رجل من أهل مصر... فقال:

يا أمير المؤمنين، هذا مقام العائذ بك!

قال: وما لك؟

قال: أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل، فأقبلت فرسي، فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو، فقال: فرسي وربِّ الكعبة.

فلما دنا مني عرفته فقلت: فرسي ورب الكعبة.

فقام إليّ يضربني بالسوط، ويقول: خذها وأنا ابن الأكرمين.

وبلغ ذلك عمرًا أباه فخشي أن آتيك فحبسني في السجن فانفلتّ منه، وهذا حين أتيتك.

فوالله ما زاد عمر على أن قال له: اجلس.

ثم كتب إلى عمرو:

إذا جاءك كتابي هذا فأقبل، وأقبل معك بابنك محمد.

وقال للمصري: أقم حتى يأتيك.

فدعا عمرو ابنه، فقال: أأحدثت حدثًا؟ أجنيت جناية؟

قال: لا. قال: فما بال عمر يكتب فيك؟

فقدم على عمر.

قال أنس: فوالله إنا عند عمر، حتى إذا نحن بعمرو وقد أقبل في إزار ورداء، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه، فإذا هو خلف أبيه.

فقال: أين المصري؟

قال: هاأنذا

قال: دونك الدِّرة فاضرب بها الأكرمين.

فضربه حتى أثخنه ونحن نشتهي أن يضربه، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين.

ثم قال: أجِلْها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه.

قال: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت.

وقال: يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربني.

قال: أما والله لو ضربته ما حُلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه.

أيا عمروا! متى تعبَّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟

فجعل يعتذر ويقول: إني لم أشعر بهذا.

ثم التفت عمر إلى المصري فقال: انصرف راشدًا فإن رابك ريب فاكتب إليّ.

عَمْرو يجلس بين يدي الشاكي... ليضربه سبعين سوطًا؟!

قال عمرو بن العاص لرجل من تُجيب: يا منافق.

فقال: ما نافقت منذ أسلمت ولا أغسل رأسًا ولا أدهنه حتى آتي عمر.

فأتى عمرَ فقال: يا أمير المؤمنين، إن عمرًا نفّقني ولا والله ما نافقت منذ أسلمت.

فكتب عمر إلى عمرو، وكان إذا غضب عليه سماه العاصي ابن العاصي:

... أما بعد فإن فلانًا التُّجيبي ذكر أنك نفّقته، وقد أمرته إن أقام عليك شاهدَين أن يضربك أربعين أو قال سبعين.

فقام فقال: انشد الله رجلًا سمع عمرًا نفّقني إلا قام فشهد.

فقام عامة من في المسجد، فقال له حنتمة: أتريد أن تضرب الأمير؟ وعرض عليه الأرْش.

فقال: لو ملأت لي هذه الكنيسة ما قبلت.

فقال له حنتمة: أتريد أن تضربه؟

قال: ما أرى لعمر ها هنا طاعة. فلما ولى قال عمرو: ردّوه. فأمكنه من السوط وجلس بين يديه،

فقال: أتقدر أن تمتنع عني بسلطانك؟

قال: لا، فامض لما أمرت به.

قال: فإني عفوت عنك.

عُمَر ينكل بالأمير عياض بن غنم؟!

كان عمر بن الخطاب جالسًا مع أصحابه، فمر به رجل، فقال له: ويل لك يا عمر من النار.

فقال رجل: يا أمير المؤمنين! ألا ضربته؟

فقال له رجل: ألا سألته؟

فقال عمر: عليّ بالرجل.

فقال: لم؟

قال: تستعمل العامل وتشترط عليه شروطًا، ولا تنظر في شروطه.

قال: وما ذاك؟

قال: عاملك على مصر، اشترطت عليه شروطًا، فترك ما أمرته به وانتهك ما نهيته عنه.

فأرسل اليه رجلين، فقال: سلا عنه، فإن كان كذب عليه فأعلماني، وإن كان صدق فلا تملكاه من أمره شيئًا حتى تأتياني به.

فسألا عنه فوجداه قد صدق عليه، فاستأذنا ببابه.

فقال: إنه ليس عليه إذن.

فقال: ليخرجن إلينا أو لنحرقن بابه. وجاء أحدهما بشعلة من نار فلما رأى ذلك آذنه (أخبره) فخرج إليهما.

فقالا: إنا رسولا عمر لتأتيه.

قال: إن لي حاجة بتزوّد.

قالا: ما أنت بالذي تأتي أهلك. فاحتملاه فأتيا به عمر، فسلم عليه.

فقال: من أنت ويلك؟ قال: عاملك على مصر عياض بن غنم.

وكان رجلًا بدويًا، فلما رأى من ريف مصر ابيضّ وسمن.

فقال: استعملتك وشرطت عليك شروطًا فتركت ما أمرتك به، وانتهكت ما نهيتك عنه، أما والله لأعاقبنك عقوبة أبلغ إليك فيها، ائتوني بدُرّاعة من كساء وعصا وثلاثمائة شاة من شاء الصدقة.

قال: البس هذه الدُّرّاعة، وقد رأيت أباك وهذه خير من دُرَّاعته، وهذه خير من عصاه، اذهب بهذه الشاء فارعها في مكان كذا وكذا، (وذلك في يوم صائف) ولا تمنع السائل من ألبانها شيئًا، واعلم أنا آلَ عمر لم نصب من شاء الصدقة ومن ألبانها ولحومها شيئًا.

فلما أمعن ردّه وقال: أفهمت ما قلت لك؟ وردّد عليه الكلام ثلاثًا، فلما كان في الثالثة ضرب بنفسه الأرض بين يديه، وقال: ما أستطيع ذلك فإن شئت فاضرب عنقي. قال:

- فإن رددتك فأيّ رجل تكون؟

قال: لا ترى إلا ما تحب!

فردّه فكان خير عامل.

هذه نماذج قليلة من عدالة الإسلام في الحكْم... وهي التي حبّبَت إلى الناس الإسلام... فجعلوا يدخلون في دين الله أفواجًا!!!

فإن عجبت لهذه الأمثلة... فإليك ما هو أعجب؟!!

أمير المؤمنين عُمَر يقول...
لعَمْرو حاكم مصر...
«فإذا جلستَ... فكُن...
كسائر الناس... ولا تتكئ»...؟!!

كمْ يضحكني طويلًا... أولئك الذين ما زالوا يبحثون ويتداولون: هل تصلح مصر أن تُحكم بشريعة الإسلام؟!!

وتراهم يؤلفون اللجان... ثم اللجان... لبحث هذا الموضوع!!!

وهؤلاء لو علموا أن الإسلام حَكَم مصر منذ فتحها عمرو بن العاص سنة عشرين هجرية... أي منذ ألف وثلاثمائة وتسعين عامًا تقريبًا...

حكمها عمرو بالإسلام آنذاك في بساطة... فلم يؤلف لجانًا... وإنما طبَّق فيها حُكم الإسلام فوْرًا بمجرد أن أتمَّ فتحها...

وارتضى أهل البلاد جميعًا حُكْم الإسلام...

لماذا؟!... لأنهم حُكمُوا بالعدل... ورأوا شيئًا جديدًا عليهم وعلى الدنيا كلها...

مساواة تامة بين الحاكم والمحكوم... وقد رأينا كيف اقتص عُمَر من ابن عمرو على مشهد من الجميع!!!

وعدالة تامة بين الجميع... فلا فَرْق بين مسكين وعظيم...

وإليك نماذج أخرى... مما كان بين أمير المؤمنين عُمر... وعَمْرو بن العاص... حاكم مصر!!!

أَمْرٌ إلى عَمْرو: لا تتَّكئ؟!

كتب عَمْرو يشكو إلى عُمر ما يلقى من أهل مصر فوقّع عمر في قصته:

كن لرعيتك كما تحبّ أن يكون لك أميرك. ووقع إليّ عنك أنك تتكئ في مجلسك، فإذا جلست فكن كسائر الناس ولا تتكئ.

فكتب إليه عمرو: أفعلُ إن شاء الله.

لا تجزع أن يُؤخذ منك الحق؟!

ولما استبطأ عمر الخراج من قِبَل عمرو كتب إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص: سلام الله عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد، فإني فكرت في أمرك والذي أنت عليه، فإذا أرضك أرضٌ واسعةٌ عريضةٌ رفيعة، وقد أعطى الله أهلها عددًا وجلدًا وقوةً في برٍّ وبحر، وإنها قد عالجتها الفراعنةُ وعملوا فيها عملًا محكمًا، مع شدّة عتوّهم وكفرهم، فعجبت من ذلك، وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جَدْب، ولقد أكثرت في مكاتبتك في الذي على أرضك من الخراج، وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نَزْر، ورجوت أن تُفيق فترفع إليَّ ذلك، فإذا أنت تأتيني بمعاريضَ تعبأ بها لا توافق الذي في نفسي. لست قابلًا منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك، ولست أدري مع ذلك ما الذي نفّرك من كتابي وقبضك، فلئن كنت مجرّبًا كافيًا صحيحًا إن البراءة لنافعة؛ وإن كنت مضيعًا نطعًا إن الأمر لعلى غير ما تحدّث به نفسك، وقد تركت أن أبتلي ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تُفيق فترفع إليَّ ذلك، وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن عمالك عمال السوء، وما تُوالس عليك وتلفّف اتخذوك كهفًا، وعندي بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه، فلا تجزع أبا عبدالله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه، فإن النهر يخرج الدُّرّ، والحق أبلج، ودعني وما عنه تلجلج، فإنه قد بَرِح الخفاء، والسلام.

لم أقدمك مصر أجعلها لك طعمة؟!

وكتب إليه في ذلك أيضًا:

من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإني قد عجبت من كثرة كتبي إليك في إبطائك بالخراج وكتابك إليّ بثنيات الطرق، وقد علمت أني لست أرضى منك إلا الحق البيّن، ولم أقدمك مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك، ولكني وجّهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك، فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فإنما هو فَيء المسلمين، وعندي ما قد تعلم قومٌ محصورون، والسلام.

وخُذ لنفسك مائتي دينار؟!

وكتب إليه:

أما بعد فإني فرضت لمن قِبَلي في الديوان، (أي فرض العطاء) ولمن ورد علينا في المدينة من أهل المدينة وغيرهم ممن توجه إليك وإلى البلدان، فانظر من فرضتُ له ونزل بك فاردد عليه العطاء وعلى ذريته، ومن نزل بك ممن لم أفرض له فافرض له على نحوٍ مما رأيتني فرضت لأشباهه، **وخذ لنفسك مائتي دينار**، فهذه فرائض أهل بدر من المهاجرين والأنصار، ولم أبلغ بهذا أحدًا من نظرائك غيرك، لأنك من عمال المسلمين، فألحقتك بأرفع ذلك، وقد علمت أن مُؤَنًا تلزمك فوفر الخراج وخذه من حقه ثم عف عنه بعد جمعه، فإذا حصل إليك وجمعته أخرجت عطاء المسلمين وما يحتاج إليه مما لا بدّ منه، ثم انظر فيما فضل بعد ذلك فاحمله إليّ، واعلم أن ما قِبَلك من أرض مصر ليس فيها خمس وإنما هي أرض صلح، وما فيها للمسلمين فيء: تبدأ بمن أغنى عنهم في ثغورهم وأجزأ عنهم في أعمالهم، ثم أفض ما فضل بعد ذلك على من سمى الله (أي في القرآن).

استوصوا بالقبط خيرًا... فإنّ لهم ذمّةً ورَحِمًا؟!

واعلم يا عمرو أن الله يراك ويرى عملك، فإنه قال تبارك وتعالى في كتابه: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمتَّقِينَ إِمَامًا﴾ يريد أن يقتدى به، وإنّ معك أهل ذمة وعهد، وقد أوصى رسول الله (ﷺ) بهم وأوصى بالقبط فقال: استوصوا بالقبط خيرًا فإن لهم ذمّةً ورحِمًا، ورحمهم أنَّ أم إسماعيل منهم، وقد قال (ﷺ): من ظلم معاهدًا أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة، احذر يا عمرو أن يكون رسول الله لك خصمًا، فإنه من خاصمه خصمه، والله يا عمرو لقد ابتُلِيتُ بولاية الأمة، وآنست من نفسي ضعفًا وانتشرت رعيتي، ورقّ عظمي، فأسأل الله أن يقبضني إليه غير مفرّط، والله إني لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعًا أن أسأل عنه.

من أين لك هذا؟!

وكتب إليه:

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص سلامٌ عليك، أما بعد فقد بلغني أنه فشت لك فاشيةٌ من خيلٍ وإبلٍ وبقرٍ وعبيد، وعهدي بك قبل ذلك ولا مالَ لك، فاكتب إليَّ من أين أصلُ هذا المال.

فأجابه بقوله: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبدالله عمر أمير المؤمنين سلامٌ عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنه أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه فاشيةَ مال فشا لي، وأنه يعرفني قبل ذلك ولا مال لي، وإني أعلم أمير المؤمنين أني ببلدٍ السعرُ فيه رخيص، وأني أعالج من الزراعة ما يعالجه الناس، وفي رزق أمير المؤمنين سعة، والله لو رأيت خيانتك حلالًا ما خنتك، فأقصر أيها الرجل، فإن لنا أحسابًا هي خيرٌ من العمل لك، إن رجعنا إليها عشنا بها، ولعمري إن عندك من لا يذم معيشة ولا تذم له، وإن كان ذلك لم يفتح لك قفلًا ولم يشركك في عمل.

عُمَر يصادر نصف أموال عَمْرو؟!

فكتب إليه ثانيًا:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فإني والله ما أنا من أساطيرك التي تُسطر ونسقك الكلام في غير مرجع، لا يغني عنك أن تزكي نفسك، وقد بعثت إليك محمد بن مسلمة فشاطره مالك، فإنكم أيها الرهط الأمراء جلستم على عيون المال لم يزعكم عذر، تجمعون لأبنائكم، وتمهدون لأنفسكم.

أما إنكم تجمعون العار... وتورثون النار... والسلام.

هذه نماذج قليلة من عدالة الإسلام... حين حَكم الإسلام مصر... ولكن القوم حتى الآن ما زالوا يبحثون: هل يمكن أن يُطَبّق حُكم الإسلام في مصر؟!!

وشرّ البلية ما يُضحك!!!

عَمرو يقول:
«ما رأيتُ أحدًا...
بعد نبيّ الله (ﷺ)...
وأبي بكر رضي الله عنه...
أخوف لله من عُمر»...؟!

أروع مثال للعدالة؟!

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال يومًا - وقد ذكر عمر فترحم عليه-:

ما رأيت أحدًا بعد نبي الله (ﷺ) وأبي بكر رضي الله عنه أخوف لله من عمر، لا يبالي على من وقع الحق، على ولد أو والد.

(ثم قال): والله إني لفي منزلي في مصر، إذ أتاني آتٍ، فقال: هذا عبدالرحمن بن عمر وأبو سَرْوَعة، يستأذنان عليك، فقلت: يدخلان. فدخلا وهما منكسران، فقالا: أقم علينا حدّ الله، فإنا قد أصبنا البارحة شرابًا فسكرنا. فزبرتهما وطردتهما. فقال عبدالرحمن: إن لم تفعله أخبرت أبي إذا قدمت عليه.

فعلمت أني إن لم أقم عليهما الحدّ غضب عليّ عمر وعزلني، فأخرجتهما إلى صحن الدار فضربتهما الحدّ، ودخل عبد الرحمن بن عمر إلى ناحية في الدار فحلق رأسه، وكانوا يحلقون مع الحدود. ووالله ما كتبت لعمر بحرف مما كان حتى جاءني كتابه، فإذا فيه:

إلى العاصي... ابن العاصي؟!

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبدالله عمر إلى العاصي ابن العاصي، عجبت لك

يابن العاص وجرأتك عليّ وخلافك عهدي، فما أراني إلا عازلك. تضرب عبدالرحمن في بيتك وتحلق رأسه في بيتك، وقد عرفت أن هذا يخالفني؟ إنما عبدالرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين، ولكن قلت: هو ولد أمير المؤمنين. وقد عرفت أن لا هوادة لأحد من الناس عندي في حقّ يجب لله عليه. فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءة على قَتَب حتى يعرف سوء ما صنع.

فبعثت به كما قال أبوه، وكتبت إلى عمر كتابًا أعتذر فيه أني ضربته في صحن داري، وبالله الذي لا يُحلف بأعظم منه إني لأقيم الحدود في صحن داري على الذميّ والمسلم.

وبعثت بالكتاب مع عبدالله بن عمر. فقدم بعبد الرحمن على أبيه، فدخل وعليه عباءة ولا يستطيع المشي من سوء مركبه، فقال:

يا عبد الرحمن فعلت وفعلت؟ فكلمه عبد الرحمن بن عوف، وقال: يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحدّ. فلم يلتفت إليه، فجعل عبدالرحمن يصيح: إني مريض وأنت قاتلي! فضربه ثانية، وحبسه فمرض ثم مات رحمه الله[1].

(١) قال ابن الجوزي: لما ضربه وأرسله لبث شهرًا صحيحًا، ثم أصابه قدره، فتحسب عامة الناس أنه مات من جلد عمر، ولم يمت من جلده. ثم إنه لا ينبغي أن يظن بعبد الرحمن بن عمر أنه شرب الخمر، وإنما شرب النبيذ متأولًا يظن أن الشرب منه لا يسكر، وكذلك أبو سروعة، وهو من أهل بدر، فلما خرج بهما الأمر إلى السكر طلبا التطهير بالحد، وقد كان يكفيهما مجرد الندم على التفريط، غير أنهما غضبا لله سبحانه وتعالى على أنفسهما المفرطة. فأسلماها إلى إقامة الحد. وأما كون عمر ضربه مرة ثانية، فليس ذلك حدًا، وإنما ضربه غضبًا وتأديبًا، وإلا فالحد لا يكرر وقد أخذ هذا الحديث قوم من القصاص فأبدأوا فيه وأعادوا، فتارة يجعلونه مضروبًا على شرب الخمر، وتارة على الزنا. ويذكرون كلامًا ملفقًا يبكي العوام لا يجوز أن يصدر عن مثل عمر رضي الله عنه.

عَمْرو...

وخرافة...

عروس النيل...

في مصر...؟!

وقال ابن عبد الحكَم: لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إليه حين دخل بؤنة (من أشهُر العجم) فقالوا له: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنّةً لا يجري إلّا بها، فقال لهم: وما ذاك؟ قالوا: إنه إذا كان لثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عَمَدنا إلى جاريةٍ بكرٍ من عند أبويها، فأرضينا أبويها وأخذناها، وجعلنا عليها من الحليّ والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في النيل فيجري. فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله، فأقاموا بؤنة وأبيب ومسري وهو لا يجري قليلًا ولا كثيرًا حتى همُّوا بالجلاء. فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه عمر أن قد أصبت، إن الإسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها في داخل النيل إذا أتاك كتابي. فلما قدم الكتاب إلى عمرو، فتح البطاقة فإذا فيها: من عبدالله أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد، فإن كنت تجري من قِبلك فلا تجْرِ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهّار أن يجريَك! فعرّفهم عمرو بكتاب أمير المؤمنين وبالبطاقة، ثم ألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم.

وقد تهيأ أهل مصر للجَلاء والخروج منها..

لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل... فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه

الله تعالى ستة عشر ذراعًا في ليلة واحدة!!!
وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر[1].

(١) خطط المقريزي... والنجوم الزاهرة... وتاريخ الخلفاء... وقال مؤلفو «أخبار عمر»: وقد عزمنا على طي هذا الخبر فيما طويناه مما لم يصح من أخبار عمر... ثم نشرناه لشهرته لا لصحته.

عَمْرو...
في خلافة...
عثمان...؟!

قالوا: ثم سَيَّره عُمر في جيش إلى مصر فافتتحها...
ولم يزل واليًا عليها إلى أن مات عُمر...
فأمَّره عليها عثمان أربع سنين... أو نحوها...
ثم عزله عنها... واستعمل عبدالله بن سعد بن أبي السرح!!!
ماذا كان من عَمرو... وماذا كانت أخباره في خلافة أمير المؤمنين عثمان؟!
افتتح عثمان خلافته في ٣ محرم سنة ٢٤ هجرية...
وأقرّ عثمان عمال عمر جميعهم... سنة... لأن عمر أوصى بذلك...
وكان منهم عمرو بن العاص... أميرًا على مصر...

ثورة في الاسكندرية؟!

وفي سنة خمس وعشرين هجرية... خالف أهل الاسكندرية... ونقضوا صلحهم..

وكان سبب ذلك أن الروم عظم عليهم فتح المسلمين الاسكندرية..
وظنوا أنهم لا يمكنهم المقام ببلادهم... بعد خروج الاسكندرية عن ملكهم.
فكاتبوا من كان فيها من الروم، ودعوهم إلى نقض الصلح.
فأجابوهم إلى ذلك.

فسار إليهم من القسطنطينية جيش كبير.. وعلى رأس الجيش «مانويل» الخصي...
فأرسوا بها.. واتفق معهم من بها من الروم.. ولم يوافقهم المقوقس.. بل ثبت على صلحه.. فلما بلغ الخبر.. إلى عمرو بن العاص.. سار إليهم.

وسار الروم إليه.

فالتقوا.. واقتتلوا قتالًا شديدًا..

فانهزم الروم.. وتبعهم المسلمون.. إلى أن أدخلوهم الاسكندرية..

وقتلوا منهم في البلد مقتلة عظيمة بينهم «مانويل» الخصي..

وكان الروم لما خرجوا من الاسكندرية، قد أخذوا أموال أهل تلك القرى، من وافقهم، ومن خالفهم.

فلما ظفر بهم المسلمون.. جاء أهل القرى الذين خالفوهم فقالوا لعمرو بن العاص: إن الروم أخذوا دوابنا وأموالنا، ولم نخالف نحن عليكم، وكنا على الطاعة!

فرد عليهم ما عرفوا من أموالهم، بعد إقامة البينة.

وهدم عمرو.. سور الاسكندرية.. وتركها بغير سور.

وكان عمرو بن العاص في أثناء الواقعة، حلف لئن أظهره الله عليهم ليهدمن سورها، حتى تكون مثل بيت الزانية تؤتى من كل مكان.

فلما نصره الله عليهم.. وانهزموا.. هدمه!!!

الغزوات... تتابع؟!

وفي نفس العام.. عام خمس وعشرين.. غزا معاوية الروم.. فبلغ عمورية فوجد الحصون التي بين أنطاكية وطرطوس خالية.. فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة.. حتى انصرف من غزاته.

ثم أغزى بعد ذلك.. يزيد بن الحر العبسي الصائفة.. وأمره ففعل مثل ذلك.. ولما خرج هدم الحصون إلى أنطاكية.

هذا نشاط معاوية.. أمير الشام في عهد عثمان.

فما هو نشاط عمرو بن العاص.. أمير مصر.. في عهد عثمان.. في نفس العام.

غزوة إفريقيا؟!

في هذه السنة سيَّر عمرو بن العاص، عبدالله بن سعد بن أبي سرح.. إلى

أطراف إفريقيا غازيًا.

بأمر عثمان!.

وكان عبدالله من جند مصر، فلما سار إليها أمده عمرو بالجنود، فغنم هو وجنده.

فلما عاد عبدالله كتب إلى عثمان يستأذنه في غزو إفريقيا فأذن له في ذلك.

عثمان يعزل عَمْرًا من جميع مناصبه؟!

نحن في سنة سبع وعشرين...

في هذه السنة عزل عمرو بن العاص عن خراج مصر.

واستعمل عليه عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح.. وكان أخا عثمان من الرضاعة.. فتباغيا.

فكتب عبدالله إلى عثمان يقول: إن عَمرًا كسر عليّ الخراج.

وكتب عمرو يقول: إن عبد الله قد كسر عليّ مكيدة الحرب.

فعزل عثمان عمرًا.. واستقدمه!!!

واستعمل بدله عبد الله.. على حرب مصر وخراجها.

فقدم عمرو مغضبًا.

فدخل على عثمان، وعليه جُبّة محشوة قطنًا.

فقال له: ما حشو جُبّتك؟

قال عمرو: عمرو!

قال: قد علمت، ولم أرد هذا، إنما سألت أقطن هو أم غيره؟

هذا هو عثمان.. خبير بألاعيب الولاة.. ويضاحك عَمرًا مضاحكة لها مغزاها السياسي العميق!.

عثمان... يعقد مؤتمرًا عسكريًا؟!

«ثم إن عبدالله بن سعد، لما ولي أرسل إلى عثمان في غزو إفريقية.

«والاستكثار من الجموع عليها، وفتحها.

«فاستشار عثمان من عنده من الصحابة، فأشار أكثرهم بذلك.
«فجهز إليه العساكر من المدينة، وفيهم جماعة من أعيان الصحابة، منهم عبدالله بن عباس وغيره».
فسار بهم عبد الله بن سعد إلى إفريقية.
فلما وصلوا إلى برقة.. لقيهم عقبة بن نافع.. فيمن معه من المسلمين.. وكانوا بها.
وساروا إلى طرابلس الغرب، فنهبوا من عندها من الروم.
وسار نحو إفريقية.. وبث السرايا في كل ناحية.
وكان ملكهم اسمه جرجير.. ومُلْكه من طرابلس إلى طنجة.
أي من ليبيا إلى تونس إلى الجزائر إلى طنجة في آخر المغرب حاليًا.
أي أربعة أقطار واسعة شاسعة.
فلننظر كيف استولى هؤلاء على تلك المساحات الشاسعة؟!

إمبراطور الرومان يحاول الدفاع؟!

وكان هرقل.. ملك الروم.. قد ولاه إفريقية.. فهو يحمل إليه الخراج كل سنة.
فلما بلغه خبر المسلمين تجهز، وجمع العساكر، وأهل البلاد.
فبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف فارس.
والتقى هو والمسلمون بمكان بينه وبين مدينة سبيطلة.. يوم وليلة.. وهذه المدينة كانت ذلك الوقت دار الملك.
فأقاموا هناك يقتتلون كل يوم.
وراسله عبد الله بن سعد.. يدعوه إلى الإسلام أو الجزية.. فامتنع منهما وتكبر عن قبول أحدهما.
وانقطع خبر المسلمين عن عثمان.

عثمان يرسل الإمدادات العسكرية؟!

فسير عبد الله بن الزبير.. في جماعة إليهم ليأتيه بأخبارهم.

فسار مجدًا.. ووصل إليهم.. وأقام معهم.

ولما وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين.

فسأل «جرجير» قائد عام قوات العدو.. عن الخبر.

فقيل: قد أتاهم عسكر.

ففت ذلك في عضده!.

عبدالله بن الزبير.. يضع تكتيك المعركة؟!

ورأى عبد الله بن الزبير، قتال المسلمين كل يوم.. من بكرة إلى الظهر.

فإذا أذن بالظهر عاد كل فريق إلى خيامه!

وشهد القتال من الغد.

فلم ير ابن أبي سرح معهم، فسأل عنه فقيل: إنه سمع منادي جرجير يقول: من قتل عبدالله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي.. وهو يخاف!.

فحضر عنده، وقال له: تأمر مناديًا ينادي: من أتاني برأس جرجير نفلته مائة ألف، وزوجته ابنته، واستعملته على بلاده.

ففعل ذلك.

فصار جرجير يخاف أشد الخوف من عبد الله!.

ثم إن عبد الله بن الزبير، قال لعبد الله بن سعد: إن أمرنا يطول مع هؤلاء، وهم في أمداد متصلة، وبلاد هي لهم، ونحن منقطعون عن المسلمين، وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غدًا جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم، متأهبين.

«ونقاتل نحن الروم، في باقي العسكر، إلى أن يضجروا، ويملوا.

«فإذا رجعوا إلى خيامهم، ورجع المسلمون.

«ركب من كان في الخيام من المسلمين، ولم يشهدوا القتال، وهم مستريحون.

«ونقصدهم على غرة.
«فلعل الله ينصرنا عليهم.
«فأحضر جماعة من أعيان الصحابة، واستشارهم.
«فوافقوه على ذلك.
«فلما كان الغد، فعل عبدالله ما اتفقوا عليه.
«وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم، وخيولهم عندهم مسرجة.
«ومضى الباقون.
«فقاتلوا الروم، إلى الظهر، قتالًا شديدًا.
«فلما أذن بالظهر، هم الروم بالانصراف، على العادة.
«فلم يمكنهم ابن الزبير.
«وألح عليهم بالقتال، حتى أتعبهم.
ثم عاد عنهم هو والمسلمون.
«فكل من الطائفتين ألقى سلاحه، ووقع تعبًا.
«فعند ذلك، أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحًا، من شجعان المسلمين وقصد الروم.
«فلم يشعروا بهم، حتى خالطوهم.
«وحملوا حملة رجل واحد.
«وكبروا.
«فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم.
«حتى غشيهم المسلمون!.
«وقتل جرجير.. قتله ابن الزبير.
«وانهزم الروم.
«وقتل منهم مقتلة عظيمة.
«وأخذت ابنة الملك جرجير سبية».
هذا هو التكتيك الرائع الذي وضعه عبد الله بن الزبير.

لقد خادعهم.. فلما اطمأنوا فاجأهم.. فانهزموا.

وسقط ١٢٠٠٠٠ من الروم، وعلى رأسهم الملك جرجير.. ما بين قتيل وشريدا.

نموذج من تدفق الذهب؟!

ونازل عبد الله بن سعد المدينة.. فحصرها.. حتى فتحها.

ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها.

فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار، وسهم الراجل ألف دينار.

ولما فتح عبد الله مدينة سبيطلة، بث جيوشه في البلاد، فبلغت قفصة، فسبوا، وغنموا.

وسيَّر عسكرًا إلى حصن الأجم.

وقد احتمى به أهل تلك البلاد، فحصره، وفتحه بالأمان.

فصالحه أهل إفريقية على ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار.

ونفل عبد الله بن الزبير ابنة الملك.

وأرسله إلى عثمان.. بالبشارة بفتح إفريقية.

ثم إن عبد الله بن سعد عاد من إفريقية.. إلى مصر.

وكان مقامه بإفريقية سنة وثلاثة أشهر!

هذا أنموذج من الايرادات.. التي تتدفق على الدولة من كل مكان.. نتيجة حتمية لتتابع الغزوات.. وانتصار المسلمين نصرًا متواصلًا.

الفارس.. ثلاثة آلاف دينار.

الراجل.. ألف دينار..

هذا شيء من مغانم الجيوش.. عدا السبي والرقيق.

أما نصيب الخزانة العامة فكان ٢,٥٠٠,٠٠٠ دينار.

مليونان وخمسمائة ألف دينار.. إيراد سنوي.. يؤديه الشمال الأفريقي.. إلى الخزانة الإسلامية العامة.

لقد كانت الدولة تموج بالأموال.. الآتية إليها من الخارج.. فضلًا عن الأموال التي تموج فيها من الداخل.

لقد تركها عمر.. تموج بكنوز الإمبراطورية الفارسية.. وكنوز الإمبراطورية الرومانية.

وها هو خلفه العظيم.. يواصل الإجهاز.. على ما تبقى من إمبراطورية الرومان.. والاستيلاء على بقايا كنوزها العظيمة!.

وعلى هذا كان عبد الله بن سعد.. رئيسًا لجمهوريات.. مصر.. ليبيا.. تونس.. الجزائر.. المغرب.

هذا رجل من رجالات عثمان.. رجل واحد.. يبلغ ملكه من مصر إلى المحيط الأطلنطي.

فكيف بباقي رجالاته.. وامتداد سلطانهم؟!

وعثمان.. رابض في المدينة.. العاصمة المركزية.. للدولة العظمى.. يدبر ويفكر.. ويواصل الجهاد.

المليونير مروان بن الحكم؟!

وحمل خمس غنائم غزوة إفريقية إلى المدينة.

فاشتراه مروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار.

فوضعها عنه عثمان!.

وكان هذا مما أخذ عليه.

وهذا أحسن ما قيل في خمس إفريقية.

فإن بعض الناس يقول: أعطى عثمان خمس إفريقية عبد الله بن سعد.

وبعضهم يقول: أعطاه مروان بن الحكم.

وظهر بهذا أنه أعطى عبد الله خمس الغزوة الأولى.

وأعطى مروان خمس الغزوة الثانية، التي افتتحت فيها جميع إفريقية.

عثمان يأمر بفتح الأندلس؟!

لما افتتحت إفريقية.

أمر عثمان عبد الله بن نافع بن الحصين.. وعبد الله بن نافع بن عبد القيس أن يسيرا إلى الأندلس.

فأتياها من قبل البحر.

وكتب عثمان إلى من انتدب معهما:

«أما بعد، فإن القسطنطينية إنما تفتح من قبل الأندلس.

«وإنكم إن افتتحتموها، كنتم شركاء من يفتحها في الأجر».

فخرجوا.. ومعهم البربر.

فأتوها من برها وبحرها.

ففتح الله على المسلمين.

عثمان يغمز عَمْرًا؟!

ولما عزل عثمان.. عبد الله بن سعد عن إفريقية.. ترك في عمله عبدالله بن نافع ابن عبد القيس.. فكان عليها.

ورجع عبد الله إلى مصر.

وبعث عبد الله إلى عثمان.. مالًا.. قد حشد فيه.

فدخل عمرو.. على عثمان.

فقال له: يا عمرو.. هل تعلم أن تلك اللقاح دَرَّت بعدك؟

قال عمرو: إن فصالها قد هلكت!.

عَمْرو..
وموقفه..
في الفتنة الكبرى...؟!

فتِّش عن اليهود؟!

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين من الهجرة...

«وفيها كان من سار.. من أهل مصر.. ومسير من سار.. من أهل العراق.. إلى عثمان.

«وكان من أسباب ذلك أن عبد الله بن سبأ كان يهوديًا.. من أهل صنعاء، أمه سوداء.. وأسلم أيام عثمان.

«ثم تنقل في الحجاز، ثم بالبصرة، ثم بالكوفة، ثم بالشام.. يريد إضلال الناس، فلم يقدر منهم على ذلك.

«فأخرجه أهل الشام.

«فأتى مصر.. فأقام فيهم، وقال لهم: العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع ويكذب أن محمدًا يرجع؟!، وقد قال الله عز وجل: ﴿**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرآنَ لَرَادُّكَ إِلى مَعَادٍ**﴾.. محمد أحق بالرجوع من عيسى.

«فوضع لهم الرجعة، فقبلت منه!

«ثم قال لهم بعد ذلك: إنه كان لكل نبي وصي، وعليّ وصي محمد، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله (ﷺ)، ووثب على وصيه؟! وإن عثمان أخذها بغير حق، فانهضوا في هذا الأمر وابدأوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، تستميلوا به الناس.

«وبث دعاته، وكاتب من استفسد في الأمصار، وكاتبوه.

إذاعات؟!

«ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم.

«وصاروا يكتبون إلى الأمصار، بكتب يضعونها في عيب ولاتهم.

«ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون.

«حتى تناولوا بذلك المدينة.

«وأوسعوا بذلك الأرض إذاعة.

«فيقول أهل كل مصر: إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء، إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك من جميع الأمصار.

«فقالوا: إنا لفي عافية مما فيه الناس.

عثمان لا يدري؟!

«فأتوا عثمان فقالوا: يا أمير المؤمنين، أيأتيك عن الناس الذي يأتينا؟

«فقال: لا والله، ما جاءني إلا السلامة، وأنتم شركائي وشهود المؤمنين.. فأشيروا عليّ.

«قالوا: نشير عليك أن تبعث رجالًا ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم.

إن أقصوصة ابن السوداء هذه.. رفضها طه حسين في كتابه (الفتنة الكبرى) واستبعد أن يستطيع مثل هذا اليهودي التافه أن يلعب مثل هذا الدور الخطير.

وأنا أضم صوتي إليه.. من حيث تفاهة ابن السوداء.. وأنه أقل شأنًا من أن يستميل أحدًا من الكبراء.

إلا أنني أقطع أنه استطاع أن يلعب دورًا في الجماهير.. الحديثة عهد بالإسلام.

ولليهود دائمًا أصابع مسمومة.. تحرك في الخفاء ما لا تحركه في العلانية.

ولقد دخل الرجل بسُمِّه.. واستغل الحرية التي يمنحها الإسلام للجميع.. فأطلق لسانه بتلك الالتواءات المسمومة.

فوجد من يسمع له من الجماهير.. وصغار العقول.

ثم ضرب الرجل على الوتر الحساس.. فمن المعلوم أن الأمة كان فيها قليلون يرون أن عثمان.. قد خالف عن سيرة عمر بن الخطاب.

فاهتبلها ابن السوداء فرصة.. وألقى على النار زيتًا.. فزادها اشتعالًا.

فمن حيث أن الرجل كان أقل من أن يشعل فتنة فذلك حق.

ولكن الرجل لعب دورًا.. هو أشبه بدور اللصوص.. حين ينتهزون فرصة قيام شعب من الشعوب بمظاهرة كريمة.. فيتخذوها ستارًا للسطو والنهب.

الشعب يبكي؟!

«فدعا.. محمد بن مسلمة.. فأرسله إلى الكوفة.

«وأرسل أسامة بن زيد.. إلى البصرة.

«وأرسل عمار بن ياسر.. إلى مصر.

«وأرسل عبد الله بن عمر.. إلى الشام.

«وفرق رجالًا سواهم.

«فرجعوا جميعًا.. قبل عمار.

«فقالوا: ما أنكرنا شيئًا أيها الناس ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم.

«وتأخر عمار.. حتى ظنوا أنه قد اغتيل..

«فوصل كتاب من عبد الله بن أبي سرح.. يذكر أن عمارًا.. قد استماله قوم، وانقطعوا إليه. منهم عبدالله بن السوداء، وخالد بن ملجم، وسودان بن حمران، وكنانة بن بشر.

«فكتب عثمان إلى أهل الأمصار: أما بعد:

«فإني آخذ عمالي بموافاتي كل موسم.

«وقد رفع إليّ أهل المدينة، أن أقوامًا يشتمون ويضربون.

«فمن ادعى شيئًا من ذلك، فليواف الموسم، يأخذ حقه، حيث كان، مني، أو من عمالي.

«أو تصدقوا، فإن الله يجزي المتصدقين.

«فلما قرىء في الأمصار.. بكى الناس.. ودعوا لعثمان..»؟!

هذا موقف عظيم من مواقف عثمان الخالدة!

أنه أذاع منشورًا عامًا في أنحاء الدولة العظمى.. «أن أقوامًا.. يشتمون ويضربون.. فمن ادعى شيئًا من ذلك.. فليواف الموسم.. يأخذ حقه.. مني.. أو من عمالي»!

ماذا يطلب من عثمان أكثر من هذا؟!

من شتم من حاكم.. أو ضرب.. فليحضر موسم الحج.. حيث يكون أمير المؤمنين كل عام.. ليحج بالناس.. وحيث يوجد جميع نواب أمير المؤمنين.. يأخذ حقه كاملًا ممن شتمه، أو ضربه؟؟

غاية العدل.. كل فرد من الشعب.. سوف يقتص من أي أمير.. شتمه أو ضربه؟

ماذا كان وقْع ذلك المنشور في الجماهير؟

«فلما قرئ في الأمصار.. بكى الناس، ودعوا لعثمان»!

الجميع يبكون تأثرًا.. تأثرًا من عظمة عثمان.

والجميع تتجه قلوبهم إلى الله يدعون له بالتوفيق!

مؤتمر القمة الثاني؟!

«وبعث إلى عمال الأمصار.

«فقدموا عليه.. في الموسم.. عبدالله بن عامر.. وعبدالله بن سعد.. ومعاوية..

«وأدخل معهم في المشورة سعيد بن العاص وعَمرًا.

«فقال: ويحكم، ما هذه الشكاية، والإذاعة؟.. إني والله لخائف أن تكونا مصدوقًا عليكم.. وما يعصب هذا إلا بي؟!

«فقالوا له: ألم تبعث؟.. ألم يرجع إليك الخبر عن العوام؟.. ألم يرجع رسلك ولم يشافههم أحد بشيء؟

«والله ما صدقوا، ولا بروا، ولا نعلم لهذا الأمر أصلًا.. ولا يحل الأخذ بهذه الإذاعة؟

«فقال: أشيروا عليَّ.

«فقال سعيد: هذا أمر مصنوع، يلقى في السر، فيتحدث به الناس، ودواء ذلك طلب هؤلاء، وقتل الذين يخرج هذا من عندهم»!.

هذا رأي سعيد.. إنه يرى قتل الشائعات.. بقتل صانعيها!

«وقال عبدالله بن سعد: خذ من الناس الذي عليهم، إذا أعطيتهم الذي لهم، فإنه خير من أن تدعهم»!.

وهذا رأي آخر.. يشير بمعاقبة هؤلاء الذين يتولون تلك الإذاعة السرية.

«وقال معاوية: قد وليتني فوليت قومًا، ولا يأتيك عنهم إلا الخير والرجلان أعلم بناحيتهما.. والرأي حسن الأدب.

ماذا قال عمرو؟!

«وقال عمرو: **أرى أنك قد لنت لهم، ورخيت عليهم، وزدتهم على ما كان يصنع عمر.**

«**فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك، فتشتد في موضع الشدة، وتلين في موضع اللين**».

هذا رأي داهية السياسة.. إنه يرى أخذهم بالشدة.

فماذا كان رأي عثمان؟

«فقال عثمان: قد سمعت كل ما أشرتم به عليَّ.

ولكل أمر باب يؤتى منه.

«إن هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن.

«وإن بابه الذي يغلق عليه ليفتحن.

«فنكفكفه باللين، والمواتاة، إلا في حدود الله.

«فإن فتح فلا يكون لأحد علي حجة.

«وقد علم الله أني لم آل الناس خيرًا.

«وإن رحى الفتنة لدائرة.

«فطوبى لعثمان إن مات.. ولم يحركها.

«سكنوا الناس.. وهبوا لهم حقوقهم.

«فإذا تعوطيت حقوق الله، فلا تدهنوا فيها..»!.

هذا رأي عثمان.

إنه يفضل أن يموت.. ولا يحرك الفتنة.. ويشق الأمة بيديه.. ويكون هو الذي يشعل الثورة!

إنه يعلم ما سوف يحدث.

وعاد أمراء الأمصار.. إلى مراكز سلطتهم.

وعمرو بن العاص.. يؤلب على عثمان؟!

«وكان السبب في ذلك أن عمرو بن العاص.. حين عزله عثمان عن مصر.. ولى عليها عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح.

«وانتقل عمرو بن العاص إلى المدينة.. وفي نفسه من عثمان أمر كبير.

وجعل عمرو بن العاص يؤلب الناس على عثمان».

إن عمرو بن العاص.. أصبح عنصر إثارة في المدينة.. وما أدراك ما عمرو!

ثائرو.. مصر؟!

«وكان بمصر جماعة يبغضون عثمان.. ويتكلمون فيه بكلام قبيح.

«وينقمون عليه عزله جماعة من علية الصحابة، وتوليته من دونهم، أو من لا يصلح عندهم للولاية.

«وكره أهل مصر.. عبد الله بن سعد.. بعد عمرو بن العاص!!!

«واشتغل عبد الله بن سعد عنهم بقتال أهل المغرب، وفتحه بلاد البربر والأندلس وإفريقية.

«ونشأ بمصر طائفة من أبناء الصحابة يؤلبون الناس على حربه والإنكار عليه.

«وكان عظم ذلك مسندًا إلى محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة.

«حتى استنفروا نحوًا من ستمائة راكب، يذهبون إلى المدينة.. في صفة معتمرين.. في شهر رجب.

«لينكروا على عثمان.

«فساروا إليها تحت أربع رفاق.

«وأقبل معهم محمد بن أبي بكر.

«وأقام بمصر محمد بن أبي حذيفة يؤلب الناس، ويدافع عن هؤلاء».

هذا موكب من مواكب الثوار.. موكب يخرج من مصر.

ليواجه عثمان.. بما يأخذه عليه!

الثائرون.. على أَبواب العاصمة؟!

«وكتب عبد الله بن سعد.. إلى عثمان.. يعلمه بقدوم هؤلاء القوم إلى المدينة.. منكرين عليه.. في صفة معتمرين.

«فلما اقتربوا من المدينة.. أمر عثمان.. علي بن أبي طالب أن يخرج إليهم.. ليردهم إلى بلادهم.. قبل أن يدخلوا المدينة.

«فبعثه، وخرج معه جماعة الأشراف».

إن الثوار يقرعون أبواب العاصمة.

وها هو أمير المؤمنين.. يأمر بمنعهم من دخولها.

وها هو عمرو يرقب الأحداث!!!

عمرو بن العاص..
يلتحق..
بـمعاوية...؟!

«وفي سنة خمس وثلاثين.. بويع أمير المؤمنين... عليّ بن أبي طالب..
«وكان عمرو بن العاص.. قد سار عن المدينة... قبل أن يُقتل عثمان.. نحو فلسطين...
«وسبب ذلك أنه لما أحيط بعثمان قال:
«يا أهل المدينة... لا يقيم أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلّا ضربه الله بذلّ... من لم يستطع نصره فليهرب...
«فسار... وسار معه ابناه عبدالله... ومحمد... فسكن فلسطين...
«ثم مرّ به راكب من المدينة.. فقال له عمرو: ما الخبر؟
«فقال: بايع الناس عليًا...
«فقال عمرو: ذلك الذي نريده...
«ثم ارتحل عمرو راجلًا... معه ابناه... يبكي كما تبكي المرأة...
«وهو يقول: **واعثماناه!.. أنعي الحياء والدين!..**
«حتى قدم دمشق...
«وقيل: إن عمرًا لما بلغه قتل عثمان... قال: إن يَلي هذا الأمر طلحة فهو فتى العرب سببًا... وإن يله ابن أبي طالب فهو أكره من يليه إليّ...
«فبلغه بيعة عليّ... فاشتدّ عليه.. وأقام ينتظر ما يصنع الناس...
«فأتاه مسير عائشة وطلحة والزبير... فأقام ينتظر ما يصنعون...
«فأتاه الخبر بوقعة الجمل فأُرتج عليه أمره...
«فسمع أن معاوية بالشام لا يبايع عليًا.. وأنه يعظم شأن عثمان...
«وكان معاوية أحب إليه من عليّ...

«فدعا ابنيه... عبدالله... ومحمدًا... فاستشارهما... وقال: ما تريان؟.. أما عليّ فلا خير عنده... وهو يُدلُّ بسابقته... وهو غير مشركي في شيء من أمره...

«فقال له ابنه عبد الله: توفي النبي... (ﷺ)... وأبو بكر وعمر وهم عنك راضون... فأرى أن تكفَّ يدك... وتجلس في بيتك... حتى يجتمع الناس على إمام فتبايعه...

«وقال له ابنه محمد: أنت نابٌ من أنياب العرب... ولا أرى أن يجتمع هذا الأمر... وليس لك فيه صوت...

«فقال عمرو: أمّا أنت يا عبدالله... فأمرتني بما هو خير لي... في آخرتي وأسلم لي في ديني...

«وأمّا أنت يا محمد... فأمرتني بما هو خير لي في دنياي... وشر لي في آخرتي...

«ثم خرج ومعه ابناه... حتى قدم على معاوية...

«فوجد أهل الشام... يحضّون معاوية على الطلب بدم عثمان...

«وقال عمرو: أنتم على الحقّ... اطلبوا بدم الخليفة المظلوم...

«ومعاوية لا يلتفت إليه!..

«فقال لعمرو ابناه: ألا ترى معاوية لا يلتفت إليك؟!..

«فدخل عمرو على معاوية... فقال له: والله لعجب لك!..

«إني أرفدك بما أرفدك... وأنت معرض عني؟!....

«أما والله... إن قاتلنا معك... نطلب بدم الخليفة... إن في النفس من ذلك ما فيها...

«حيث تقاتل من تعلم سابقته... وفضله... وقرابته...

«ولكنّا إنما أردنا هذه الدنيا...

«فصالحه معاوية... وعطف عليه..»!!!

هذه أقصوصة قدوم عمرو على معاوية... وبدء التعاون بينهما...

إنّ عَمرًا كان على يقين أن عليًا... لن يستعمله...

إذًا فليذهب إلى معاوية!!!

عند معركة صِفِّين...
عَمْرو بن العاص...
يُشير على معاوية...
بقتال عَلِيّ...؟!!

رسول... إلى معاوية؟!

«لما عاد عليّ من البصرة... بعد فراغه من الجمل... قصد الكوفة...

«وأرسل إلى جرير بن عبد الله البجلي... وكان عاملًا على همذان استعمله عثمان...

«وإلى الأشعث بن قيس.. وكان على أذربيجان.. استعمله عثمان أيضًا..

«يأمرهما بأخذ البيعة... والحضور عنده...

«فلما حضرا عنده.. أراد عليّ أن يرسل رسولًا إلى معاوية...

«قال جرير: أرسلني إليه... فإنه لي ودّ...

«فقال الأشتر: لا تفعل... فإن هواه مع معاوية...

«فقال علي: دعه... حتى ننظر ما الذي يرجع إلينا به؟..

«فبعثه... وكتب معه كتابًا إلى معاوية...

«يعلمه فيه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته...

«ونكث طلحة والزبير... وحربه إياهما...

«ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته..»!

لقد أعذر أمير المؤمنين إلى معاوية...

عمرو... المستشار؟!

«فسار جرير إلى معاوية...

«فلما قدم عليه... ماطله واستنظره...

«واستشار عمرًا... **فأشار عليه أن يجمع أهل الشام... ويُلزم عليًّا دم عثمان... ويقاتله بهم...**

«ففعل معاوية ذلك...»!!!

وهذه أسوأ شورى... كانت من عمرو بن العاص!!!

ولو قد أشار عليه... أن يبايع عليًّا... لكن خيرًا له ولمعاوية وللأمة كلها...

قميص... عثمان؟!

«وكان أهل الشام... لما قدم عليهم النعمان بن بشير... بقميص عثمان الذي قُتل فيه... مخضوبًا بالدم... بأصابع زوجته نائلة... إصبعان منها وشيء من الكف.. وإصبعان مقطوعتان من أصولهما... نصف الإبهام...

«وضع معاوية القميص على المنبر... وجمعَ الأجناد إليه...

«فبكوا على القميص مدّة... وهو على المنبر... والأصابع معلقة فيه.»

منظر مثير... وتكتيك ماكر... جرّ على الأمّة شرًّا مستطيرًا!!!

وماذا على معاوية... لو بايع عليًّا... ثم تحولوا جميعًا صفًا واحدًا... للقصاص من قتلة عثمان؟!..

«وأقسم رجال من أهل الشام أن لا يمسّهم الماء إلّا للغُسل من الجنابة...

«وأن لا يناموا على الفراش... حتى يقتلوا قتلة عثمان...

«ومن قام دونهم قتلوه...

«فلمّا عاد جرير إلى أمير المؤمنين عليّ... وأخبره خبر معاوية...

«واجتماع أهل الشام معه على قتاله...

«وأنهم يبكون على عثمان ويقولون:

«إن عليًا قتله.. وآوى قتلته... وأنهم لا ينتهون عنه حتى يقتلهم أو يقتلوه...

«قال الأشتر لعليّ: قد كنتُ نهيتُك أن تُرسل جريرًا... وأخبرتك بعداوته وغشه...

«ولو كنت أرسلتني لكان خيرًا من هذا الذي أقام عنده... حتى لم يدع بابًا يرجو فتحه إلّا فتحه... ولا بابًا يخاف منه إلا أغلقه...

«فقال جرير: لو كنت ثمّ لقتلوك... لقد ذكروا أنك من قتلة عثمان...

«فقال الأشتر: والله لو أتيتهم لم يُعيني جوابهم... ولحملتُ معاوية على خطة أُعجله فيها عن الفكر... ولو أطاعني فيك أمير المؤمنين لحبسك وأشباهك حتى يستقيم هذا الأمر...

«فخرج جرير إلى قرقيسيا... وكتب إلى معاوية... فكتب إليه معاوية يأمره بالقدوم عليه...»!!!

وهذا أمر طبيعي... فقد كان جرير عاملًا لعثمان على همذان!!!

عليّ... يخرج... إلى معاوية؟!

«وخرج عليّ... فعسكر بالنُّخَيلة...

«وقدم عليه.. عبدالله بن عباس... فيمن معه من أهل البصرة...

«وبلغ ذلك معاوية... فاستشار عَمرًا...

«فقال: **أمّا إذا سار عليّ... فسرْ إليه بنفسك... ولا تغبْ عنه برأيك ومكيدتك...**

«فتجهّز معاوية... وتجهّز الناس...

عَمْرو ورأيه في جيش عليّ

«وحضّهم عمرو... وضعّف عليًا وأصحابه... وقال:

«إن أهل العراق قد فرّقوا جمعهم... ووهّنوا شوكتهم... وفلّوا حدّهم...

«وأهل البصرة مخالفون لعليّ بمن قُتل منهم... وقد تفانت صناديدُهم..

وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل...

«وإنما سار عليّ في شرذمة قليلة... وقد قتل خليفتكم...

«واللّهَ اللّهَ... في حقكم أن تضيعوه... وفي دمكم أن تُطِلّوه...

«وكَتَّب معاوية أهل الشام... (أي جعلهم كتائب)... وعقد لواء لعمرو... ولواء لابنيه عبدالله ومحمد... ولواء لغلامه وردان...

«وعقد عليّ لواء... لغلامه قَنْبر...

«وسار معاوية... وتأنّى في مسيره...

«وبعث عليّ زياد بن النضر... في ثمانية آلاف...

«وبعث معه... شريح بن هانىء... في أربعة آلاف...

«وسار عليّ... من النّخيَلة...

«وأخذ معه من بالمدائن من المقاتلة...

«ووجّه عليّ من المدائن.. معقل بن قيس في ثلاثة آلاف... وأمره أن يأخذ على الموصل... حتى يوافيه على الرَّقّة...»!!!

ماذا على عمرو ومعاوية... لو بايعا عليًّا... واستقاما كما استقام الناس؟!..

ألا إنها الفتنة الكبرى!!!

امنعهم الماء... كما منعوه... ابنَ عفّان؟!

«ثم إن عليًّا طلب لعسكره موضعًا ينزل فيه..

«وكان معاوية قد سبق فنزل منزلًا اختاره بسيطًا واسعًا أفيح... وأخذ شريعة الفرات... وليس في ذلك الصقع شريعة غيرها... وجعلها في حيّزه... وبعث عليها أبا الأعور السُّلمي يحميها ويمنعها...

«فطلب أصحاب عليّ شريعة غيرها فلم يجدوا...

«فأتوا عليًّا... فأخبروه بفعلهم... وبعطش الناس...

«فدعا صعصعة بن صُوحان... فأرسله إلى معاوية يقول له:

«إنّا سرنا مسيرنا هذا... ونحن نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم... فقدمتْ إلينا

خيلك ورجالك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك... ونحن من رأينا الكفّ حتى ندعوك ونحتج عليك...

«**وهذه أخرى قد فعلتموها... منعتم الناس عن الماء... والناس غير منتهين... فابعثْ إلى أصحابك... فيخلّوا بين الناس وبين الماء...**

«**وليكفّوا لننظر فيما بيننا وبينكم... وفيما قدمنا له...**

«**فإن أردتَ أن نترك ما جئنا له... ونقتتل على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا...**

«فقال معاوية لأصحابه: ما ترون؟..

«فقال الوليد بن عُقبة... وعبد الله بن سعد: **امنعهم الماء... كما منعوه ابنَ عفّان...**

اقتلهم عطشًا قتلهم الله!..

«فقال عمرو بن العاص: خلِّ بين القوم وبين الماء... وإنهم لن يعطشوا وأنت ريّان... ولكن بغير الماء... فانظر فيما بينك وبين الله...

«فرجع صعصعة فأخبره بما كان...

«وأن معاوية قال: سيأتيكم رأيي...»!!!

معركة... من أجل... الماء؟!

«فسرَّب الخيل... إلى أبي الأعور... ليمنعهم الماء...

«فلمّا سمع عليّ ذلك قال: **قاتلوهم على الماء...**

«فقال الأشعث: أنا أسير إليهم...

«فسار إليهم... فلما دنوا منهم ثاروا في وجوههم... فرموهم بالنَّبل... فتراموا ساعةً... ثم تطاعنوا بالرماح... ثم صاروا إلى السيوف فاقتتلوا ساعة...

«وأرسل معاوية... يزيد بن أسد... في الخيل إلى أبي الأعور... فأقبلوا...

«فأرسل عليّ شَبَث بن ربعي... فازداد القتال...

عمرو في المعركة؟!

«فأرسل معاوية... عمرو بن العاص... في جند كثير... فأخذ يمد أبا الأعور...

«وأرسل عليّ الأشتر في جمع عظيم...

«فاشتد القتال...

«وقاتلوهم حتى خلّوا بينهم وبين الماء...

«وصار في أيدي أصحاب عليّ...

«فقالوا: والله لا نسقيه أهل الشام!...

«فأرسل عليّ إلى أصحابه: **أن خذوا من الماء حاجتكم... وخلوا عنهم...**

«**فإن الله نصركم ببغيهم وظلمهم...**

«ومكث علي يومين... لا يرسل إليهم أحدًا... ولا يأتيه أحد»...!!

الأخلاق الكريمة مرة أخرى...

لم يعاملهم بمثل ما عاملوه... ولكن «**خذوا من الماء حاجتكم... وخلوا عنهم**»!؟!؟

ولو أن قائدًا... غير مقيّد بمُثُل عليّ العليا... لقال: امنعوهم الماء... وجزاء سيئة سيئة مثلها...

هذا منطق القادة العسكريين...

ولكنه... عليّ!!!

يا معاوية... أنشدك الله.... أن تفرق جماعة هذه الأمة؟!

«ثم إن عليًا... دعا أبا عمرو الأنصاري... وسعيد بن قيس الهمداني... وشبث ابن ربعي التميمي...

«فقال لهم: **ائتوا هذا الرجل... وادعوه إلى الله... وإلى الطاعة والجماعة...**

«فقال له شبث: يا أمير المؤمنين... ألا تطمعه في سلطان توليه إيّاه... أو منزلة تكون له بها أثرة عندك... إن هو بايعك؟..

«**قال: انطلقوا إليه... واحتجوا عليه... وانظروا ما رأيه؟..**

«وهذا في أوّل ذي الحجة...

«فأتوه... فدخلوا عليه...

«فابتدأ بشير بن عمرو الأنصاري... فحمد الله وأثنى عليه... وقال:

«**يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة... وإنك راجع إلى الآخرة...**

«**وإن الله محاسبك بعملك ومجازيك عليه...**

«**وإني أنشدك الله... أن تفرق جماعة هذه الأمة... وأن تسفك دماءها بينها...**

«فقطع عليه معاوية الكلام... وقال:

هلّا أوصيت بذلك صاحبك؟..

«فقال أبو عمرو: إن صاحبي ليس مثلك...

«إن صاحبي أحقّ البرية كلها بهذا الأمر... في الفضل... والدين... والسابقة في الإسلام... والقرابة بالرسول... (ﷺ)...

«قال: فماذا يقول؟

«قال: يأمرك بتقوى الله... وأن تجيب ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحقّ... فإنه أسلم لك في دنياك... وخير لك في عاقبة أمرك!..

«قال معاوية: ونترك دم ابن عفّان!.. لا والله لا أفعل ذلك أبدًا...»!!!

فهل صحيح أن القضية قضية دم عثمان... كما زعم معاوية؟!..

إن كان الأمر كذلك... كان يمكن لمعاوية أن يبايع عليًا... ويشترط قتل قتلة عثمان...

يا معاوية... لا تنازع الأمر أهلَه؟!

«فذهب سعيد بن قيس يتكلّم...

«فبادره شَبَث بن ربعي... فحمد الله... وأثنى عليه... ثم قال:

«يا معاوية... قد فهمت ما رددت على ابن محصن...

«إنه والله لا يخفى علينا ما تطلب...

«إنك لم تجد شيئًا تستغوي به الناس... وتستميل به أهواءهم... وتستخلص به طاعتهم... إلّا قولك: قُتل إمامكم مظلومًا... فنحن نطلب بدمه...

«فاستجاب لك سُفهاء طغام...

«وقد علمنا أنك أبطأت عنه بالنصر... وأحببتَ له القتل... لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب...

«ورب متمني أمر وطالبه... يحول اللّهُ دونه...

«وربما أوتي المتمني أمنيته وفوق أمنيته...

«ووالله ما لك في واحدة منهما خير...

«والله إن أخطأك ما ترجو إنك لشر العرب حالًا!..

«ولئن أصبت ما تتمنّاه... لا تصيبه حتى تستحقّ من ربك صُلِيَّ النار!..

«فاتق الله يا معاوية...

«ودع ما أنتَ عليه... ولا تنازع الأمر أهله...»!!!

كشف شَبَث خفايا معاوية... وألقاها صريحة في وجهه...

واضطره أن يكشف خطته أمام أعينهم... فماذا قال العملاق؟!..

ليس بيني وبينكم... إلّا السيف؟!

«فحمد معاوية الله... ثم قال:

«أما بعد... فإن أوّل ما عرفتُ به سفهك... وخفةَ حلمك... أن قطعت على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقَه...

«ثم اعترضتَ بعد فيما لا علم لك به...

«فقد كذبتَ... ولؤمتَ أيها الأعرابي... الجلف... الجافي... في كل ما ذكرت ووصفت!..

«انصرفوا من عندي...

«فليس بيني وبينكم إلّا السيف...

«وغضب... وخرج القوم...

«فقال له شَبَث بن ربعي: أتهوّل بالسيف؟.. أقسم بالله... لنجعلنّها إليك...»!!!

إن معاوية يريدها معركة...

ولا يريدها صُلحًا!!!

مناوشات... بين الطرفين؟!

«فأتوا عليًّا... فأخبروه بذلك...

«فأخذ عليّ يأمر الرجل ذا الشرف فيخرج ومعه جماعة من أصحابه...

«ويخرج إليه آخر من أصحاب معاوية ومعه جماعة...

«فيقتتلان في خيلهما... ثم ينصرفان...

«وكرهوا أن يَلقوا جمع أهل العراق... بجمع أهل الشام...

«**لما خافوا أن يكون فيه من الاستئصال والهلاك...**

«فاقتتلوا أيّام ذي الحجة كلها...»!!!

في معركة صِفِّين...

معاوية يقول لعَمْرو...

«طمعتَ فيها بعدي»...؟!

«ثم دخلت سنة سبع وثلاثين...

«... تتمّة أمر صِفّين...

«في هذه السنة في المحرّم منها... جرت موادعةٌ... بين عليّ ومعاوية...

«توادعا على ترك الحرب بينهما... حتى ينقضي المحرّم... طمعًا في الصلح...

«واختلفت بينهما الرسل...

«فبعث عليّ... عديّ بن حاتم... ويزيد بن قيس... وشبَث بن رِبعي... وزياد بن خَصَفة...»!!!

هدنة... طوال شهر المحرم... وسفارات متداولة بين المعسكرين...

معاوية... يهدّد... ويثور؟!

«فتكلّم عدي بن حاتم... وقال:

«فإنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمعُ الله به كلمتنا وأمّتنا... ونحقن به الدماء... ونصلح ذات البين...

«إنّ ابن عمك... سيّد المسلمين... أفضلُها سابقة... وأحسنها في الإسلام أثرًا...

«وقد استجمع له الناس... ولم يبقَ أحد غيرك... وغير من معك...

«فاحذر يا معاوية... لا يصبك وأصحابك مثل يوم الجمل!

«فقال له معاوية: كأنّك إنما جئتَ متهدّدًا... لم تأتِ مصلحًا!..

«هيهات يا عدي!..

«كلا والله... إنّي لابنُ حرب... لا يقعقع له بالشِّنان...

«وإنك والله من المجلبين على عثمان... وإنك من قَتَلَته...

«وإني لأرجو أن تكون ممن يقتله الله به!..

«فقال له شَبَث... وزياد بن خَصفة... جوابًا واحدًا: أتيناك فيما يصلحنا وإياك... فأقبلتَ تضربُ لنا الأمثال...

«دع ما لا ينفع... وأجبنا فيما يعم نفعه...

«وقال يزيد بن قيس: إنّا لم نأتِ إلّا لنبلغك ما أُرسلنا به إليك... ونؤدي عنك ما سمعنا منك...

«ولن ندع أن ننصح لك... وأن نذكر ما يكون به الحجة عليك... ويرجع إلى الألفة والجماعة...

«إن صاحبنا من قد عرف المسلمون فضله... ولا يخفى عليك...

«فاتقّ الله يا معاوية ولا تخالفه...

«فإنّا والله ما رأينا في الناس رجلًا قط... أعمل بالتقوى... ولا أزهد في الدنيا... ولا أجمع لخصال الخير كلّها... منه...»!!

معاوية... يشرح... القضية؟!

«فحمد الله معاوية... ثم قال:

«أمّا بعد... فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة...

«فأمّا الجماعة التي دعوتم إليها... فمعنا هي...

«وأمّا الطاعة لصاحبكم... فإنّا لا نراها... لأن صاحبكم قتل خليفتنا... وفرّق جماعتنا... وآوى ثأرَنا...

«وصاحبكم يزعم أنّه لم يقتله... فنحن لا نردّ عليه ذلك... فليدفعْ إلينا قتلةَ عثمان لنقتلهم...

«ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة...

«فقال شَبَث بن ربْعي: أيسرّك يا معاوية أن تقتل عمّارًا؟!..

«فقال: وما يمنعني من ذلك؟!..

«لو تمكنتُ من ابن سميّة لقتلته بمولى عثمان...

«فقال شَبَث: والذي لا إله غيره... لا تصل إلى ذلك حتى تندرُ الهامُ عن الكواهل... وتضيق الأرضُ الفضاءُ عليك...

«فقال معاوية: لو كان ذلك... لكانت عليك أضيق!..»!!!

دهاء معاوية السياسي هاهنا يظهر بوضوح...

وفدٌ... من معاوية... إلى عليّ؟!

«وبعث معاوية إلى عليّ... حبيب بن مسلمة... وشُرَحبيل بن السّمط... ومَعْن ابن يزيد...

«فدخلوا عليه... فحمد الله حبيب... ثم قال:

«أما بعد... فإن عثمان كان خليفة مهديًّا... يعمل بكتاب الله... وينيب إلى أمره..

«فاستثقلتم حياته... واستبطأتم وفاته...

«فعدوتم عليه... فقتلتموه...

«فادفع إلينا قتلة عثمان... إن زعمتَ أنك لم تقتله... نقتلهم به...

«ثم اعتزلْ أمر الناس... فيكون أمرهم شورى بينهم... يولّونه من أجمعوا عليه...

«فقال له عليّ: ما أنت... لا أمّ لك... والعزل... وهذا الأمر؟!

«اسكت... فإنك لستَ هناك... ولا بأهل له...

«فقال: والله لتريني بحيث تكره!.

«فقال له عليّ: وما أنت؟

«لا أبقى الله عليك... إن أبقيت علينا!.

«اذهبْ... فصوّبْ... وصعّدْ ما بدا لك!..

«وقال شُرَحبيل: ما كلامي إلّا مثل كلام صاحبي... فهل عندك جواب غير هذا؟

«فقال عليّ: ليس عندي جواب غيره...»!!!

لقد رسم معاوية لأعضاء وفده ما يقولون...

عليّ... يشرح... القضية؟!

«ثم حمد الله وأثنى عليه... وقال:

«أما بعد... فإن الله تعالى بعث محمدًا... (ﷺ)... بالحق فأنقذ به من الضلالة والهلكة... وجمع به من الفُرقة...

«ثم قبضه الله إليه... فاستخلف الناس أبا بكر...

«واستخلف أبو بكر عمر...

«فأحسنا السيرة وعدلا...

«وقد وجدنا عليهما أن تولّيا الأمور... ونحن آل رسول الله... (ﷺ)...

«فغفرنا ذلك لهما...

«وولّى الناسُ عثمان... فعمل بأشياء عابها الناس... فساروا إليه فقتلوه...

«ثم أتاني الناس فقالوا لي: بايع... فأبيتُ...

«فقالوا: بايع فإن الأمّة لا ترضى إلّا بك... وإنّا نخاف إن لم تفعل أن يتفرّق الناس...

«فبايعتهم...

«فلم يَرُعني إلّا شقاق رجلين قد بايعاني... وخلافُ معاوية...

«الذي لم يُجعل له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الإسلام...

«طليق ابن طليق...

«حزب من الأحزاب...

«لم يزل حربًا لله ورسوله... هو وأبوه... حتى دخلا في الإسلام كارهين...

«ولا عجب إلّا من اختلافكم معه... وانقيادكم له... وتتركون آل بيت نبيكم... الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم!..

«ألا إني أدعوكم إلى كتاب الله... وسنّة نبيه... وإماتة الباطل... وإحياء الحقّ... ومعالم الدين!..

«أقول قولي هذا... وأستغفر الله... لي ولكم وللمؤمنين...

«فقالا: تشهد أن عثمان قتل مظلومًا؟

«فقال لهما: لا أقول إنه قُتل مظلومًا ولا ظالمًا...

«قالا: فمن لم يزعم أنه قُتِل مظلومًا... فنحن منه بُراء...

«وانصرفا...

«فقال عليّ... عليه السلام: ﴿**إنّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتَى... إلى قوله: فهُم مُسْلِمُونَ**﴾ [النمل ٨٠].

«ثم قال لأصحابه: لا يكن هؤلاء في الجِدّ في ضلالهم... أجدّ منكم في الجِدِ في حقكم وطاعة ربكم...»!!!

هذه هي القضية... كما شرحها عليّ...

لتكون سجلًّا خالدًا... يرجع إليه كل من أراد أن يعرف الحقيقة من هذه الفتنة!!!

وإذا تكلّم عليّ... فهو ينطق بالحق... ويقرر الأمور على حقيقتها!

أمير المؤمنين... يعلن... الحرب؟!

«فلمّا انسلخ المحرّم...

«أمر عليّ مناديًا فنادى...

«يا أهل الشام!..

«يقول لكم أمير المؤمنين: قد استدمتكم... لتراجعوا الحق... وتنيبوا إليه...

«فلم تنتهوا عن طغيانكم... ولم تجيبوا إلى الحق...

«وإني قد نبذتُ إليكم على سواء...

«إن الله لا يحب الخائنين»!!!

هذا إعلان حرب صريح... من أمير المؤمنين...

«فاجتمع أهل الشام إلى أمرائهم ورؤسائهم...

«خرج معاوية وعمرو... يكتّبان الكتائب... ويُعبّيان الناس...
وكذلك فعل أمير المؤمنين...»!!!

مبادئ عليّ... قبل المعركة؟!

«وقال للناس:
«لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم...
«فأنتم بحمد الله على حُجّة... وترككم قتالهم حجّة أخرى...
«فإذا هزمتموهم... فلا تقتلوا مدبرًا...
«ولا تجهزوا على جريح...
«ولا تكشفوا عورةً...
«ولا تمثّلوا بقتيل...
«وإذا وصلتم إلى رحال القوم... فلا تهتكوا سترًا... ولا تدخلوا دارًا... ولا تأخذوا شيئًا من أموالهم...
«ولا تهيجوا امرأة... وإن شتمن أعراضكم... وسببن أمراءكم وصُلحاءكم... فإنهن ضعاف القوى والأنفس...
«وكان يقول بهذا المعنى لأصحابه في كل موطن...
«وحرّض أصحابه فقال:
«عباد الله... اتقوا الله... وغُضّوا الأبصار... واخفضوا الأصوات... وأقِلوا الكلام... ووطنوا أنفسكم على المنازلة... والمجادلة... والمزاولة... والمناضلة... والمعانقة... والمكادمة... والملازمة...
«(**فاثْبُتُوا واذْكُرُوا الله كثيرًا لعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**)... [الأنفال ٤٥].
«﴿**ولا تَنَازعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ... واصْبِرُوا إنَّ الله مَعَ الصَّابِرِين**﴾... [الأنفال ٤٦].
«اللهم ألهمهم الصبرَ... وأنزل عليهم النصر... وأعظم لهم الأجرَ...»!!!
لقد أصبحت الأمّة في أمر عَجَب...

لقد انقسمت على نفسها...
ليضرب بعضهم رقاب بعض؟!!

أمير المؤمنين... يعيّن... قادة المعركة؟!

«وأصبح عليّ... فجعل على خيل الكوفة... الأشتر...
«وعلى جُند البصرة... سهل بن حُنيف...
«وعلى رجّالة الكوفة... عمّار بن ياسر...
«وعلى رجّالة البصرة... قيس بن سعد...
«وهاشم بن عُتبة... معه الراية...
«وجعل... مِسْعر بن فدكي... على قرّاء الكوفة... وأهل البصرة
فماذا صنع معاوية؟!

عمرو بن العاص... على خيل دمشق؟!

«وبعث معاوية على ميمنته... ابن ذي الكَلاع الحمْيري...
«وعلى ميسرته... حبيب بن مَسْلمة...
«وعلى مقدّمته... أبا الأعور السُلَمي...
«وعلى خيل دمشق... عمرو بن العاص...
«وعلى رجّالة دمشق... مسلم بن عُقبة...
«وعلى الناس كلهم... الضحّاك بن قيس...
«وبايع رجالٌ من أهل الشام على الموت... فعقلوا أنفسهم بالعمائم... وكانوا خمسة صفوف...»!!!
لقد تحولت عبقريتهم... التي كانوا يفتحون بها العالم...
إلى بأس بينهم شديد...
وبنفس القوة الجبّارة التي كانوا يقاتلون بها أعداء الله...
أصبحوا يقاتلون بها... بعضهم بعضًا!!!

فاقتتلوا... قتالًا... شديدًا؟!

«وخرجوا أوّل يوم من صَفَر... فاقتتلوا... وكان على الذين خرجوا من أهل الكوفة الأشتر...

«وعلى من خرج من أهل الشام... حبيب بن مسلمة...

«فاقتتلوا يومهم قتالًا شديدًا... معظم النهار... ثم تراجعوا... وقد انتصف بعضهم من بعض...»!!!

هذا في اليوم الأول للمعركة... فماذا في اليوم الثاني؟!

«ثم خرج في اليوم الثاني... هاشم بن عُتبة... في خيل ورجال...

«وخرج إليه من أهل الشام... أبو الأعور السُّلَمي...

«فاقتتلوا يومهم ذلك... ثم انصرفوا...»!..

فماذا في اليوم الثالث؟!..

عمّار وعَمرو وجْهًا لوجه؟!

«وخرج في اليوم الثالث... عمّار بن ياسر...

«وخرج إليه عمرو بن العاص...

«فاقتتلوا أشد قتال...

«وقال عمّار: يا أهل العراق... أتريدون أن تنظروا إلى مَن عادى الله ورسوله... وجاهدهما... وبغى على المسلمين... وظاهر المشركين؟ فلمّا رأى الله يُعزّ دينه... ويُظهر رسوله... أتى النبي... (ﷺ)... وهو فيما نرى راهب غير راغب!.. ثم قُبض النبي... (ﷺ)... فوالله إن زال بعدَه معروفًا بعداوة المسلم... واتّباع المجرم... فاثبتوا له وقاتلوه...

«وقال عمّار... لزياد بن النضر... وهو على الخيل: احمل على أهل الشام... فحمل... وقاتله الناس وصبروا له...

«وحمل عمّار... فأزال عمرو بن العاص عن موضعه...

«وتراجع الناس...»!!!

عمّار... وعمرو... وجهًا لوجه...

صحابي... وصحابي... كل يريد أن يقتل صاحبه؟!!!

عليّ... في المعركة؟!

فماذا في اليوم الرابع؟!

«وخرج من الغد... محمد بن عليّ... وهو ابن الحنفيّة...

«وخرج إليه... عبيد الله بن عمر بن الخطاب...

«في جمعين عظيمين... فاقتتلوا أشدّ القتال...

«وأرسل عبيد الله... إلى ابن الحنفية... يدعوه إلى المبارزة... فخرج إليه...

«فحرّك عليّ دابّته...

«وردّ ابنه...

«وبرز عليّ... إلى عبيد الله...

«فرجع عبيد الله...

«وقال محمد لأبيه: لو تركتني لرجوتُ قتله...

«وقال: يا أمير المؤمنين... وكيف تبرز إلى هذا الفاسق؟...

«والله إنّي لأرغب بك عن أبيه!..

«فقال عليّ: يا بُنيّ... لا تقل في أبيه إلّا خيرًا...

«وتراجع الناس...»!!!

فماذا في اليوم الخامس؟!..

عبد الله بن عباس... يطلب... المبارزة؟!

«وخرج عبد الله بن عباس... في اليوم الخامس...

«وخرج إليه الوليد بن عقبة...

«فاقتتلوا قتالًا شديدًا...

«فسبّ الوليدُ... بني عبد المطلب...
«فطلبه ابنُ عباس ليبارزه... فأبى...
«وقاتل ابن عباس... قتالًا شديدًا...
«وخرج في اليوم السادس... قيس بن سعد الأنصاري...
«وخرج إليه... ابن ذي الكَلاع الحِمْيري...
«فاقتتلوا قتالًا شديدًا... ثم انصرفوا...
«ثم عاد يوم الثلاثاء... وخرج الأشتر... وخرج إليه حبيب... فاقتتلوا قتالًا شديدًا... وانصرفوا عند الظهر...»!!!

أمير المؤمنين... يأمر... بالهجوم العام؟!

«ثم إنّ عليًا... قال:
«حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بأجمعنا؟..
«فقام في الناس... عشية الثلاثاء... ليلة الأربعاء... خطيبًا... فحمد الله وأثنى عليه... فقال:
«الحمد لله الذي لا يُبرَم ما نقض...
«وما أبرم لم ينقضه الناقضون...
«ولو شاء الله ما اختلف اثنان من خلقه..
«ولا اختلفت الأمة في شيء...
«ولا جحد المفضولُ ذا الفضل فضلَه...
«وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار... فنحن بمرأى من ربّنا... ومسمع...
«فلو شاء عجّل النقمة... وكان منه التغيير... حتى يكذب الظالم... ويعلم الحق أين مصيره...
«ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال... وجعل الآخرة دار القرار ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾... [النجم ٣١].
«ألا وإنكم لاقوا القوم غدًا...

«فأطيلوا الليلة القيام... وأكثروا تلاوة القرآن...
«واسألوا الله النصرَ والصبرَ...
«والقوهم بالجِدّ والحزم وكونوا صادقين...
«فقام القوم يُصلحون سلاحهم...
«فمرّ بهم كعب بن جُعيل... فقال:

أصبحت الأمة في أمرٍ عجَبْ والمُلكُ مجموعٌ غدًا لمن غَلَبْ
فقلتُ قولًا صادقًا غير كذِبْ إنَّ غدًا تهلكُ أعلامُ العربْ».

معركة... يوم الأربعاء؟!

«وعبّى عليّ... الناس... ليلته حتى الصباح...
«وزحف بالناس...
«وخرج إليه معاوية... في أهل الشام...
«فسأل عليّ... عن القبائل من أهل الشام... فعرف مواقفهم...
«فقال للأزد: اكفونا الأزد...
«وقال لخثعم: اكفونا خثعم...
«وأمر كل قبيلة... أن تكفيه أختها من الشام...
«إلّا أن تكون قبيلة ليس منها بالشام أحد... فيصرفها إلى قبيلة أخرى من الشام ليس بالعراق منهم أحد...
«فتناهض الناسُ... يوم الأربعاء... فاقتتلوا قتالًا شديدًا....
«ثم انصرفوا عند المساء... وكلٌّ غير غالب...»!!!

عليّ... في القلب؟!

«فلما كان يوم الخميس...
«صلّى عليّ بغَلَس...
«وخرج بالناس إلى أهل الشام... فزحف إليهم... وزحفوا معه...

«وكان على ميمنة عليّ... عبد الله بن بُدَيل...

«وعلى ميسرته... عبد الله بن عباس...

«والقراء مع ثلاثة نفر: عمّار... وقيس بن سعد... وعبدالله بن بُدَيل...

«والناس على راياتهم ومراكزهم...

«وعليّ... في القلب... في أهل المدينة... بين أهل الكوفة والبصرة...

«وأكثر من معه من أهل المدينة الأنصار...

«ومعه عدد من خزاعة وكنانة وغيرهم من أهل المدينة...

«وزحف إليهم...»!!!

ها هو أمير المؤمنين... عليه السلام... على رأس جيشه... في القلب... في أهل المدينة... إشارة إلى أن التفاف أهل المدينة حوله... يؤكد الإجماع على بيعته ممن يملكون هذا الأمر... والناس لهم تبع!!!

لحظة خالدة... يتقرر فيها مصير العالم كله...

فمن المعلوم أن الدولة الإسلامية يومئذ كانت هي القوة الدولية التي لا قوة تنازعها في الأرض...

فلم يبقَ من الكتل الدولية... إلّا بقايا الأمبراطورية الرومية... المصحورة في بلاد أوروبا الجنوبية... تلعق خزي الهزائم المتتابعة على أيدي المسلمين... وكل آمالها أن يتركوها على ما هي عليه... ولا يحاولوا الإجهاز عليها...

إنما أقول هذا ليعلم القارىء أنه لم تكن في تلك اللحظة قوة دولية في الكرة الأرضية غير القوة الإسلامية...

وهذا يفسر لك: لماذا لم ينتهز الأعداء فرصة الانشقاق بين المسلمين... وينقضّوا عليهم؟!..

لم يحدث شيء من هذا... لأنه لم يكن في الأرض من قوة أخرى... تفعل ذلك... لأن الإسلام كان قد ابتلع الكتلتين العالميتين... الفرس والرومان... ولم يكن هناك بعدهم من قوة أخرى!!!

فالصراع بين عليّ... ومعاوية... لم يكن صراعًا محليًا...

كلّا وإنما صراعًا عالميًا... له آثاره العالمية الحتمية في مسار التاريخ...
وها هو أمير المؤمنين... القائد الأعلى... في قلب جيشه... ويزحف بهم!!!

معاوية... يرفع... قبّة عظيمة؟!

«ورفع معاوية... قبة عظيمة...
«فألقى عليها الثياب...
«وبايعه أكثر أهل الشام... على الموت...
«وأحاط بقبته... خيل دمشق...»!!!
تكتيك رهيب... معاوية... القائد الأعلى... يدير المعركة... من هذه القبّة... فهي غرفة عمليات!!!
وخيل دمشق... فرسان دمشق يحيطون بالقبّة... والموت لمن يحاول الوصول إليها!!!

ميمنة... عليّ... تزحف؟!

«وزحف عبدُ الله بن بُدَيل... في الميمنة...
«نحو حبيب بن مسلمة... وهو في ميسرة معاوية...
«فلم يزل يحوزه... ويكشف خيله... حتى اضطرهم إلى قبة معاوية عند الظهر...
«وحرض عبدُ الله بن بُدَيل أصحابه... فقال:
«ألا إن معاوية ادّعى ما ليس له... ونازع الحقَّ أهله... وعاند مَن ليس مثله... وجادل بالباطل ليدحض به الحقّ...
«وصال عليكم بالأعراب والأحزاب الذين قد زيّن لهم الضلالة... وزرع في قلوبهم حبّ الفتنة...
«ولبّس عليهم الأمر... وزادهم رجسًا إلى رجسهم...
«فقاتلوا الطّغام الجفاة ولا تخشوهم... ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ

وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾...!!! [التوبة ١٤].

هذا فيلسوف عظيم... هذا قائد من قادة عليّ... يفصّل القضية تفصيلًا ليس بعده تفصيل...

إن الصراع ليس على دنيا... وإنما لتوحيد هذه الأمة... وإعلاء كلمة الحق!!!

فماذا قال أمير المؤمنين؟!..

كلمة... أمير المؤمنين؟!

«وحرّض عليّ أصحابه... فقال في كلام له:

«فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص...

«وقدّموا الدارع... وأخّروا الحاسر...

«وعضّوا على الأضراس... فإنه أنبى للسيوف عن الهام...

«والتووا في الأطراف... فإنه أصْون للأسنّة...

«وغضّوا الأبصار... فإنّه أربط للجأش... وأسكن للقلب...

«وأميتوا الأصوات... فإنه أطرد للفشل... وأولى بالوقار...

«راياتكم فلا تميلوها... ولا تزيلوها... ولا تجعلوها إلّا بأيدي شجعانكم...

«واستعينوا بالصدق والصبر...

«فإن بعد الصبر... ينزل عليكم النصر...»!!!

كلمات جامعات... أوامر عسكرية من القائد الأعلى... إلى جميع جيشه...

دروس ثمينة في فنون الحرب والنزال!!!

يقاتلوننا... ليكونوا... ملوكًا؟!

«وقام يزيد بن قيس... يحرّض الناس... فقال:

«إن المسلم من سلّم في دينه ورأيه...

«وإن هؤلاء القوم والله... لا يقاتلوننا على إقامة دين ضيّعناه... وإحياء حقّ أمتناه...

«إن يقاتلوننا إلّا على هذه الدنيا... ليكونوا جبّارين فيها ملوكًا...

«فلو ظهروا عليكم... لا أراهمُ الله ظهورًا ولا سرورًا...

«ألزموكم بمثل سعيد والوليد وابن عامر... السفيه الضال...

«يجيز أحدهم بمثل ديته... ودية أبيه وجَدّه... في جلسة ثم يقول: هذا لي... ولا إثم عليّ...

«كأنما أعطي تراثه على أبيه وأمّه...

«وإنما هو مال الله أفاءه علينا بأرماحنا وسيوفنا...

«فقاتلوا عبادَ الله القوم الظالمين...

«فإنهم إن يظهروا عليكم... يُفسدوا عليكم دينكم ودنياكم... وهم مَن قد عرفتم وخبرتم!..

«والله ما ازدادوا إلى يومهم إلّا شرًّا...»!.

ما هذا؟!!.. هذه فلسفة أحد قادة عليّ...

فَهْمٌ رفيع للقضية المقدسة... ولماذا يجب قتال هؤلاء؟!..

حتى لا تؤول الأمور إليهم... فيفسدوا في الأرض... ويحكموها حكم الجبابرة والملوك...

ثم انظر إلى فهمهم لقضية الأموال العامة... ليس للحاكم... أن يوزعها على مَن شاء... وإنما هي أموال الشعب... وليست ثروة أبيه وأمّه...

إن الإسلام يمنع السفيه أن يتصرف في أمواله الخاصة... فكيف لا يمنع الإسلام... الحاكم السفيه من تبديد ثروة الشعب؟!!.

كلا... لا بد من الحيلولة بين هؤلاء... وبين حكمهم للأمة!!!

إن هذا الصراع الذي كان يقوده عليّ...

هو أنبل... وأعلى... وأغلى... صراع... شهدته البشرية...

صراع... للحفاظ على القيم العليا المقدسة... والضرب على أيدي الذين يريدون أن يميلوا بها مع أهوائها!!!

حتى ولو كان هؤلاء مسلمين... فإن الظلم من المسلم... أقبح وأفحش من الظلم

من الكافر...

فالقضية لم تعد قضية إيمان وكفر... كلا... وإنما... حقّ يكون... أو لا يكون...

أو إن تسربل مسلم بسربال الإسلام... وذهب يظلم هذا... وينهب هذا... أيمنعه سرباله أن يُضرب على أُمِّ رأسه حتى يكف عن الظلم؟!

فكيف إذا كان هذا المسلم حاكمًا... ينتشر ظلمه في أمّة من مشرقها إلى مغربها؟!!!.

لا يبالي... أوَقع على الموت... أم وقع الموت عليه؟!

هاهنا سوف نشهد... عليًّا...

سوف نشهد الحقيقة العلوية...

فكيف كان ذلك؟!!.

«وقاتلهم عبد الله بن بُدَيل في الميمنة قتالًا شديدًا...

«حتى انتهى إلى قبة معاوية...

«وأقبل الذين تبايعوا على الموت إلى معاوية...

«فأمرهم أن يصمدوا لابن بُدَيل في الميمنة...

«وبعث إلى حبيب بن مسلمة في الميسرة... فحمل بهم وبمن كان معه... على ميمنة الناس.... فهزمهم...

«وانكشف أهل العراق... من قِبَل الميمنة... حتى لم يبقَ منهم إلّا ابن بُدَيل... في مائتين أو ثلثمائة من القراء... قد أسند بعضهم إلى بعض... وانجفل الناس...

«وأمر عليّ... سهل بن حُنيف... فاستقدم فيمن كان معه من أهل المدينة...

«فاستقبلتهم جموع لأهل الشام عظيمة... فاحتملتهم حتى أوقفتهم في الميمنة...

«وكان فيما بين الميمنة إلى موقف عليّ في القلب... أهل اليمن...

«فلمّا انكشفوا... انتهت الهزيمة... إلى عليّ...

«فانصرف عليّ... يمشي نحو الميسرة...

«فانكشفت عنه مضر من الميسرة... وثبتت ربيعة...

«وكان الحسن...

«والحسين...

«ومحمد... بنو عليّ... معه حين قصد الميسرة!!!

«والنَّبل يمرّ... بين عاتقه ومنكبيه!!!

«وما من بنيه أحد... إلّا يقيه بنفسه!!!

«فيرده!!!

«فبصُرَ به أحمر... مولى أبي سفيان... فأقبل نحوه...

«فخرج إليه كيْسان... مولى عليّ...

«فاختلفا بينهما ضربتان... فقتله أحمر...

«فأخذ عليّ... بجيب درع أحمر... فجذبه... وحمله على عاتقه... ثم ضرب به الأرض!!!

«فكسر منكبيه... وعَضُديه!!!

«ودنا منه أهل الشام!!!

«فما زاده قربهم إلّا إسراعًا!!!

«فقال له ابنه الحسن: ما ضرّك لو سعيت... حتى تنتهي إلى هؤلاء القوم من أصحابك؟!!

«فقال:

«يا بُني... إن لأبيك يومًا لا يعدوه... ولا يبطىء به عنه السعي... ولا يعجل به إليه المشي...

«إن أباك... والله...

«لا يبالي... أوَقع على الموت... أم وقع الموتُ عليه...»؟!!

ذلكم عليّ!!!

وتلكم الحقيقة العلوية!!!

عليه السلام!!!

مقاتل... ليس كمثله مقاتل...

كلما دنا منه الموت... كان إليه أسرع!!!

فمن في الناس... مثل عليّ؟!!

إن أُصيب فيكم... أمير المؤمنين... افتضحتم في العرب؟!

«فلمّا وصل إلى ربيعة... نادى بصوت عال... كغير المكترث لما فيه الناس: **لمن هذه الرايات؟..**

«قالوا: رايات ربيعة...

«**قال: بل رايات عصَم الله أهلها... فصبّرهم... وثبّت أقدامهم...**

«**وقال للحُضَين بن المنذر: يا فتى... ألا تُدني رايتك هذه ذراعًا؟..**

«قال: بلى والله عشرة أذرع... فأدناها...

«حتى قال: **حسبُك... مكانَك...**

«ولما انتهى عليّ إلى ربيعة... تنادوا بينهم: **يا ربيعة... إن أُصيب فيكم أمير المؤمنين... وفيكم رجل حيّ... افتضحتم في العرب!..**

«فقاتلوا قتالًا شديدًا... ما قاتلوا مثله...»!!!

الأشتر... فارس... الموقف؟!

«ومرّ به الأشتر... وهو يقصد الميسرة...

«والأشتر يركض نحو الفزع قبلَ الميمنة...

«**فقال له عليّ: يا مالك!..**

«قال: لبيك يا أمير المؤمنين!..

«**قال: ائتِ هؤلاء القوم فقل لهم: أينَ فراركم من الموت الذي لن تُعجزوه إلى الحياة التي لا تبقى لكم؟..**

«فمضى الأشتر... فاستقبل الناس منهزمين... فقال لهم ما قال عليّ..

«ثم قال: أيها الناس.. أنا الأشتر... إليّ!..

«فأقبل إليه بعضهم... وذهب البعض...
«فنادى: أيها الناس... ما أقبح ما قاتلتم مذ اليوم... أخلصوا لي مَذحِجًا...
«فأقبلت مذحج إليه...
«فقال لهم: ما أرضيتم ربكم... ولا نصحتم له في عدوّكم... وكيف ذلك وأنتم أبناء الحرب... وأصحاب الغارات... وفتيان الصباح... وفرسان الطراد... وحتوف الأقران... ومذحج الطعان الذين لم يكونوا يُسبقون بثأرهم... ولا تُطلُّ دماؤهم... وما تفعلون هذا اليوم فإنه مأثور بعده... فانصحوا وأصدقوا...
«عدوّكم اللقاء... فإن الله مع الصادقين...
«والذي نفسي بيده ما من هؤلاء - وأشار إلى أهل الشام - رجل على مثل جناح بعوضة من دين... أجلوا سواد وجهي يرجع فيه دمه...
«عليكم بهذا السواد الأعظم... فإن الله لو قد فضّه تبعه مَن بجانبيه...
«قالوا: تجدنا حيث أحببتَ...
«فقصد نحو عُظْمهم مما يلي الميمنة... يزحف إليهم ويردّهم...
«واستقبله شباب من همدان... وكانوا ثمانمائة مقاتل يومئذ... وكانوا صبروا في الميمنة... حتى أصيب منهم ثمانون ومائة رجل... وقُتل منهم أحد عشر رئيسًا...
«وهم يقولون: ليت لنا عدَّتنا من العرب يحالفوننا على الموت ثم نرجع فلا ننصرف أو نُقتل أو نظفر!..
«فسمعهم الأشتر يقولون هذا... فقال لهم: أنا أحالفكم على أن لا نرجع أبدًا حتى نظفر أو نهلك...
«فوقفوا معه...
«وزحف الأشتر نحو الميمنة... وثاب إليه الناس... وتراجعوا من أهل البصرة وغيرهم...
«فلم يقصد كتيبة إلّا كشفها... ولا جمعًا إلّا حازه وردّه..»!!
صراع عنيف... وقتال مستميت... إما النصر وإما الموت...
يتسابقون إلى الموت جميعًا... كأنهم إلى زفاف يزفّون!!!

هذا والله... الصبر الجميل؟!

«فإنه كذلك إذ مرّ به زياد بن النضر... يُحمل إلى العسكر وقد صُرع...

«وسببه أنه قد كان استلحم عبدالله بن بُدَيل وأصحابه في الميمنة...

«فتقدّم زياد إليهم... ورفع رايته لأهل الميمنة... فصبروا وقاتل حتى صُرع...

«ثم مرّوا بيزيد بن قيس محمولًا نحو العسكر...

«وكان قد رفع رايته لأهل الميمنة لما صُرع زياد... وقاتل حتى صُرع...

«فقال الأشتر حين رآه: **هذا والله الصبر الجميل... والفعل الكريم... ألا يستحي الرجل أن ينصرف ولا يُقتل... أو يُشفى به على القتل؟!...**

«وقاتلهم الأشتر قتالًا شديدًا...

«ولزمه الحرث بن جُمَهان... يقاتل معه...

«فما زال هو ومن رجع إليه يقاتلون حتى كشف أهل الشام...

«وألحقهم بمعاوية... والصف الذي معه... بين صلاة العصر والمغرب...»!!!

ما فعل... أمير المؤمنين؟!

«وانتهى إلى عبد الله بن بُدَيل... وهو في عصابة من القراء... نحو المائتين أو الثلثمائة... قد لصقوا بالأرض كأنهم حثاثًا...

«فكشف عنهم أهل الشام... فأبصروا إخوانهم...

«فقالوا: **ما فعل أمير المؤمنين؟**..

«قالوا: حيّ... صالح في الميسرة... يقاتل الناس أمامه...

«فقالوا: الحمدلله!.. قد كنّا ظننّا أنه قد هلك وهلكتم...»!!!

يسألون عن أمير المؤمنين... أوّلًا... إنه الحبّ!!!

بطولة... عبد الله بن بُدَيل؟!

«وقال عبد الله بن بُدَيل لأصحابه استقدموا بنا...

«فقال الأشتر: لا تفعل... واثبت مع الناس... فإنّه خير لهم وأبقى لك ولأصحابك...

«فأبى ومضى... كما هو نحو معاوية... وحوله كأمثال الجبال... وبيده سيفان...

«وخرج عبد الله أمام أصحابه... يقتل كلّ من دنا منه... حتى قتل جماعة...

«ودنا من معاوية...

«فنهض إليه الناس من كلّ جنب... وأحيط به... وبطائفة من أصحابه...

«فقاتل حتى قُتل... وقُتل ناس من أصحابه..

«ورجعت طائفة منهم مجرحين...

«فبعث الأشتر... الحرث بن جُمهان... فحمل على أهل الشام الذين يتبعون من انهزم من أصحاب عبدالله... حتى نفّسوا عنهم... وانتهوا إلى الأشتر...

«وكان معاوية قد رأى ابن بُدَيل وهو يضرب قُدُمًا...

«فقال: أترونه كبش القوم؟

«فلمّا قُتل... أرسل إليه... لينظروا مَن هو؟

«فلم يعرفه أهل الشام...

«فجاء إليه... فلمّا رآه عرفه... فقال: هذا عبدالله بن بُدَيل... والله لو استطاعت نساء خزاعة لقاتلتنا فضلًا عن رجالها...»!!!

الأشتر... يصل إلى... معاوية؟!

«وزحف الأشتر... بعَكّ والأشعرين...

«وقال لمذحج: اكفونا عكًّا...

«ووقف في همدان.. وقال لكندة: اكفونا الأشعرين...

«فاقتتلوا قتالًا شديدًا إلى المساء...

«وقاتلهم الأشتر في همدان وطوائف من الناس...

«فأزال أهل الشام... عن مواضعهم...

«حتى ألحقهم بالصفوف الخمسة المعقّلة بالعمائم حول معاوية...

«ثمّ حمل عليهم حملة أخرى... فصرع أربعة صفوف من المعقلين بالعمائم...

«حتى انتهوا إلى الخامس... الذي حول معاوية...

«ودعا معاوية بفرسه... فركب...

«وكان يقول: أردتُ أن أنهزم... فذكرتُ قول ابن الإطنابة الأنصاري... وكان جاهليًا:

وقوْلي كلما جشأت وجاشت مكانَكِ تُحمدي أو تستريحي

«قال: فمنعني هذا القول من الفرار...

«ونظر إليّ عمرو... وقال: اليوم صبر... وغدًا فخر...

«فقلت: صدقتَ...»!!!

هذه بطولة الأشتر...

شقَّ الصفوف... وصرَّع أربعة صفوف...

حتى وصل إلى معاوية... واضطره أن يدعو فرسه وأن يركب...

عليّ... في الميمنة؟!

«فلمّا رأى عليّ... ميمنة أصحابه... قد عادت إلى مواضعها ومواقفها... وكشفت من بإزائها من عدوّها... حتى ضاربوهم في مواقفهم ومراكزهم...

«أقبل حتى انتهى إليهم... فقال:

«إني قد رأيتُ جولتكم عن صفوفكم... يحوزكم الجفاة الطغام... وأعراب الشام... وأنتم لهاميم العرب... والسّنام الأعظم... وعُمّار الليل بتلاوة القرآن... وأهل دعوة الحقّ...

«فلولا إقبالكم بعد إدباركم... وكرّكم بعد انحيازكم... لوجب عليكم ما يجب على المولّي يوم الزحف دبره... وكنتم من الهالكين...

«ولكن هوّن وجدي... وشفى أُحاح نفسي.. أني رأيتكم بأخرة حزتموهم

كما حازوكم... وأزلتموهم عن مصافهم كما أزالوكم... تركب أولاهم أخراهم... كالإبل المطرودة الهيم...

«فالآن فاصبروا... فقد نزلت عليكم السكينة... وثبتكم الله باليقين... ليعلم المنهزم أنه مسخط ربه... وموبق نفسه...»!!!

في أشقّ اللحظات... والحرب مشتعلة... يقف أمير المؤمنين... يثبت أصحابه... ويوجّههم إلى ما ينفعهم!!!

عبيد الله بن عمر بن الخطّاب... يقاتل... ابن عباس؟!

«وخرجتْ حِمير في جمعها... ومن انضمّ إليها من أهل الشام...

«ومقدمهم ذو الكَلاع...

«ومعه عبيد الله بن عمر بن الخطّاب...

«وهم ميمنة أهل الشام... فقصدوا ربيعة من أهل العراق...

«وكانت ربيعة ميسرة أهل العراق...

«وفيهم ابن عباس... على الميسرة...

«فحملوا على ربيعة حملة شديدة...

«فتضعضعت راية ربيعة... فانصرف أهل الشام عنهم...

«ثم كرّ عبيد الله بن عمر... وقال:

«يا أهل الشام... إن هذا الحيّ... من أهل العراق... قتلة عثمان... وأنصار عليّ...

«فشدوا على الناس شدةً عظيمة...

«فثبتت ربيعة... وصبروا صبرًا حسنًا... إلّا قليلًا من الضعفاء...»!

هكذا بلغت الفتنة... أن ابن عمر... يشعل النار... ويحارب ابن عباس... أشد المحاربة!!!

عمّار بن ياسر... على رأس... أصحاب رسول الله؟!

«وخرج عمّار بن ياسر... على الناس... فقال:

«**اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلته...**

«**اللهم إنّك تعلم أنّي لو أعلم أن رضاك في أن أضع ظُبةَ سيفي في بطني ثم أنحني عليها حتى تخرج من ظهري لفعلته...**

«**وإني لا أعلم اليومَ عملًا هو أرضى لك من جهادِ هؤلاء الفاسقين...**

«**ولو أعلم عملًا هو أرضى لكَ منه لفعلته...**

«**والله إني لأرى قومًا ليضرُبنّكم ضربًا يرتاب منه المبطلون...**

«**وأيم الله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سَعَفات هَجَر... لعلمتُ أنّا على الحقّ... وأنهم على الباطل...**

«**ثم قال:**

«**من يبتغي رضوان الله ربه... ولا يرجع إلى مال ولا ولد؟..**

«فأتاه عصابة...

«**فقال: اقصدوا بنا هؤلاء القوم... الذين يطلبون دم عثمان...**

«**والله ما أرادوا الطلب بدمه... ولكنهم ذاقوا الدنيا.... واستحبّوها...**

«**وعلموا أن الحق إذا لزمهم... حال بينهم وبين ما يتمرّغون فيه منها...**

«**ولم يكن لهم سابقة... يستحقون بها طاعة الناس... والولاية عليهم...**

«**فخدعوا أتباعهم... وإن قالوا: إمامنا قُتل مظلومًا...**

«**ليكونوا بذلك جبابرة ملوكًا...**

«**فبلغوا ما ترون... فلولا هذه ما تبعهم من الناس رجلان...**

«**اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت...**

«**وإن تجعل لهم الأمر فادّخر لهم بما أحدثوا في عبادك العذاب الأليم...**

«ثم مضى... ومعه تلك العصابة...

«**فكان لا يمرّ بوادٍ من أودية صِفّين...**

«إلّا تبعه.. من كان هناك من أصحاب النبي... (ﷺ)...»!!!

رضي الله عنه وأرضاه!!!

إنه يتقدم إلى الموت... على رأس... أصحاب النبي... (ﷺ)!!!

عمّار... يقول: تقدّم يا هاشم؟!

«ثم جاء إلى... هاشم بن عُتبة بن أبي وقّاص... وكان صاحب راية عليّ... وكان أعور...

«فقال يا هاشم... أعَوَرًا وجُبْنًا..؟

«لا خير في أعور... لا يغشى البأس...

«اركب يا هاشم...

«فركب... ومضى معه... وهو يقول:

أعـوَرُ يـبـغـي أهـلَـه مـحـلّا   قد عـالَـج الـحـياةَ حـتـى مَـلّا

لا بُـدّ أن يَـفُـلّ أو يُـفـلّا   يـتُـلُّـهـم بـذي الـكـعـوبِ تَـلّا

«وعمّار يقول:

«تقدّم يا هاشم...

«الجنة تحت ظلال السيوف... والموت تحت أطراف الأسل...

«وقد فُتحت أبوابُ السماء... وتزينت الحور العين...

«اليوم ألقى الأحبّة... محمدًا وحزبه...»!!!

إنّ صاحب رسول الله... (ﷺ)... يرى الجنّة عيانًا... ويشتاق إلى رؤية رسول الله...

صلى الله عليه وسلم!!!

يا عمرو... بعتَ دينَكَ... بمصر؟!

«وتقدّم حتى دنا... من عمرو بن العاص... فقال له:

«يا عمرو... بعتَ دينَك... بمصر..

«تبًّا لك!.

«فقال له: لا... ولكن أطلب بدم عثمان!..

«قال: أنا أشهد على علمي فيك... أنك لا تطلب بشيء من فعلك... وجهَ الله...

«وأنك إن لم تُقتل اليوم... تمتْ غدًا...

«فانظر إذا أُعطي الناس على قدر نياتهم... ما نيتك؟...

«لقد قاتلت صاحب هذه الراية ثلاثًا... مع رسول الله... (ﷺ)...

«وهذه الرابعة... ما هي بأبرَّ وأتقى...

«ثم قاتل عمّار.. فلم يرجع... وقُتل...»!!!

لو أنّ عمّارًا.. قتله أهل الأرض كلهم...
لدخلوا كلهم النار؟!

«قتله أبو الغازية...

«واحتزّ رأسه ابن حُوَيّ...

«قيل: إن أبا الغازيّة... قتل عمّارًا... وعاش إلى زمن الحجّاج... ودخل عليه فأكرمه الحجّاج... وقال له: أنتَ قتلتَ ابن سميّة؟.. يعني عمّارًا...

«قال: نعم...

«فقال: مَن سرّه أن ينظر إلى عظيم الباع يوم القيامة... فلينظر إلى هذا الذي قتل ابن سميّة...

«ثم سأله أبو الغازيّة حاجته... فلم يجبه إليها...

«فقال: نوطىء لهم الدنيا ولا يعطونا منها... ويزعم أني عظيم الباع يوم القيامة؟!..

«فقال الحجّاج:

«أجل والله... من كان ضرسه مثل أُحُد.. وفخذه مثل جبل ورقان... ومجلسه مثل المدينة والربَذة... إنه لعظيم الباع يوم القيامة...

«والله لو أنّ عمّارًا... قتله أهل الأرض كلهم... لدخلوا كلهم النار...»!!!
هذا تقرير الحجّاج... وهو ما هو من الشرّ...
ولكنه يدرك أن قتل عمّار... إحدى الكُبَر!!!

معاوية يتبرأ... من الجريمة؟!

«وقال عبد الرحمن السُّلَمي:
«لما قُتل عمّار... دخلتُ عسكر معاوية... لأنظر: هل بلغ منهم قتلُ عمّار ما بلغ منّا!؟..
«وكنّا إذا تركنا القتال تحدثوا إلينا وتحدثنا إليهم...
«فإذا معاوية وعمرو وأبو الأعور وعبدالله بن عمرو يتسايرون...
«فأدخلتُ فرسي بينهم لئلّا يفوتني ما يقولون...
«فقال عبد الله لأبيه: يا أبه... قتلتم هذا الرجل في يومكم هذا...
«وقد قال رسول الله... (ﷺ)... ما قال.
«قال: وما قال؟..
«قال: ألم يكن المسلمون ينقلون في بناء مسجد النبي... (ﷺ)... لبنة لبنة... وعمّار لبنتين لبنتين... فغشي عليه...
«فأتاه رسول الله... (ﷺ)... فجعل يمسح التراب عن وجهه... ويقول:
«ويحك يابن سمية...
«الناس ينقلون لبنةً لبنة... وأنت تنقل لبنتين لبنتين... رغبة في الأجر...
«وأنت مع ذلك... تقتلك الفئة الباغية...
«فقال عمرو لمعاوية: أما تسمع ما يقول عبد الله؟...
«قال: وما يقول؟..
«فأخبره...
«فقال معاوية: **أنحن قتلناه؟... إنما قتله من جاء به...**
«فخرج الناس من فساطيطهم وأخبيتهم يقولون: إنما قتل عمّارًا من جاء به...

«فلا أدري من كان أعجب... أهو أم هم!؟...»!!!

معاوية... يفرّ من مبارزة... عليّ؟!

«فلمّا قُتل عمّار...

«قال عليّ... لربيعة وهمدان: **أنتم درعي ورمحي...**

«فانتدب له نحو من اثني عشر....

«وتقدمهم عليّ... على بغلة...

«فحملوا معه حملة رجل واحد...

«فلم يبقَ لأهل الشام صفّ... إلّا انتقض... وقتلوا كلّ من انتهوا إليه...

«حتى بلغوا معاوية... وعليّ يقول:

أقتلهُم ولا أرى معاويَه الجاحظَ العينِ العظيمَ الحاويه

«ثم نادى معاوية... فقال:

«علامَ يُقتل الناس بيننا؟..

«هلمّ أحاكمك إلى الله... فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور...

عَمْرو يقول لمعاوية: أنصَفك؟!

«فقال له عمرو: أنصفَك...

«فقال له معاوية: ما أنصفت... إنّك لتعلم أنّه لم يبرز إليه أحد إلّا قتله...

«فقال له عمرو: ما يحسن بك ترك مبارزته...

«فقال له معاوية: **طمعتَ فيها بعدي؟!...»!!!**

شجاعة... ليس كمثلها شجاعة؟!

«وكان أصحاب عليّ... قد وكلوا به رجلين... يحافظانه... لئلّا يقاتل...

«وكان يحمل إذا غفلا...

«فلا يرجع حتى يخضب سيفه...
«وإنه حمل مرّة... فلم يرجع حتى انثنى سيفه...
«فألقاه إليهم.... وقال:
«لولا أنه انثنى... ما رجعتُ إليكم...
«فقال الأعمش لأبي عبد الرحمن: هذا والله ضرب غير مرتاب...
«فقال أبو عبد الرحمن: سمع القوم شيئًا فأدّوه... ما كانوا كاذبين..»
عليه السلام... أصحابه يحاولون منعه من مباشرة القتال بنفسه...
وهو عليه السلام... يغافلهم... ويقاتل ويقاتل... فلا يرجع حتى يخضب سيفه...
وحمل مرّة... فلم يرجع حتى انثنى سيفه... فألقاه إليهم... وقال كلمته الخالدة:
لولا... أنه انثنى... ما رجعت إليكم؟!!!

ماذا كانوا يقولون... لأهل الشام؟!

نحن الآن أمام أثر خطير للغاية... يتبين منه أن حرب الدعاية عملت عملها بين صفوف أهل الشام... وأنهم خدعوهم... وزوّروا عليهم الحقائق... وساقوهم سوقًا إلى المعركة...

فكيف كان ذلك؟!..

«فبينما هم كذلك... إذ خرج عليهم شاب... وهو يقول:

نبّأنا قرّاؤنا بما كان... أنَّ عليًّا قتل ابنَ عفّانْ

«ثم يحمل... فلا يرجع حتى يضرب بسيفه... ويشتم ويلعن...

«فقال له هاشم: يا هذا إن هذا الكلام بعده الخصام... وإن هذا القتال بعده الحساب... فاتّق الله فإنه سائلك عن هذا الموقف وما أردت به...

«قال: فإني أقاتلكم لأن صاحبكم... يصلّي وأنتم لا تصلّون...

«وإن صاحبكم قتل خليفتنا... وأنتم ساعدتموه على قتله...

«فقال له هاشم: ما أنت وعثمان؟... قتله أصحاب رسول الله... (ﷺ)...

وأبناء أصحابه... وقرّاء الناس... وهم أهل الدين والعلم... وما أُهمل أمر هذا الدين طرفة عين...

«وأمّا قولك: إنَّ صاحبنا لا يصلّي...

«فإنه أوّل مَن صلّى... وأفقه خلق الله في دين الله... وأولى بالرسول... (ﷺ)...

«وأمّا كلّ من ترى معي... فكلهم قارئ لكتاب الله... لا ينام الليل تهجّدًا...

«فلا يغوينك هؤلاء الأشقياء...

«فقال الفتى: فهل لي من توبة؟..

«قال: نعم... تب إلى الله... يتب عليك... فإنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات...

«فرجع الفتى...

«فقال له أهل الشام: خدعك العراقي!..

«فقال: كلا...، ولكن نصح لي...».!!!

هذا في رأيي... أثر خطير للغاية...

إنهم لعبوا بعقول الشباب... وصوّروا لهم عليًّا... أنه قتل عثمان... وأن مَن معه ساعدوا على قتله...

وأفهموهم أن عليًّا... لا يُصلّي!!! وأن من معه لا يُصلون!!!

فأشعلوا الشباب... من وتَر حساس... وتَر الدين والثورة للحفاظ على الدين...

والشباب شعلة من الجنون...

فثار الفتى... وخرج معهم... يقاتل عليًّا... الذي لا يُصلّي؟!!

وهذه الألاعيب... من العبث بالدين... واتخاذه مطية يلعب بها الحكّام... للتأثير على الجماهير...

داء عُضال... هو من أخطر الأسباب... التي أدَّت إلى تمزق هذه الأمّة إلى ما شاء الله!!!

ليلة... الهرير؟!

«فاقتتل الناس... تلك الليلة كلّها... إلى الصباح...

«وهي ليلة الهرير...

«فتطاعنوا حتى تقصّفت الرماح...

«وترامو حتى نفد النّبل...

«وأخذوا السيوف...

«وعليّ يسير... فيما بين الميمنة والميسرة...

«ويأمر كلّ كتيبة... أن تقدم على التي تليها...

«فلم يزل يفعل ذلك... حتى أصبح... والمعركة كلها خلف ظهره...

«والأشتر في الميمنة...

«وابن عباس في الميسرة...

«وعلي في القلب...

«والناس يقتتلون من كلّ جانب...

«وذلك يوم الجمعة...

«وأخذ الأشتر يزحف بالميمنة ويقاتل فيها... وكان قد تولاها عشية الخميس وليلة الجمعة إلى ارتفاع الضحى...

«ويقول لأصحابه: ازحفوا قيد هذا الرمح... ويزحف بهم نحو أهل الشام...

«فإذا فعل ذلك بهم... قال: ازحفوا قيد هذه القوس... فإذا فعلوا سألهم مثل ذلك... حتى ملّ أكثر الناس الإقدام...»!!!

الأشتر... ينتزع النصر؟!

«فلمّا رأى الأشتر ذلك... قال: أعيذكم بالله أن ترضعوا الغنم سائر اليوم!.

«ثم دعا بفرسه فركبه... وترك رايته مع حيّان بن هوذة...

«وخرج يسير في الكتائب ويقول: من يشتري نفسه... ويقاتل مع الأشتر... حتى يظهر أو يلحق بالله؟..

«فاجتمع إليه ناس كثير... فيهم حيّان بن هوذة وغيره...

«فرجع إلى المكان الذي كان فيه... وقال لهم: **شدّوا شدّة... فِدًى لكم خالي وعمّي... تُرضون بها الرب... وتُعِزون بها الدين!...**

«ثم نزل... وضرب وجه دابته... وقال لصاحب رايته: أقدم بها...

«وحمل على القوم... وحملوا معه...

«فضرب أهل الشام... حتى انتهى بهم إلى عسكرهم...

«ثم قاتلوه عند العسكر قتالًا شديدًا...

«وقُتل صاحب رايته...»!!!

لقد انتزع الأشتر النصر...

وقرر مصير المعركة!!!

«ولما رأى عليّ... الظفر من ناحيته... أمده بالرجال...

«واشتدّ القتال...»!!!

أخطر لعبة سياسية...
عَمْرو يدعو إلى...
رفع المصاحف...
والدعوة إلى التحكيم...؟!!

عمرو بن العاص... يلعب ألعوبته؟!

«فلمّا رأى عمرو... أن أمر أهل العراق قد اشتدّ... وخاف الهلاك... قال لمعاوية:

«هل لك في أمر أعرضه عليك... لا يزيدنا إلّا اجتماعًا... ولا يزيدهم إلّا فُرقة؟..

«قال: نعم...

«قال: نرفع المصاحف... ثم نقول لما فيها: هذا حكم بيننا وبينكم...

«فإن أبى بعضهم أن يقبلها... وجدتَ فيهم من يقول: ينبغي لنا أن نقبل...

«فتكون فرقة بينهم...

«وإن قبلوا ما فيها... رفعنا القتال عنّا إلى أجَل...؟!!

هذه خدعة عمرو... والحرب خدعة...

وهي ألعوبة خبيثة غاية الخبث... حققت كل أهدافها وزيادة!!!

عليّ... ينصح... ولا يلتفتون إلى النصيحة؟!

«فرفعوا المصاحف بالرماح...

«وقالوا: هذا حكم كتاب الله... عزّ وجل... بيننا وبينكم...

«مَن لثغور الشام بعد أهله؟..

«مَن لثغور العراق بعد أهله...؟»!!

سيمفونية مؤثرة في النفوس... مَن يحمي الشام إذا أفنيتمونا... فدخل الأعداء واستولوا عليه بعد إفنائنا؟..

مَن يحمي العراق إذا أفنيناكم... فدخل الفُرس ليثأروا واستولوا عليه؟!..

كلام جميل... ودعوة إلى التعقل... بدلًا من السيف...

وكان لهذا الانقلاب المفاجىء في سياسة معاوية... تأثير سريع جدًا... في صفوف أصحاب عليّ... فماذا حدث؟!..

«فلما رآها الناس... قالوا:

«نجيب إلى كتاب الله...

«فقال لهم عليّ:

«عبادَ الله... امضوا على حقكم... وصدقكم... وقتال عدوكم...

«فإن معاوية... وعَمرًا... وابن أبي معيط... وحبيبًا... وابن أبي سرح... والضحاك... ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن...»!!!

تحذير واضح... من أمير المؤمنين... لهؤلاء الذين خدعتهم خدعة رفع المصاحف على الرماح...

ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن؟!!

هذه المصاحف التي رفعوها أمام أعينكم خداعًا... ليسوا ممن ينزلون على حُكم القرآن... وإلّا لما كان هناك صراع... احذروا...

وواصل أمير المؤمنين تحذيره:

«أنا أعرف بهم منكم...

«قد صحبتهم أطفالًا... ثم رجالًا... فكانوا شرّ أطفال... وشرّ رجال...

«ويحكم... والله ما رفعوها... إلّا خديعةً... ووهنًا... ومكيدة...»!!!

كل ما قاله أمير المؤمنين حقيقة...

وإنه لا ينطق إلّا بالحقيقة...

ولكن الموجة التي موّجها عمرو... كانت قد رجّت العقول رجًا... إلّا العقلاء!!!

يا عليّ... أجب... إلى كتاب الله؟!

«فقالوا له: لا يسعنا أن نُدعى إلى كتاب الله... فنأبى أن نقبله!..

«فقال لهم عليّ:

«فإنّي إنما أقاتلهم... ليدينوا لحكم الكتاب...

«فإنهم قد عصَوا الله فيما أمرهم... ونسوا عهده... ونبذوا كتابه!..

«فقال له مِسْعَر بن فَدكي التميمي... وزيد بن حُصين الطائي... في عصابة من القراء... الذين صاروا خوارج بعد ذلك:

«يا عليّ... أجب إلى كتاب الله عزّ وجل... إذ دُعيت إليه...

«وإلّا دفعناك برمتك إلى القوم!!!

«أو نفعل بك... ما فعلنا بابن عفّان!!..»؟!

أغلظ الخوارج القول... بل هدّدوه إن لم يستجب أن يقذفوه إلى معاوية...

أو يقتلوه ويمزقوه... كما مزّقوا عثمان؟!!

انشقاق خطير في صفوف عليّ...

إن كوكبة من القراء... أي من العلماء... أي من القادة... تقود الثورة... وتهدد عليًّا تهديدًا سافرًا...

إما الإستجابة... وإما تسليمه إلى أعدائه... أو قتله والتمثيل بجثته... كابن عفّان؟!..

وتموّجت موجة الظلمات... التي موجّها عمرو... في الصفوف...

فماذا قال أمير المؤمنين... في مواجهة ذلك الموقف العصيب؟!!!

فإن تطيعوني... فقاتلوا؟!

«قال:

«فاحفظوا عني... نهيي إيّاكم... واحفظوا مقالتكم لي...

«فإن تطيعوني... فقاتلوا...

«وإن تعصوني... فاصنعوا ما بدا لكم...»!!!

إن أمير المؤمنين يرى المضي في القتال حتى النصر... وقد ترجحت الكفة... وأصبح النصر وشيكًا...

فمن العقل عدم إطفاء الحرب في لحظة تأكدت فيها هزيمة معاوية!!!

الخوارج... يطلبون سحب الأشتر... ووقف القتال؟!

«قالوا: ابعث إلى الأشتر... فليأتك...»!!!

أي أحضِر قائد القتال... وامنعه من مواصلة القتال...

مطلب قبيح فيه إعنات وتعنت وتهديد صريح!!!

«فبعث عليّ... يزيدَ بن هانىء... إلى الأشتر... يستدعيه...

«فقال الأشتر: ليست هذه الساعة... بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي...

«إنّني قد رجوتُ أن يفتح الله لي!..

«فرجع يزيد... فأخبره...

«وارتفعت الأصوات...

«وارتفع الرهج من ناحية الأشتر...

«فقالوا: والله ما نراك إلّا أمرته أن يقاتل!..

«فقال عليّ:

«هل رأيتموني ساررته؟..

«أليس كلّمته على رؤوسكم وأنتم تسمعون؟...»!!!

الخوارج يهدّدون... عليًا... بالقتل؟!

«قالوا: فابعث إليه... فليأتك... وإلّا والله... اعتزلناكَ!..

«فقال له: ويلك يا يزيدا..

«قل له: أقبل إليّ... فإن الفتنة قد وقعت...

«فأبلغه ذلك...
«فقال الأشتر:
«ألرفع المصاحف؟!..
«قال: نعم...
«قال: والله لقد ظننت أنها ستوقع اختلافًا وفُرقة!..
«إنها مشورة ابن العاهر!..
«ألا ترى إلى الفتح؟!..
«ألا ترى ما يلقون؟!..
«ألا ترى ما صنع الله لنا؟!..
«لا ينبغي أن أدع هؤلاء!..
«وأنصرف عنهم...
«فقال له يزيد: **أتحبّ أن تظفر... وأمير المؤمنين يسلم إلى عدوه... أو يُقتل؟..»!!!**

إنَّ يزيد يلح على الأشتر... أن يستجيب إنقاذًا للموقف العصيب!!!
«قال: لا والله... سبحان الله!..
«فأعلمه بقولهم...
«فأقبل إليهم الأشتر...»!!!

واضطر القائد المظفر... الذي بينه وبين النصر لحظات... أن يترك المعركة... ويذهب إلى حيث يتجمع الخوارج... ويهددون أمير المؤمنين... فماذا قال لهم؟!..

يا أهل العراق؟!

«وقال:
«يا أهل العراق!..
«يا أهل الذُل والوهن!..
«أحين علوتم القومَ... وظنوا أنكم لهم قاهرون... رفعوا المصاحف يدعونكم

إلى ما فيها... وهم والله قد تركوا ما أمر الله به فيها... وسنّة من أُنزلت عليه؟!..

«فأمهلوني فُواقًا... فإني قد أحسستُ بالفتح...

«قالوا: لا...

«قال: أمهلوني عدو الفرس... فإني قد طمعتُ في النصر...

«قالوا: إذن ندخل معك في خطيئتك...

«قال: فخبروني عنكم متى كنتم محقين؟.. أحين تقاتلون وخياركم يُقتلون؟..

«فأنتم الآن إذ أمسكتم عن القتال مبطلون أم أنتم الآن محقون؟..

«فقتلاكم الذين لا تنكرون فضلهم وهم خير منكم في النار!...

«قالوا: دعنا منك يا أشتر... قاتلناهم لله... وندع قتالهم لله...»!!!

يا أصحاب الجباه... السود؟!

قال:

«خُدعتم فانخدعتم...

«ودُعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم...

«يا أصحاب الجباه السود!..

«كنّا نظن صلاتكم زهادة في الدنيا... وشوقًا إلى لقاء الله... فلا أرى مرادكم إلّا الدنيا...

«ألا قبحًا يا أشباه النِّيب الجلّالة!..

«ما أنتم برائين بعدها عزًّا أبدًا... فابعدوا كما بَعُد القوم الظالمون!..

«فسبوه... وسبّهم... وضربوا وجه دابته بسياطهم... وضرب وجوه دوابهم بسوطه...

«فصاح به... وبهم... عليّ... فكفوا...

«وقال الناس: قد قبلنا أن نجعل القرآن بيننا وبينهم حكمًا...»!!!

وضاع تحذير أمير المؤمنين...

وذهب رجاء الأشتر مع الريح...
ومال الناس إلى التحكيم...
فليهنأ معاوية... وليضحك عمرو عاليًا...
وليسعد داهية العرب... وليسعد أرطبون العرب!!!

لأيّ شيء... رفعتم... هذه المصاحف؟!

«فجاء الأشعث بن قيس إلى عليّ...
فقال: أرى الناس قد رضوا بما دعوهم إليه من حكم القرآن... فإن شئتَ أتيتُ معاوية.... فسألته: ما يريد؟..
«**قال: ائته...**
«فأتاه... فقال لمعاوية: لأيّ شيء رفعتم هذه المصاحف؟..
«**قال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه...**
«**تبعثون رجلًا ترضون به... ونبعث نحن رجلًا نرضى به...**
«**نأخذ عليهما أن يعملا في كتاب الله... لا يعدوانه... ثم نتّبع ما اتفقا عليه...**
«قال له الأشعث: هذا الحقّ...
«فعاد إلى عليّ... فأخبره...
«فقال الناس: قد رضينا وقبلنا...»!!

عصيتموني أوّل الأمر... فلا تعصوني الآن؟!

«فقال أهل الشام: قد رضينا عَمرًا...
«وقال الأشعث... وأولئك القوم الذين صاروا خوارج: إنّا قد رضينا بأبي موسى الأشعري...
«**فقال عليّ:**
«**قد عصيتموني في أوّل الأمر... فلا تعصوني الآن...**

«لا أرى أن أولي أبا موسى...

«فقال الأشعث... وزيد بن حُصَين... ومِسْعَر بن فَدَكي: **لا نرضى إلّا به... فإنه قد حذّرنا ما وقعنا فيه...**

«قال عليّ: فإنّه ليس بثقة... قد فارقني... وخذّل الناس عني... ثم هرب مني... حيث آمنته بعد أشهر...

«ولكن هذا ابن عباس... أوليه ذلك...

«قالوا: والله... لا نبالي أنت كنت... أم ابن عباس!..

«لا نريد إلّا رجلًا... هو منك ومن معاوية سواء...

«قال عليّ: فإني أجعل الأشتر...

«قالوا: وهل سعّر الأرض غير الأشتر؟!..

«فقال: قد أبيتم إلّا أبا موسى؟..

«قالوا: نعم...

«قال: فاصنعوا ما أردتم...»!!!

حتى في اختيار الحكَم... فرضوا عليه أبا موسى...

فاضطرّ أن ينزل على رأيهم!!!

بلاء شديد شديد!!!

ارمني بعمرو لأقتله؟!

«فبعثوا إليه... وقد اعتزل القتال وهو بعُرْض...

«فأتاه مولى له... فقال: إن الناس قد اصطلحوا...

«فقال: الحمد لله...

«قال: قد جعلوك حَكَمًا...

«قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون...

«وجاء أبو موسى... حتى دخل العسكر...

«وجاء الأشتر عليًا... فقال: ارمني بعمرو بن العاص... فوالله لئن ملأتُ عيني

منه... لأقتلنّه...

«وجاء الأحنف بن قيس... فقال: يا أمير المؤمنين... إنّما قد رُميت بحجر الأرض... وإني قد عجمت أبا موسى... وحلبتُ أشطره... فوجدته كليل الشفرة... قريب القعر...

«وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلّا رجل يدنو منهم حتى يصير في أكفّهم... ويبعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم...

«فإن أبيت أن تجعلني حَكَمًا... فاجعلني ثانيًا أو ثالثًا...

«فإنه لن يعقد عقدة إلّا حللتها... ولا يحلّ عقدة أعقدها لك... إلّا عقدتُ أخرى أحكم منها...

«فأبى الناس إلّا أبا موسى... والرضا بالكتاب...

«فقال الأحنف: إن أبيتم إلّا أبا موسى... فأدفئوا ظهره بالرجال...»!

هؤلاء هم المستشارون الأمناء...

إنهم يحسون الخطر... ويرون أبا موسى... رجلًا سطحيًا لا يصلح لأخطر مهمة... وأخطر قضية!!!

وضاعت توصياتهم هباء... في هدير الجماهير!..

هو أميركم... وأمّا أميرنا فلا؟!

«وحضر عمرو بن العاص... عند عليّ...

«ليكتب القضية بحضوره... فكتبوا:

«بسم الله الرحمن الرحيم...

«هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين...

«فقال عمرو: اكتب اسمه واسم أبيه... هو أميركم... وأمّا أميرُنا فلا...

«فقال الأحنف: لا تمْحُ اسم إمارة المؤمنين... فإني أخاف إن محوتها... أن لا ترجع إليك أبدًا... لا تمحها... وإن قتل الناس بعضهم بعضًا...

«فأبى ذلك عليّ... مليًّا من النهار...

«ثم إن الأشعث بن قيس قال: امحُ هذا الاسم... فمُحي...

«فقال عليّ:

«الله أكبر!.. سُنّة بسُنّة...

«والله إني لكاتب رسول الله... (ﷺ)... يوم الحُديبية فكتبت: محمد رسول الله... وقالوا: لستَ برسول الله... ولكن اكتب اسمك واسم أبيك...

«فأمرني رسول الله... (ﷺ)... بمحوه...

«فقلتُ: لا أستطيع...

«فقال: أرنيه... فأريته... فمحاه بيده...

«وقال: إنّك ستدعى إلى مثلها فتجيب...

«فقال عمرو: سبحان الله!..

أنشبَّه بالكفار ونحن مؤمنون؟!.

«فقال عليّ: يابن النابغة... ومتى لم تكن للفاسقين وليًّا... وللمؤمنين عدوًّا؟..

«فقال عمرو: والله لا يجمع بيني وبينك مجلس بعد هذا اليوم أبدًا...

«فقال عليّ: إني لأرجو أن يطهّر اللّهُ مجلسي منك ومن أشباهك..»!!

وكُتب... الكتاب؟!

«هذا ما تقاضى عليه... عليّ بن أبي طالب... ومعاوية بن أبي سفيان...

«قاضى عليّ... على أهل الكوفة ومن معهم...

«وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم...

«إننا ننزل عند حكم الله وكتابه...

«وأن لا يجمع بيننا غيره...

«وأن كتاب الله بيننا... من فاتحته إلى خاتمته...

«نحيي ما أحيا... ونميت ما أمات...

«فما وَجَد الحكمان في كتاب الله... وهما أبو موسى عبدالله بن قيس... وعمرو

ابن العاص... عملا به...

«وما لم يجداه في كتاب الله... فالسنّة العادلة الجامعة غير المفرّقة...

«وأخذ الحكَمان من عليّ ومعاوية... ومن الجندين... من العهود والمواثيق...

«أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما...

«والأمة لهما أنصار... على الذي يتقاضيان عليه...

«وعلى عبدالله بن قيس... وعمرو بن العاص... عهد الله وميثاقه... أن يحكما بين هذه الأمة... لا يرداها في حرب... ولا فُرقة.... حتى يُعصيا...

«وأجل القضاء إلى رمضان...

«وإن أحبّا أن يؤخرا ذلك أخراه...

«وإن مكان قضيتها مكان عدل... بين أهل الكوفة وأهل الشام...»!

هذه نصوص المعاهدة...

وهؤلاء هم الشهود... من الطرفين...

«وشهد الأشعثُ بن قيس... وسعيد بن قيس الهمداني... ووقاء بن سُمَيّ البَجَلي... وعبدالله بن مُحلّ العِجلي... وحجر بن عدي الكندي... وعبدالله بن الطّفيل العامري... وعقبة بن زياد الحضرمي... ويزيد بن حُجيّة التميمي... ومالك ابن كعب الهمداني...

«ومن أصحاب معاوية:

«أبو الأعور السلمي... وحبيب بن مسلمة... وزِمْل بن عمرو العُذري... وحُمرة ابن مالك الهمداني... وعبد الرحمن بن خالد المخزومي... وسُبَيْع بن يزيد الأنصاري... وعتبة بن أبي سفيان... ويزيد بن الحُرّ العبسي...»!!!

لقد أصبحت المعاهدة... وثيقة تاريخية مقدسة... ينزل الجميع عليها ويلتزم الجميع بتنفيذ ما يراه الحكَمان!!!

الأشتر... يرفض... المعاهدة؟!

«وقيل للأشتر... ليُكتب فيها...

«فقال: لا صحبتني يميني... ولا نفعتني بعدها شمالي... إن خُط لي في هذه الصحيفة اسم على صُلح ولا موادعة...

«أوَلستُ على بيّنة من ربي من ضلال عدوّي؟..

«أولستم قد رأيتم الظفر؟...

«فقال له الأشعث: والله ما رأيتُ ظفرًا... هلمّ إلينا لا رغبة بك عنا...

«فقال: بلى والله... الرغبة عنك في الدنيا للدنيا... وفي الآخرة للآخرة... لقد سفك الله بسيفي دماء رجال ما أنت خير عندي منهم ولا أحرم دمًا...

«قال: فكأنما قصع اللّهُ على أنف الأشعث الحُمَم...

«وخرج الأشعثُ بالكتاب يقرأه على الناس...

«حتى مرّ على طائفة من بني تميم... فيهم عُروة بن أُدَيّة... فقرأه عليهم...

«فقال عروة: تحكمون في أمر الله الرجال؟!... لا حُكم إلّا لله!..

«ثم شدّ بسيفه... فضرب به عجز دابّة الأشعث... ضربة خفيفة... واندفعت الدابة...

«وصاح به أصحاب الأشعب... فرجع...

«وغضب للأشعث قومُه... وناس كثير من أهل اليمن...

«فمشى إليه... ناس من تميم فاعتذروا....

«فقبل وشكر...»؟!!.

هناك معارضة قوية للمعاهدة... إلّا أن الأغلبية تميل إليها...

فنزل أمير المؤمنين على رأي الأغلبية!!!

الهُدنة!!

«وكُتب الكتاب... يوم الأربعاء... لثلاث عشرة خلت من صفر.... سنة سبع وثلاثين...

«واتفقوا على أن يوافي أمير المؤمنين عليّ... موضع الحكَمين بدُومة الجندَل... أو بأذرُح... في شهر رمضان...

«وقيل لعلي: إن الأشتر لا يقرّ بما في الصحيفة... ولا يرى إلّا قتال القوم!..

«فقال عليّ: وأنا والله ما رضيتُ... ولا أحببتُ أن ترضوا...

«فإذا أبيتم إلّا أن ترضوا... فقد رضيتُ...

«وإذا رضيتُ... فلا يصلح الرجوع بعد الرضا...

«ولا التبديل بعد الإقرار... إلّا أن يُعصى الله... ويُتعدّى كتابه...

«فقاتلوا مَن ترك أمر الله...

«وأمّا الذي ذكرتم من تركه أمري وما أنا عليه... فليس من أولئك... فلستُ أخاف على ذلك... يا ليت فيكم مثله اثنين!..

«يا ليت فيكم مثله واحدًا... يرى في عدوّي ما أرى... إذًا لخفّت عليّ مؤونتكم... ورجوتُ أن يستقيمَ لي بعض أَوَدكم...

«وقد نهيتكم فعصيتموني... فكنتُ أنا وأنتم... كما قال أخو هوازن:

وهلْ أنا إلّا من غزيّة إنْ غوَتْ غـويتُ وإن ترشُـد غزيّةُ أرشُـدِ

«والله... لقد فعلتم فعلةً... ضعضعت قوةً... وأسقطتْ مُنّةً... وأورثتْ وهنًا وذلةً...

«ولما كنتم الأعلين... وخاف عدوكم الاجتياح... واستحرّ بهم القتل... ووجدوا ألم الجراح...

«رفعوا المصاحف... فدعوكم إلى ما فيها... ليفتنوكم عنهم...

«ويقطعوا الحرب... ويتربّصوا بكم المنون...

«خديعةً... ومكيدةً...

«فأعطيتموهم ما سألوا...

«وأبيتم إلّا أن تُدهنوا وتجيروا...

«وأيم الله... ما أظنكم بعدها... توفقون الرشد... ولا تصيبون باب الحزم...»!!!

إن أمير المؤمنين... يبين كل شيء... من أمر هذه الكارثة...

وقد صارت الأحداث... طبق الأصل مما توقّع...

والله... ما رضيتُ... ولا أحببتُ أن ترضوا؟!!
ولكن... لم يكن له الخيار!!!
فالعدوّ من أمامه... والفتنة في أصحابه!!!

اجتماع...
الحَكَمَيْن...
عَمْرو...
وأبي موسى...؟!

أمير المؤمنين... يرسل نصيحته... إلى عمرو؟!

«ولما جاء وقت اجتماع الحكَمين...

«أرسل عليّ أربعمائة رجل... عليهم شُرَيح بن هانىء...

«وأوصاه أن يقول لعمرو بن العاص:

«إن عليًا يقول لك:

«إن أفضل الناس عند الله عز وجل مَن كان العمل بالحقّ أحب إليه... وإن نقصه من الباطل وإن زاده...

«يا عمرو... والله إنك لتعلم أين موضع الحقّ فلِمَ تتجاهل؟..

«إن أوتيتَ طمعًا يسيرًا... كنتَ لله به ولأوليائه عدوًّا؟!..

«وكأن والله ما أوتيتَ قد زال عنك!..

«ويحك فلا تكن للخائنين خصيمًا... وللظالمين ظهيرًا...

«أما إني أعلم بيومك الذي أنت فيه نادم... وهو يوم وفاتك... تتمنى أنّك لم تُظهر لمسلم عداوة... ولم تأخذ على حُكم رشوة...»!!!

وصية لو وعاها ابن العاص... لنفعته... ولجنَّبَتْه تلك الالتواءات اللولبية التي لَوْلَب فيها الأمور... ولوْلب فيها الأمة كلها وفتنها...

ولكن هيهات هيهات!!!

عَمْرو يستنكف أن يقبل مشورة الإمام؟!

«فلمّا بلغه... تغيّر وجهه... ثم قال:

«متى كنتُ أقبل مشورة عليّ... أو أنتهي إلى أمره... أو اعتدّ برأيه؟!..

«فقال له: وما يمنعك يابن النابغة... أن تقبل... **من مولاك... وسيّد المسلمين... بعد نبيهم... مشورته؟..**

«فقد كان من هو خير منك... أبو بكر... وعمر... يستشيرانه... ويعملان برأيه؟!...

«فقال له: إنّ مثلي لا يكلم مثلك...

«قال شَريح: بأي أبَويك ترغب عني يابن النابغة؟.. أبأبيك الوسط أم بأمّك النابغة؟..

«فقام عنه...

«وأرسل عليّ أيضًا معهم... عبدالله بن عبّاس... ليصلي بهم... ويلي أمورهم...

«ومعهم أبو موسى الأشعري...»!!!

هذا وفد... عليّ... إلى التحكيم...

فماذا فعل معاوية؟!!

«وأرسل معاوية... عمرو بن العاص... في أربعمائة من أهل الشام...

«حتى توافوا من دُومة الجَنَدَل... بأذرح...»!!!

فلمّا... اجتمع... الحَكَمان؟!

«قال عمرو:

«يا أبو موسى... ألستَ تعلم أن عثمان قُتل مظلومًا...

«قال: أشهد...

«قال: ألستَ تعلم أن معاوية... وآل معاوية... أولياؤه؟..

«قال: بلى...

«قال: فما يمنعك منه... وبيته في قريش كما قد علمت؟.. فإن خفتَ أن يقول الناس: ليست له سابقة، فقُلْ وجدته وليّ عثمان الخليفة المظلوم... والطالب بدمه... الحسن السياسة والتدبير... وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله... (ﷺ).... وكاتبه... وقد صحبه... وعرّض له بسلطان...

«فقال أبو موسى: **يا عمرو اتّقِ الله!..**

«فأما ما ذكرت من شرف معاوية... فإنّ هذا ليس على الشرف تولّاه أهله... ولو كان على الشرف لكان لآل أبرهة ابن الصبّاح...

«إنما هو لأهل الدين والفضل...

«مع أني لو كنتُ معطيَه أفضل قريش شرفًا... أعطيتُه عليّ بن أبي طالب...

«وأمّا قولك: إن معاوية وليّ دم عثمان فولّه هذا الأمر... فلم أكن لأولّيه... وأدَع المهاجرين الأولين...

«وأمّا تعريضك لي بالسلطان... فوالله لو خرج معاوية لي من سلطانه كله لما وُلّيتُه... وما كنت لأرتشي في حُكم الله!..

«ولكنك.. إن شئتَ... أحيينا اسم عمر بن الخطّاب... رحمه الله...»!!!

ولم يستطع عمرو... أن يقنع أبا موسى برأيه!!!

يابن العاص... لا تردّنّهم... في فتنة؟!

«قال له عمرو: فما يمنعك من ابني... وأنت تعلم فضله وصلاحه؟..

«فقال: إن ابنك رجلُ صِدق... ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة...

«فقال عمرو: إن هذا الأمر لا يصلح إلّا لرجل يأكل ويطعم...

«وكانت في ابن عمر غفلة...

«فقال له ابن الزبير: افطن... فانتبه!..

«فقال: والله لا أرشو عليها شيئًا أبدًا...

«وقال: يابن العاص... إن العرب قد أسندتْ إليك أمرها... بعدما تقارعوا

بالسيوف... فلا تردّنهم... في فتنة...»!!!

عمرو... يخدع... أبا موسى؟!

«وكان عمرو... قد عوّد أبا موسى أن يقدّمه في الكلام... يقول له: أنتَ صاحب رسول الله... (ﷺ)... وأسنّ مني فتكلّمْ...

«وتعوّد ذلك أبو موسى!..

«وأراد عمرو بذلك كله... أن يقدّمه في خلع عليّ...

«فلمّا أراده عمرو... على ابنه... وعلى معاوية... فأبى...

«وأراد أبو موسى ابن عمر... فأبى عمرو...

«قال له عمرو: خبّرني... ما رأيك؟..

«قال: أرى أن نخلع هذين الرجلين... ونجعل الأمر شورى... فيختار المسلمون لأنفسهم مَن أحبّوا...

«فقال عمرو: الرأي ما رأيت...»!!!

والتقطها عمرو... من فم أبي موسى... وفكّر سريعًا... كيف يستفيد... من رأي أبي موسى...

وأبو موسى... لا يدري... أنه أمام داهية!!!

تقدَّمْ... يا أبا موسى... فتكلَّمْ؟!

«فأقبلا إلى الناس... وهم مجتمعون...

«فقال عمرو: يا أبا موسى... أعلمهم أن رأينا قد اتّفق...

«فتكلم أبو موسى... فقال: إن رأينا قد اتّفق على أمر نرجو أن يُصلح الله به أمر هذه الأمّة...

«فقال عمرو: صدَق... وبرّ...»!!!

هكذا لعب عمرو لعبته...

إنه يثني على أبي موسى... ويؤكد أمام الجميع أنهما قد اتفقا!!!

ثم واصل عمرو... ألعوبته... فقال:

«**تقدّم يا أبا موسى... فتكلّم...**

«فتقدم أبو موسى...

«فقال له ابن عباس: ويحك!..

«والله إني لأظنّه قد خدعك!!!

«إن كنتما اتفقتما على أمر فقدِّمْهُ... فليتكلم به قبلك... ثم تكلّمْ به بعده...

«فإنّه رجلٌ غادر... ولا آمنُ أن يكون قد أعطاك الرضا بينكما... فإذا قمتَ في الناس خالفك...»!!!

وكان أبو موسى... مغَفَّلًا؟!

«وكان أبو موسى مغَفَّلًا... فقال:

«**إنّا قد اتّفقنا...**

«**وقال: أيها الناس... إنّا قد نظرنا في أمر هذه الأمة... فلم نرَ أصلح لأمرها... ولا ألَمّ لشَعثها... من أمر قد أجمع رأيي... ورأي عمرو... عليه...**

«**وهو... أن نخلع عليًا... ومعاوية... ويولّي الناس أمرَهم مَن أحَبّوا...**

«**وإنّي... قد خلعتُ... عليًا... ومعاوية...**

«**فاستقبلوا أمركم... وولّوا عليكم... من رأيتموه أهلًا...**

«ثم تنحّى...»!!!

وسقاها عمرو لأبي موسى...

وأنطقه بما شاء منه!!!

غدرتَ... وفجرتَ؟!

«وأقبل عمرو... فقام... وقال:

«**إنّ هذا... قد قال ما سمعتموه... وخلعَ صاحبه...**

«**وأنا أخلع صاحبَه... كما خلعه...**

«وأثبِّتُ... صاحبي... معاوية...

«فإنه وليّ ابن عفّان... والطالب بدمه... وأحقّ الناس بمقامه..»!

في رأيي... أن هذا الذي أعلنه عمرو... يعتبر أكبر خدعة سياسية... كانت أو تكون...

فإن الأمة الإسلامية ائتمنته على أمرها... فخدعها...

ولو قد أعلن ما اتفقا عليه... لهان الأمر... ولكنه غدَر...!!

إنما مثلك... كمَثلِ الكلبِ...؟!

«فقال سعد: ما أضعفك يا أبا موسى عن عمرو ومكايده!..

«فقال أبو موسى: فما أصنع؟.. وافقني على أمر... ثمّ نزع عنه!!!...

«فقال ابن عباس: لا ذنب لك يا أبا موسى... الذنب لمن قدّمك في هذا المقام...

«قال: غدر فما أصنع؟..

«فقال ابن عمر: **انظروا إلى ما صار أمر هذه الأمّة!..**

«صار إلى رجل ما يبالي ما صنع... وإلى آخر ضعيف!..

«وقال عبد الرحمن بن أبي بكر: لو مات الأشعري قبل هذا اليوم لكان خيرًا له...

«وقال أبو موسى الأشعري لعمرو: لا وفّقك الله... **غدرتَ... وفجرتَ!!!**

«إنما مثلك (كَمَثَل الكلبِ إن تحملْ عليهِ يلهَثْ... أو تتركْهُ يلهَثْ)!!!

«قال عمرو: إنما مثلك (كَمَثل الحمار يحملُ أسفارًا)!!!

«فحمل شُرَيح بن هانيء... على عمرو... فضربه بالسوط...

«وحمل ابن لعمرو... على شريح... فضربه بالسوط أيضًا...

«وحجز الناس بينهم...

«وكان شريح يقول بعد ذلك: ما ندمتُ على شيء ندامتي... على ضرب عمرو بالسوط... ولم أضربه بالسيف...»!!!

أبو موسى... يهرب... إلى مكة؟!

«والتمس أهل الشام... أبا موسى... فهرب إلى مكة...

«ثم انصرف عمرو... وأهل الشام... إلى معاوية...

«فسلّموا عليه بالخلافة...

«ورجع ابن عباس... وشُرَيح... إلى عليّ...

«وكان عليّ إذا صلّى الغداة... يقنتُ فيقول:

«اللهم العنْ... معاوية... وعَمْرًا... وأبا الأعور... وحبيبًا... وعبدالرحمن بن خالد... والضحّاك بن قيس... والوليد...

«فبلغ ذلك معاوية...

«فكان إذا قنت... سبَّ عليًّا... وابن عباس... والحسَن... والحسين... والأشتر...»!!!

وكان أمر الله... قدرًا مقدورًا!!!

عمرو بن العاص
يَـملِـك
مصر؟!

«ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين...

«... مُلك عمرو بن العاص مصر...

«وقتل محمّد بن أبي بكر الصدّيق...

«فسدت مصر... على محمد بن أبي بكر...

«فبلغ ذلك عليًّا: فقال:

«ما لمصر إلّا أحد الرجلين... صاحبنا الذي عزلنا - يعني قيسًا - أو الأشتر...»!!!

تعيين... الأشتر... على مصر؟!

«فلمّا بلغ عليًّا أمر مصر... كتب إلى الأشتر وهو بنصيبين يستدعيه... فحضر عنده...

«فأخبره خبر أهل مصر... وقال:

«ليس لها غيرُك... فاخرجْ إليها...

«فإني لو لم أوصك اكتفيتُ برأيك...

«واستعن بالله... واخلط الشدّة باللين... وارفقْ ما كان الرفق أبلغ... وتشدّد حين لا يغني إلّا الشدّة...

«فخرج الأشتر يتجهّز إلى مصر...»!!!

مؤامرة معاوية... للخلاص... من الأشتر؟!

«وأتت معاوية عيونه بذلك...

«فعظم عليه... وكان قد طمع في مصر...

«فعلم أن الأشتر إن قدمها... كان أشدّ عليه من محمد بن أبي بكر...

«فبعث معاوية إلى المقدّم... على أهل الخراج بالقُلْزُم... وقال له:

«**إن الأشتر قد ولي مصر... فإن كفيتنيه... لم آخذ منك خراجًا ما بقيتُ وبقيتَ...**

«فخرج... حتى أتى القلزم وأقام به...

«وخرج الأشتر من العراق إلى مصر...

«فلما انتهى إلى القلزم استقبله ذلك الرجل... فعرض عليه النزول... فنزل عنده...

«فأتاه بطعام... فلمّا أكل أتاه بشربة من عسل...

«**قد جعل فيه سمًّا... فسقاه إياه... فلما شربه مات...**

«وأقبل الذي سقاه إلى معاوية فأخبره بمهلك الأشتر...

«فقام معاوية خطيبًا... ثم قال:

«**أما بعد... فإنّه كانت لعليّ يمينان... فقُطعتْ إحداهما بصفّين** - يعني عمّار ابن ياسر - **وقُطعت الأخرى اليوم** - يعني الأشتر -...

«فلما بلغ عليًّا موته قال: **إنّا لله وإنّا إليه راجعون!.. على مثله فلتبك البواكي!..»!!!**

عمرو بن العاص... يدخل... مصر؟!

«وكان أهل الشام ينتظرون بعد صِفّين... أمر الحكَمَين...

«فلما تفرقا... بايع أهل الشام معاوية بالخلافة... ولم يزددْ إلّا قوّة...

«واختلف الناس بالعراق على عليّ...

«فما كان لمعاوية همّ إلّا مصر...
«وكان يهاب أهلها لقُربهم منه... وشدّتهم على مَن كان على رأي عثمان...
«وكان يرجو أنّه إذا ظهر عليها... ظهر على حرب عليّ... لعظم خراجها...
«وكان عمرو... صالح معاوية على قتال عليّ... على أنّ له مصر.. طُعمةً ما بقي...

«فأمر عمرو بن العاص... ليتجهّز إليها... وبعث معه ستّة آلاف رجل...
ووصّاه بالتؤدة وترك العجلة...
«وسار عمرو... فنزل أداني أرض مصر...
«فاجتمعت إليه العثمانيّة...»!..

حرق... محمد بن أبي بكر؟!

«فأقام بهم... وكتب إلى محمد بن أبي بكر:
«أمّا بعد... فتنحّ عني بدمك يابن أبي بكر...
«فإني لا أحبّ أن يصيبك مني ظَفَر...
«إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك... وهم مُسلموك... فاخرج منها إني لك من الناصحين...

«وبعث معه كتاب معاوية في المعنى أيضًا... ويتهدّده بقصده حصار عثمان...»!!!

لقد أصبحت مسألة... دم عثمان... ألعوبة سياسية... يهدد بها معاوية خصومه؟!!!

ثم ماذا؟!.. ثم التقى عمرو بجيشه... ومحمد بن أبي بكر بجيشه...
وانتهت المعركة بانتصار عمرو...
«وسار عمرو بن العاص... حتى دخل الفُسطاط...»!!!

وصار مِلكًا على مصر!!!

فماذا كان مصير... محمد بن أبي بكر؟!!

«وخرج معاوية بن خُدَيج... في طلب محمد بن أبي بكر...

«فانتهى إلى جماعة على قارعة الطريق فسألهم عنه... فقال أحدهم: دخلتُ تلك الخربة فرأيت رجلًا فيها جالسًا...

«فقال ابن خُدَيج: هو... هو...

«فدخلوا عليه فاستخرجوه... وقد كاد يموت عطشًا...

«وأقبلوا به نحو الفسطاط...

«فقال لهم محمد بن أبي بكر: اسقوني ماء...

«فقال له معاوية بن خُدَيج: لا سقاني الله... إن سقيتُك قطرةً أبدًا...

«إنكم منعتم عثمان شرب الماء...

«والله لأقتلنّك حتى يسقيك الله من الحميم والغسّاق!..

«فقال له محمد: يابن اليهودية النسّاجة... ليس ذلك إليك... إنما ذلك إلى الله... يسقي أولياءه... ويظمىء أعداءه أنت وأمثالك... أمَا والله لو كان سيفي بيدي ما بلغتم مني هذا...

«ثم قال له: أتدري ما أصنع بك؟.. أُدخلك جوف حمار... ثم أحرقه عليك بالنار...

«فقال محمد: إن فعلتَ بي ذلك فلطالما فعلتم ذلك بأولياء الله... وإني لأرجو أن يجعلها عليك وعلى أوليائك... ومعاوية وعمرو... نارًا تلظّى... كلما خبت زادها الله سعيرًا...

«فغضب منه... وقتله...

«ثم ألقاه في جيفة حمار... ثم أحرقه بالنار...»!!!

الصراع الديني أعنف صراع؟!

ماذا أريد أن أقول؟!!!

أريد أن أقول إن الصراع الديني... هو أخطر وأعنف صراع على الإطلاق...

كلّ يحتز رقبة الآخر... وهو يعتقد أنه على الحقّ... وأنّ خصمه على الباطل...

وهذه مصيبة المصائب... إذا اشتعلت أكلت نيرانها هؤلاء وهؤلاء... لا تفرق النار بين خبيث أو طيّب!!!

التاريخ البشري كله... يعجّ ويضجّ... من الحروب الدينية وآثارها الرهيبة... خُذ مثالًا واحدًا...

الحروب الصليبية... على مدى قرون...

والعالم فريقان يتقاتلان...

فريق يقاتل تحت الصليب...

وفريق يقاتل تحت الهلال...

وكلّ يعتقد أنه على الحقّ... ويريد أن يستشهد على جدران أورشليم... ليدخل الجنّة؟!!!

وتدقّ الطبول في أوروبا... وتخرج الجيوش...

وتدقّ الطبول في الشرق... وتخرج الجيوش...

ويلتقيان... على جوانب القدس... وتسيل دماء الآلاف!!!

وليس سنة أو سنين... ولكن على مدى قرون!!!

ولو قد استعمل الفريقان عقولهم... لتوصّلوا إلى حلّ وسَط....

أنّ الحقّ... شيء نسبي...

يأتي منه كل إنسان... ما يستطيع...

فمن أراد أن يسمو فهو وما شاء...

ومَن عجز عن السمو... فهو وما يستطيع...

لا يعيب هؤلاء على هؤلاء... ولا هؤلاء على هؤلاء...

فهل يمكن للبشرية أن ترضى بهذا حَلًّا لصراعاتها؟!!

أعتقد أنّ ذلك عسير... بل مستحيل...

لأن العقول مختلفة... ومستحيل أن تجمعها على رأي واحد!!!

لقد أثار مني هذه الثورة... تلك الفعلة التي فعلوها... بمحمد بن أبي بكر...

كان يكفي أن يقتلوه... ولكن أحرقوه في جيفة حمار!!!

مؤشر نجد منه الكثير... في تصرفات بعض أهل الأديان... في اليهودية... في المسيحية... في الإسلام... رغم أن الأديان كلها تنهى عن ذلك!!!

فلا تعجب مما حدث... إنه هو الإنسان!!!

أمير المؤمنين يقول: أناديكم... فلا تسمعون لي قوْلًا؟!

«ثم إنّ الحجّاج بن غَزيّة... قدم من مصر... فأخبره بقتل محمد بن أبي بكر... وكان معه...

«وقدم عليه عبد الرحمن بن شبيب من الشام... وكان عينه هناك... فأخبره أن البشارة من عمرو... وردت بقتل محمد... ومُلك مصر... وسرور أهل الشام بقتله...

«فقال عليّ: **أما إن حزننا عليه بقدر سرورهم به... لا بل يزيد أضعافًا!**

«**وقام في الناس خطيبًا... فقال:**

«**ألا إنّ مصر قد افتتحها الفَجَرة أولو الجور... والظّلَمة الذين صدوا عن سبيل الله... وبغوا الإسلام عِوَجًا!..**

«**ألا وإن محمد بن أبي بكر استشهد فعند الله نحتسبه!..**

«**أما والله إن كان كما علمتُ لمن ينتظر القضاء ويعمل للجزاء... ويُبغض شكل الفاجر... ويُحب هدى المؤمن...**

«**إنّي والله ما ألوم نفسي على تقصير...**

«**وإني لمقاساة الحروب لجدير خبير...**

«**وإني لأتقدّم على الأمر... وأعرف وجه الحزم... وأقوم فيكم بالرأي المُصيب...**

«وأستصرخكم معلنًا...

«وأناديكم نداء المستغيث... فلا تسمعون لي قولًا... ولا تُطيعون لي أمرًا... حتى تصير بي الأمور إلى عواقب المساءة...

«فأنتم القوم لا يدرَك بكم الثأر... ولا تنفض بكم الأوتار...

«دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة... فتجرجرتم جرجرة الجمل الأشدق...

«وتثاقلتم إلى الأرض تثاقل من ليست له نيّة في جهاد العدوّ... ولا اكتساب الأجر...

«ثم خرج إلي منكم جُنَيد متذانب... كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون...

«فأفٍّ لكم...

«ثم نزل...»!!!

الخوارج...
يقررون قتل...
عليّ ومعاوية...
وعَمْرو...؟!

في هذه السنة... سنة أربعين...
قُتل عليّ... في شهر رمضان... لسبع عشرة... خلت منه!!!

قرَّرَ الخوارج قتل الثلاثة؟!

«وكان سبب قتله...
«أن عبد الرحمن بن مُلجم المُرادي...
«والبُرَك بن عبد الله التميميّ...
«وعمرو بن بكر التميميّ السعديّ...
«وهم من الخوارج...
«اجتمعوا فتذاكروا أمر الناس... وعابوا عمل وُلاتهم...
«ثم ذكروا أهل النهر فترحّموا عليهم...
«وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم؟..
«فلو شرينا أنفسنا... وقتلنا أئمة الضلالة... وأرحنا منهم البلاد!...
«فقال ابن مُلجم: أنا أكفيكم عليًّا...
– وكان من أهل مصر –...
«وقال البُرَك بن عبد الله: أنا أكفيكم معاوية...
«وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص...»!!!

فائقة الجمال... تطلب مهرها... قَتْل عليّ؟!

«فتعاهدوا أن لا ينكص أحدهم عن صاحبه الذي توجّه إليه... حتى يقتله... أو يموت دونه...

«وأخذوا سيوفهم... فسمّوها...

«واتّعدوا لسبع عشرة من رمضان...»!!!

اتفقوا على موعد التنفيذ... في الثلاثة... في وقت واحد... «١٧ رمضان»!!!

«وقصد كل رجل منهم الجهة التي يريد...

«فأتى ابنُ مُلجم... الكوفة...

«فلقي أصحابه بالكوفة... وكتمهم أمره...

«ورأى يومًا أصحابًا له... من تيم الرّباب...

«وكان عليّ قد قتل منهم يوم النهر عدّة...

«فتذاكروا قتلى النهر...

«ولقي معهم امرأة من تيم الرّباب اسمها «**قَطام**»...

«وقد قُتل أبوها وأخوها يوم النهر...

«وكانت فائقة الجمال...

«فلمّا رآها... أخذتْ قلبه... فخطبها...

«فقالت: لا أتزوجك حتى تشتفي لي...

«فقال: وما تريدين؟...

«قالت: ثلاثة آلاف... وعبدًا... وقَينةً... **وقتْل عليّ!!!**

«فقال: أمّا قتلُ عليّ... فما أراكِ ذكرتهِ وأنت تريدينني...

«قالت: بلى... التمسْ غرّتهُ... فإن أصبتَه... شفيتَ نفسك ونفسي... ونفعك العيش معي...

«وإن قُتلتَ... فما عند الله خير من الدنيا وما فيها...

«قال: والله... ما جاء بي إلّا قتلُ عليّ... فلكِ ما سألتِ...

«قالت: سأطلب لك من يشدّ ظهرك ويساعدك...

«وبعثتْ إلى رجل من قومها اسمه... **وردان**... وكلّمته... فأجابها...
«وأتى ابن مُلجم رجلًا من أشجع اسمه... **شبيب بن بَجَرة**...
«فقال له: هل لك في شرف الدنيا والآخرة!؟..
«قال: وماذا؟..
«قال: **قتْل عليّ...!**
«قال شبيب: ثكلتْك أمّك!... لقد جئتَ شيئًا إدًّا!.. كيف تقدر على قتله؟..
«قال: **أكمن له في المسجد... فإذا خرج إلى صلاة الغداة... شددنا عليه... فقتلناه...**
«فإن نجونا... فقد شفينا أنفسنا...
«وإن قُتلنا فما عند الله... خير من الدنيا وما فيها...
«قال: ويحك!..
«**لو كان غير عليّ كان أهون...**
«**قد عرفت سابقته... وفضله... وبلاءه في الإسلام...**
«**وما أجدُني أنشرح لقتله...**
«**قال: أما تعلمه قتل أهل النهر... العبادَ الصالحين؟..**
«**قال: بلى...**
«**قال: فنقتله... بمن قتل من أصحابنا...**
«فأجابه...»!!!
وتم الاتفاق بين الثلاثة...
على أكبر جريمة سياسية في التاريخ!!!

جريمة... الجرائم؟!!!

«فلمّا كان ليلة الجمعة...
«وهي الليلة التي واعد ابن مُلجَم... أصحابه... على قتل عليّ... وقتل معاوية وعمرو...

«أخذ سيفه... ومعه شبيب... ووَرْدان...

«وجلسوا مقابل السُّدّة... التي يخرج منها عليّ للصلاة...

«فلمّا خرج عليّ... نادى: أيها الناس... الصلاة... الصلاة..»!!

آخر كلمة له... عليه السلام... قبل قتله... الصلاة... الصلاة؟!

عظيم في إسلامه.. عظيم في جهاده... عظيم في استشهاده!!!

«فضربه شبيب بالسيف... فوقع سيفه بعضادة الباب...

«وضربه ابن مُلْجم... على قرنه بالسيف...

«وقال: الحكم لله... لا لك... يا عليّ... ولا لأصحابك...!!

«وهرب وردان... فدخل منزله...

«فأتاه رجل من أهله... فأخبره وردان بما كان... فانصرف عنه... وجاء بسيفه... فضرب به وردان حتى قتله...

«وهرب شبيب في الغَلس...

«وصاح الناسُ...

«فلحقه رجل من حضرموت... يقال له عُوَيْمر...

«وفي يد شبيب السيف... فأخذه وجلس عليه...

«فلمّا رأى الحضرميّ الناسَ قد أقبلوا في طلبه... وسيف شبيب في يده... خشي على نفسه... فتركه ونجا...

«وهرب شبيب في غُمار الناس...»!!!

ووقعت جريمة الجرائم...

عليّ... خير الناس...

يقتله... شرّ الناس!!!

ألا... لا يُقتَلَنَّ... إلّا قاتلي؟!

«ولما ضرب ابن مُلجَم... عليًا... قال:

«لا يفوتنّكم الرجل...

«فشدّ الناس عليه... فأخذوه...

«**وتأخّر عليّ...**

«**وقدّم جَعْدة بن هُبيرة... يصلّي بالناس الغداةَ...**

«**وقال علي: احضروا الرجل عندي...**

«فأدخل عليه...

«**فقال: أي عدوّ الله!... ألم أُحسن إليك؟..**

«قال: بلى...

«**قال: فما حملك على هذا؟**

«قال: شحذتُهُ أربعين صباحًا... وسألت الله أن يقتل به شرّ خلقه...

«**فقال عليّ: لا أراك إلّا مقتولًا به...**

«**ولا أراك إلّا من شرّ خلق الله...**

«**ثم قال: النفسُ بالنفس...**

«**إن هلكتُ... فاقتلوه... كما قتلني...**

«**وإن بقيتُ رأيتُ فيه رأيي...**

«**يا بني عبد المطلب... لا ألفيَنّكم تخوضون دماء المسلمين... تقولون قد قُتل أمير المؤمنين...**

«**ألا... لا يُقتلنّ إلّا قاتلي...**

«**انظر يا حسَن... إن أنا متّ من ضربتي هذه...**

«**فاضربه ضربةً بضربة... ولا تمثّلنّ بالرجل...**

«**فإني سمعتُ رسول الله... (ﷺ)... يقول:**

«**إيّاكم والمُثْلة... ولو بالكلب العَقور...»!!!**

حتى... وهو مقتول...

يوصي بالعدل في أمر قاتله؟!!!

لو كانت هذه الضربة... بأهل مصر... ما بقي منهم أحد؟!

«هذا كله... وابن مُلجَم مكتوف...

«فقالت له أمّ كلثوم... ابنة عليّ:

«أي... عدوّ الله!..

«لا بأس على أبي...

«والله مُخزيك!..

«قال: فعلى من تبكين؟..

«والله... إنّ سيفي اشتريته بألف... وسممتُه بألف...

«ولو كانت هذه الضربة... بأهل مصر... ما بقي منهم أحد...»!!

نجاة عَمْرو...
من محاولة...
اغتياله...؟!

قتل قاتل عليّ؟!

«فلمّا قُبض... بعث الحسَن... إلى ابن مُلجم... فأحضره...

«فقال للحسن: هل لك في خصلة؟.. إني والله قد أعطيت الله عهدًا... أن لا أُعاهد عهدًا إلّا وفيتُ به...

«وإني عاهدتُ الله عند الحَطيم... أن أقتل عليًّا ومعاوية... أو أموت دونهما...

«فإن شئتَ خلَّيتَ بيني وبينه...

«فلك اللّهُ عليّ... إن لم أقتله... أو قتلتُه ثم بقيتُ... أن آتيك حتى أضع يدي في يدك...

«فقال له الحسن: لا والله حتى تعاين النار...

«ثم قدّمه... فقتله...»

نجاة... معاوية؟!

«وأمّا البُرَك بن عبد الله...

«فإنه قعد لمعاوية في تلك الليلة... التي ضُرب فيها عليّ...

«فلمّا خرج معاوية... ليصلّي الغداة... شدّ عليه بالسيف...

«فوقع السيف في أليته...

«فأُخذ... فقال: إنّ عندي خبرًا أسرّك به... فإن أخبرتُك فنافعي ذلك عندك؟..

«قال: نعم...

«قال: إنّ أخًا لي قد قتل عليًّا هذه الليلة...
«قال: فلعلّه لم يقدر على ذلك...
«قال: بلى... إنّ عليًّا... **ليس معه أحد يحرسه...**
«فأمر به معاوية... فقُتل...
«وبعث معاوية إلى الساعدي... وكان طبيبًا...
«فلمّا نظر إليه... قال: اخترْ إمّا أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف... وإمّا أن أسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرأ منها... فإنّ ضربتك مسمومة...
«فقال معاوية: أمّا النار فلا صبر لي عليها..
«وأمّا الولد فإنّ في يزيد وعبدالله... ما تقرّ به عيني...
«فسقاه شربة فبرأ... ولم يولد له بعدها...
«وأمر معاوية عند ذلك بالمقصورات... وحرس الليل... وقيام الشُّرَط على رأسه إذا سجد... وهو أوّل من عملها في الإسلام...»!!!

نجاة عمرو من القتل؟!

«وأمّا عمرو بن بكر...
«فإنّه جلس لعمرو بن العاص... تلك الليلة... فلم يخرج...
«وكان اشتكى بطنه..
«فأمر خارجة بن أبي حَبيبة... وكان صاحب شُرطته...
«فخرج ليصلّي بالناس...
«فشدّ عليه... وهو يرى أنه عمرو بن العاص...
«فضربَه... فقتله...
«فأخذه الناس إلى عمرو... فسلموا عليه بالإمرة...
«فقال: مَنْ هذا؟..
«قالوا: عمرو...
«قال: فمَنْ قتلت؟..

«قالوا: خارجة...
«قال: أما والله يا فاسق... ما ظننتُه غيرَك!!!
«فقال عمرو: أردتني... وأراد الله... خارجة!.
«فقدّمه عمرو... فقتله...»!!!

وفاة...
عَمْرو...
ابن العاص...؟!

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين...

«تسليم الحسن بن عليّ... الخلافة إلى معاوية...

«ولما اصطلحا وبايع الحسنُ معاويةَ... دخل معاوية الكوفة وبايعه الناس...

معاوية يعزل عبدالله بن عمرو؟!

وفيها استعمل معاويةُ عبدَالله بن عمرو بن العاص على الكوفة...

فأتاه المغيرة بن شعبة فقال له: استعملتَ عبدالله على الكوفة...

وأباه على مصر...

«فتكون أميرًا بين نابَي الأسد!!!

«فعزله عنها واستعمل المغيرةَ على الكوفة...

«وبلغ عَمرًا ما قال المغيرة...

«فدخل على معاوية فقال: استعملتَ المغيرةَ على الخراج فيغتال المال ولا تستطيع أن تأخذه منه؟!..

«استعمل على الخراج رجلًا يخافك ويتّقيك...

«فعزله عن الخراج واستعمله على الصلاة!».

عَمْرو يستعمل عُقْبة بن نافع على إفريقية؟!

وفي هذه السنة استعمل عمرو بن العاص... عُقْبة بن نافع بن عبد قيس... وهو ابن خالة عمرو... على إفريقية...

فانتهى إلى لُواتة ومزاتة... فأطاعوا ثم كفروا...
فغزاهم من سنته... فقتل وسبَى...
ثم افتتح في سنة اثنتين وأربعين غُدامِس فقتل وسبَى...
وفتح في سنة ثلاث وأربعين كُورًا من كور السودان...
وافتتح وَدّان... وهي من برقة...
وافتتح عامة بلاد بربر...
وهو الذي اختطّ القيروان سنة خمسين...

وفاة عمرو بن العاص؟!

«ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين...
«وفيها مات عمرو بن العاص... بمصر... يوم الفِطر...
«وكان عمل عليها لعُمر أربع سنين...
«ولعثمان أربع سنين إلا شهرين...
«ولمعاوية سنتين إلّا شهرًا...

عبدالله بن عَمْرو مكان أبيه؟!

وفيها ولّى معاويةُ... عبدَالله بن عمرو بن العاص... مصرَ...
«فوليها نحوًا من سنتين».
قالوا عن وفاة عمرو:
«لم يسأم العيش يومًا... وقد جاوز الثمانين... أو قارب المائة في قول آخرين...
«وكانت وفاته ليلة عيد الفطر سنة ثلاث وأربعين للهجرة...
«فدفن بجوار المقطم...
«عند ضريح الإمام الشافعي القائم الآن...
«وكذلك انقضت حياة حافلة...

«وصح فيه على تباين الآراء والأقوال...
«أنه رجل من عظماء الرجال...
«فمهما يختلف المختلفون في نيّاته وحسناته أو سيئاته...
«فالذي لا خلاف فيه أنه كسب للإسلام قطرين كبيرين: هما فلسطين ومصر...»!!!

شخصية...

عَمْرو...

ابن العاص...؟!

لُغز شخصية عَمْرو؟!

هناك فريق من عوام المسلمين... يكره عَمْرًا... لما كان منه في قصة التحكيم... وغدره بأبي موسى الأشعري... فأحدث شرخًا في بنيان الأمة... ما زال يتصدع إلى يوم القيامة!!!

ولكن هذا الفريق يقع في حيرة شديدة... حين يذكر أنَّ عَمْرًا من أصحاب رسول الله... (ﷺ)... فكيف يكره شخْصًا رضي الله عنه... وأمّره رسول الله... (ﷺ)... وأبو بكر... وعمر... وعثمان؟!!

وكثيرًا ما يفكر هؤلاء الكارهون ويسألون أنفسهم: ماذا نصنع في هذا الشعور المتناقض؟!

أيُعقل أن نكره شخصًا ونحبه في آن؟!!

ثم هل معنى كونه صحابيًا... أن يكون فوق مستوى النقْد؟!!

أين الحُكْم العدْل في هذه القضية؟!

أين الميزان الصحيح الذي نزن به هذه الأمور الشائكة؟!!

فَكَّرْتُ مَلِيًّا؟!

فكَّرْتُ طويلًا...

هل غاب عن عمرو أنَّ الإمام عليّ.. رضي الله عنه... وكرَّم الله وجهه.. أحقُّ من معاوية بهذا الأمر... وأنه لا يختلف في ذلك اثنان؟!

وهل يعقل أن عَقْلًا كعَقْل عمرو بن العاص... أدهى الخَلْق... تغيب عنه هذه الحقائق التي لا تغيب عن الأطفال؟!

كل الأمَّة تشهد أنَّه لا أحد في الأمة وقت الفتنة الكبرى يوازي سيد العرب عليّ بن أبي طالب... فما لعَمْرو يخرج على هذا الإجماع؟!

وهل يعقل أن عَمْرًا... وهو ما هو من العقل يبيع دينه من أجل منصب زائل؟!

إذًا ما السرّ وراء الموقف الذي وقفه عمرو في تلك القضية الكبرى؟!!

السرُّ أنَّ عَمْرًا.. كان لا يوافق على أسلوب...

الإمام عليّ في الحُكْم؟!

وليس معنى هذا أنَّ رأي عَمْرو صحيح...

كلا... وإنما كان هذا هو رأيه في الموقف كله آنذاك...

إنَّ عَمْرًا ليس شخصًا بسيطًا تطويه الأحداث... وإنما هو عملاق من عمالقة الأحداث...

إنه يصنع الأحداث... ولا تصنعه الأحداث!!!

وحسبك هذه الفعلة التي فعل في قصة التحكيم... وكيف دَوَّت في وقتها... وما زالت تدوّي... وستظل تدوّي الى يوم القيامة!!!

فما زال الناس يتحدثون عنها... ما بين مشمئز... وغاضب... وحائر... ولا يدري!!!

إنه كان يرى نفسه نِدًّا لأي شخص سواه... بل ربما رأى نفسه خيرًا من ذلك الشخص!!!

وبتحليل موقفه في أول سرية أرسله فيها رسول الله (ﷺ)... تتضح لنا تلك الحقيقة... حقيقة أنه لا يرى أحَدًا خَيْرًا منه في أمور الدنيا!!!

فإني أميرٌ عليك؟!

«بعث رسول الله (ﷺ) عمرو بن العاص...

«حتى إذا كان على ماءٍ يقال له السلاسل... وبذلك سميت الغزاة ذات السلاسل...

«فلما كان عليه خاف... فبعث إلى رسول الله (ﷺ) يستمده...

«فبعث اليه أبا عُبيدة بن الجراح في المهاجرين الأوّلين...

«فيهم أبو بكر... وعمر...

«وقال لأبي عبيدة: لا تختلفا...

«فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم عليه قال له عمرو: إنما جئت مَددًا لي...».

لاحظ هنا حرص عمرو على الإمارة... وأنه يرى نفسه خيرًا من أبي عبيدة في شؤون الحرب... ومكائد السياسة...

إنَّ عَمْرًا يعلم أن أبا عبيدة أعظم منه شأنًا في الآخرة... ولكن في شؤون الدنيا لا يرى له فضلًا عليه!!!

«فقال أبو عبيدة: لا... ولكني أنا على ما أنا عليه... وأنت على ما أنت عليه...

«فقال له عمرو: بل أنت مَدَدٌ لي!!!

«فقال أبو عبيدة: يا عمرو... إن رسول الله (ﷺ) قال لي: لا تختلفا... وإنك إن عصيتني أطعتك...

«فقال له عمرو: فإني أمير عليك!!!

«قال: فدونك!!!

فصلى عمرو بالناس»!!!

أقول: هذه الأقصوصة مفتاح خطير من مفاتيح شخصية عمرو... إنه لا يرى بأسًا أن يقود جيشًا... من أفراده أبو بكر وعمر وأبو عبيدة والمهاجرون الأولون!!!

فالفضل في الآخرة قضية... والتقدم للقيادة في شؤون الدنيا قضية مستقلة!!!

وأعجب من هذا كله أنه صلى بالناس... وفيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة!!!

إنَّ عَمْرًا هنا يعلم حقيقة شخصيته... وأنه داهية الحرب والسياسة...

وأنه يوازي أيًّا من الناس في شؤون الحرب والسياسة!!!

فلئن سبقه الأوّلون إلى هذا الدين... فليس معنى هذا أنهم يسبقونه في شؤون الدنيا!!!

كلا... ولكن ما زال هو عمرو بن العاص داهية العرب!!!

فإن ذهبوا هم بفضل الآخرة... فإن مواهبه في شؤون السياسة والحرب... تحقق له الصعود إلى القمة سريعًا... ورئاسة هؤلاء الذين سبقوه!!!

مواقف كثيرة تؤكد... حرصه على الإمارة؟!

رُبَّ قائل يقول: لقد كان هذا من عَمْرو... لأنه كان حديث عهد بإسلامٍ وتوبةٍ... لم ينضج بعد!!!

ونقول لهذا القائل: بل كل مواقف عمرو تؤكد حرصه دائمًا على الإمارة... وأنه يرى نفسه أهْلًا لأن يكون أميرًا...

فهو يدرك حقيقة شخصيته... ويؤمن بنفسه... ويريد أن يضع شخصيته الموضع اللائق بها... تكريمًا لها... وإظهارًا لمواهبها المكنونة!!!

موقفه يوم أرسل أبو بكر الجيوش إلى الشام؟!

قالوا:

«هنالك جاشت مطامع عمرو... فسمت به همته إلى قيادة الجيوش الإسلامية التي تصد الروم وتفتح الشام...

«ورأى أن خالد بن الوليد صاحبه القديم تكفل بدولة الأكاسرة...

«فليكن هو إذن كفيل المسلمين بدولة القياصرة...

«ولم يشأ أن ينتظر حتى يبرم الرأي في مسألة القيادة العليا وهو غائب عنها...

«فلما أخذ الخليفة في تجريد الجيوش وعقد الألوية لها...

«ذهب إلى عمر بن الخطاب فقال له متلطفًا:

«يا أبا حفص!...

«أنت تعلم شدتي على العدو!!!

«وصبري على الحرب!!!

«فلو كلَّمت الخليفة أن يجعلني أميرًا على أبي عبيدة!!!

«وقد رأيت منزلتي عند رسول الله!!!

«وإني أرجو أن يفتح الله على يدي البلاد ويهلك الأعداء.»!!!

أقول:

هاهنا عَمْرو يتحدث عن شخصية عمرو!!!

ويحدد عناصر الامتياز من شخصيته تحديدًا دقيقًا... لأنه يعلم أنه يتحدث إلى عُمَر وما أدراك ما عمر!!!

ونلاحظ شدة حرصه أن يكون القائد العام للقوات الإسلامية المسلحة بالشام... وأن يكون أميرًا على أبي عبيدة!!!

فلماذا؟... وهل يجهل عمرو سابقة أمين الأمة؟!

إنه لا يجهل فضل أبي عبيدة... ولكن يرى نفسه ذات صفات من الدهاء والمكر والخديعة... والحرب خُدعة... ليست متوافرة لأبي عبيدة... فهو إذن أحق بالقيادة العليا!!!

ثم ماذا؟!!

«فأجابه عُمر بصراحته الصادعة:

«كلا!...

«ما كنت لأكذبك!...

«وما كنت بالذي أكلمه في ذلك...

«فإنه ليس على أبي عبيدة أمير!!!

«ولأبو عبيدة عندنا أفضل منزلة منك وأقدم سابقة...

«والنبي (ﷺ) قال فيه: «أبو عبيدة أمين الأمة»!!!

ثم ماذا؟!

ثم هل كفَّ عمرو عن مطلبه بعد رفض عُمر؟!

كلا... عاود الكرَّة... مما يدل على أن رغبته في الإمارة شيء متضخم في تركيبه... أصيل في تكوينه...

فماذا عاد فقال:

«ما ينقص من منزلته إذا كنتُ واليًا عليه»!!!

أقول: هاهنا فلسفة عمرو تبدو للعيان... إنه يرى أن الفضل في الآخرة شيء... والتفوق في شؤون الدنيا والحرب والسياسة شيء...

وأنه لا يُؤَثِّر على مقام الفاضل أن يتأمر عليه مَن هو أدرى بشؤون الحرب منه!!!

«فانتهره عُمر قائلًا:

«ويلك يا عمرو!...

«إنك ما تطلب بقولك هذا إلا الرئاسة والشرف...

«فاتق الله... ولا تطلب إلا شرف الآخرة ووجه الله تعالى»!!!

أقول: وضح الآن أن طلب الإمارة شيء أصيل في تكوين عمرو... منبعه أنه يدرك امتياز شخصيته في شؤون الحُكْم والسياسة والحرب التي تقوم كلها على الدهاء والمكر...

وهذا ما يتوافر له!!!

وموقفه حين وَحَّد خالد القيادة يوم اليرموك؟!

قالوا:

«كانت جيوش المسلمين حين وصل إليها خالد... متعددة القيادات... يقود كل جيش منها أمير... هذا جيش بقيادة أبي عبيدة... وهذا آخر بقيادة عمرو ابن العاص... وهذا ثالث بقيادة عكرمة بن أبي جهل... وهكذا...

وتشاور الأمراء... وتكلموا... وجاء دور خالد بن الوليد فتكلم فقال:

«هلموا فلنتعاور الإمارة...

«فليكن بعضنا اليوم...

والأخر غدًا...

«والآخر بعد غد...

«حتى تتأمروا كلكم...

«ودعوني أتأمر اليوم.»!!!

وتوحدت القيادة برئاسة خالد...

وكان عمرو من القادة الذين وافقوا على خطة تداول الإمارة...

ظنًّا منه أن المعركة ستطول... وأن القيادة العامة ستؤول إليه بعد يوم أو يومين على الأكثر...

إلا أنَّ خالدًا حسم المعركة وانتصر في نفس اليوم!!!

هذا وهناك في حياة عمرو مواقف أخرى... تؤكد حرصه على الإمارة... لاعتداده بشخصيته وإدراكه تمام الإدراك أنه أدهى الخَلْق!!!

وهذه الصفة صفة الدهاء... ألزم الصفات لمن يعمل بالحُكم والسياسة والحرب!!!

وموقفه في الفتنة الكبرى؟!

رأينا كيف أن عَمْرًا في غزوة ذات السلاسل لم يرَ بأسًا أن يتأمَّر على جيش فيه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة!!!

وكان يرى أن هذا حقه... وأنه أهل لذاك!!!

ورأينا كيف ألحَّ على عُمر أن يُكلِّم أبا بكر ليجعله قائدًا عامًا للقوات

الإسلامية المسلحة بالشام!!!

ولا مانع عنده أن يرأس أبا عبيدة... لأنه يشعر أنَّ عنده من مقومات الدهاء ما ليس لأبي عبيدة!!!

ورأينا كيف وافق مؤقتًا أن يكون خالد قائدًا عامًا في اليرموك... باعتبار أن القيادة العامة عائدة إليه غدًا أو بعد غد!!!

ولكن هل لازمت هذه الصفة عَمْرًا في الفتنة الكبرى؟!

نعم... بل تضخمت وظهرت أكثر فأكثر!!!

المنطق يقول أن يكون عمرو مع فريق عَليّ؟!

تسلسل الأحداث... أن عثمان عزل عَمْرًا من جميع مناصبه في مصر سنة سبع وعشرين...

وظلّ عمرو خاليًا من المناصب... حتى مقتل عثمان... وبيعة عليّ... سنة خمس وثلاثين...

فالوضع الطبيعي لرجل يحب الإمارة... وقد عزله عثمان عن أعظم عرش في الدولة العظمى... عرش مصر... وإفريقيا والنوبة...

كان تسلسل الأحداث... يقتضي أن يكون عَمرو ضد عثمان...

وأوّل من يبايع عليًا...

ولكن الذي حدث عكس هذا...

فما السبب في هذا الانقلاب؟!!

السبب واضح... أنَّ عَمْرًا كان يرى أن سياسة عليّ... سياسة المُثل العُليا... سوف تفشل... لأن غالبية الشعوب من العوام الذين لا يفقهون!!

وأنَّ دولة معاوية وفريقه قادمة!!!

وعمرو الداهية الذي فتح فلسطين... ومصر... وإفريقيا... والنوبة...

وحكم مصر وإفريقيا أربع سنين في عهد عمر... فنجح في حُكمها بدهائه ومكره... رغم أنها كانت تعج بالخلافات الدينية والسياسية...

ثم حكمها في عهد عثمان أربعًا أخرى... بنفس الأسلوب من الدهاء والمكر... مما ألهج الألسنة بالثناء عليه!!!

عمرو هذا يرى بعين السياسي المحنك... والقائد العسكري الفاتح المظفَّر... أن عصر سياسة المُثُل العليا قد انتهى...

ودخلت الدولة الإسلامية العظمى الممتدة من الهند الى الأطلنطي... ومن القسطنطينية الى أدغال إفريقيا...

الدولة التي قامت على أشلاء الامبراطورية العتيدة فارس... والامبراطورية الرهيبة الرومان...

الدولة التي قهرت هؤلاء جميعًا... وطوت في باطنها أديانًا سابقة... وشعوبًا مختلفة... وعقائد لا حصر لها...

بمعنى مُرَكَّز... دولة ابتلعت العالم كله... بما حوى...

هذه الدولة أصبحت غالبية شعوبها... بل الغالبية العظمى... من أخلاط مقهورين... خنعوا وخضعوا لسلطان الدولة الإسلامية... لأنها دولة لا تقاوم...

ولكن بقيت فيهم كل الخلافات التي دخلوا بها إلى الدولة الجديدة...

فمعنى هذا أنَّ الذي ينجح في حُكم هؤلاء الشياطين في صورة بَشَر... لا بد أن يكون ماهرًا وألعبانًا... وداهية... وماكرًا... ومخادعًا... وجبَّارًا... وقهَّارًا... وغير ذلك من صفات الـمُلْك والحُكم والسلطان...

وإن لم يكن كذلك أكلوه... وهزئوا به... وأبادوه!!!

عَمْرو كان يرى بحاسته السياسية العميقة... التي طَوَّعت له ملايين من المصريين وغيرهم... فحكمهم رغم اختلاف مذاهبهم وأوضاعهم...

عَمْرو السياسي المحنَّك... المجرِّب... كان يرى دولة الخلافة... وحُكْم الـمُثُل العليا... والأخلاق الفاضلة... توشك أن تغيب...

لأن الصحابة أصبحوا أقل من واحد في المائة من عدد سكان أعظم دولة في التاريخ...

فالحاكم أصبح يحكم شعوبًا ٩٩٪ منها ليسوا صحابة وليسوا أهل جَنَّة...
و١٪ أو أقل من الصحابة والتابعين...
فمن الحتم أن يكون حاكم هذه الدولة مِن مِثْل أغلبية سكانها...
يمكر بهم قبل أن يمكروا به...
ويُسكتهم قبل أن يتصايحوا...
ويُشَرِّد بهم إذا انتقضوا!!!!
أمَّا أخلاق الصحابة... أخلاق القرآن... أخلاق الـمُثُل العليا... فإنَّ هؤلاء المقهورين من الأخلاط لا يعقلون منها شيئًا!!!
الخلاصة أن عَمْرًا لم يكن يعلم الغيب...
ولكن كان يتنبأ بحاسته السياسية المتميزة... المجرِّبة...
أنَّ أسلوب الإمام عليّ في الحُكْم قد تجاوزته الأيام...
وأن الأيام القادمة ستكون أيام عدم التقيد الحرْفي بالإسلام...
وإنما بما يؤدي إلى حُسن سياسة الناس...
ومن هنا... ومن هذه النظرة السياسية العميقة...
اختار عمرو أن يلعب على الحصان الرابح...
فاختار معاوية!!!
لا لأن معاوية أحَقّ في نظره... ولكن لأن الأيام أصبحت تُحَتِّم أسلوب معاوية...
فالجولة ستكون جولته!!!
هكذا حَدَّثت عَمْرًا حاسته السياسية!!!

هذا أدْهى الخَلْق؟!

اشتهر عمرو أنه كان أدهى العرب... بل شهد له أرطبون الروم أنه أدهى الخَلْق... والفضل ما شهدت به الأعداء...

بل وشهد له الفاروق بذلك حين بلغته خديعة عمرو للأرطبون فقال: لله درّ عمرو!!!

ومَن كان في شكٍّ من هذا فلينظر إلى مكره عندما أشرف معاوية على الهزيمة...

فلعب لعبته الماكرة... لعبة المناداة بالتحكيم...

فقلب الأمور رأسًا على عقب!!!

ثم خديعته لأبي موسى الأشعري... فجعله يتقدم ويعلن:

«إني قد خلعتُ عليًا ومعاوية...»!!!

فيتقدم عَمْرو ويقول:

«وأنا أخلع صاحبَه كما خلعه...

«وأثبّتُ صاحبي معاوية.»!!!

فأيّ دهاء هو أعظم... وأيّ مكر هو أكبر... وأي خديعة هي أخطر من تلك الخديعة؟!!!

لم يكن أبو موسى موازيًا لعمرو... في شيء...

أمَّا عمرو فهو الداهية الأكبر!!!

كان يلعبُ بالملوك والأمراء؟!

كان عمرو يتسلى... شأن الدهاة من الناس... باللعب بالملوك والأمراء... والمكر بهم...

فكيف كان ذلك؟!

انظر ماذا فعل بالنجاشي حين أوفدته قريش في جاهليته إلى النجاشي ليسلمهم مَن أوى من المسلمين إليه؟!!!

فَزَّع النجاشي... وأثاره... وجعل يُدَبِّر لِلَّعب به ويقول: والله لآتينَّه غدًا عنهم بما أستأصل به خَضْرَاءهم...

«والله لأخبرنّه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عَبْدٌ»!!!

«ثم غدا من الغد فقال له: أيها الملك... إنهم يقولون في عيسى ابن مَرْيَم قولًا عظيمًا!!!...

«فأرسل إليهم فسَلْهم عما يقولون فيه»!!!

هكذا كان يعبث ويلعب بعقل النجاشي... حيث كان يراه أقلّ منه دهاء ومَكْرًا... فمن السهل خداعه!!!

هذه قصة تدل على أنه كان في جاهليته صديقًا للملوك...

وقصة أخرى تدل على أنه كان لا يبالي أن يخدع الملوك والأمراء وأن يلعب بهم...

وهي قصته مع الأرطبون قائد عام جيوش الرومان في أجنادين...

وكيف خدعه عمرو خدعته المشهورة... وأفلت عمرو من موت محقق!!!

لا شك أن عَمْرًا كان سعيدًا غاية السعادة حين خدع الأرطبون أمكر العجم...

ولعله ضحك طويلًا... وهو يغادر حصون الروم آمنًا!!!

ماذا أريد أن أقول؟!

أريد أن أقول أن عَمْرًا كان شخصية ضخمة في جاهليته... شهيرًا بدهائه ومكره... يقابل الملوك والأمراء... وكان شخصية شهيرة في إسلامه... يتقلب في المناصب العليا... حتى بلغ أعلى منصب في الدولة... بعد منصب أمير المؤمنين!!!

فإذا أضيف إلى هذا أنه كان مؤمنًا بشخصيته... عارفًا بامتيازها في الدهاء والمكر والخديعة...

علمنا لماذا كان متطلعًا دائمًا إلى منصب القيادة العليا... لأن لوازم النجاح في السياسة... وهي المكر والدهاء... كان عنده موفورًا!!!

طَبَّق عَمرو الإسلام عمليًا... في مصر وليبيا في غاية البساطة؟!

قالوا:

وكان فتح بعض ديار مصر على يد عمرو بن العاص سنة (٢٠)...

وأتمّها في السنة التي بعدها...

وافتتح معها برقة... حين قدمها... بعد فتح الاسكندرية...

وصالح أهلها على الجزية....

وكتب إلى عُمر يعلمه أنه قد ولى عقبة بن نافع الفهري المغرب فبلغ زويلة...

وأن مَن بين زويلة وبرقة سِلْم كلهم...

حسنة طاعتهم...

قد أدّى مسلمهم الصدقة...

وأقر مُعاهدهم بالجزية...

وأنه قد وضع على أهل زويلة ومَن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه...

وأمر عماله جميعًا أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردّوها في الفقراء...

ويأخذوا الجزية من الذمة فتُحمل إليه بمصر...

وكان أهل برقة يبعثون بخراجهم إلى والي مصر من غير أن يأتيهم حاثّ أو مستحث...

فكانوا أخصب قوم بالمغرب...

وفي سنة (٢٢) أتم عمرو فتح أطرابلس المغرب عنوة...

وكتب إلى عُمر:

«إنا قد بلغنا أطرابلس... وبينها وبين إفريقية تسعة أيام...

«فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل...

«فكتب إليه عُمر ينهاه عنها...»

فانتشر الإسلام في تلك البلاد الواسعة... وعمّتها الهداية والرحمة... وسادها العدل بعد أن ملأها الجور...»!!!

وأقول: الخطير في هذه الأخبار أن عَمْرًا طبّق الإسلام على الجميع... بكل بساطة... وبدون ضجيج ولا عجيج... ولا تأليف لجان لبحث الموضوع كما نفعل نحن اليوم!!!

وهذه الأخبار تعطي فكرة أوضح للناس عن عَمرو... وعبقرية عَمرو... وحسن سياسة عَمرو...

فتح مصر بأكملها من العريش إلى ليبيا... وفتح ليبيا إلى طرابلس حتى بلغ تونس... ولو أذن له أمير المؤمنين لبلغ المحيط الأطلسي...

ولم يكن فتح تلك البلاد نزهة... ولكن بعد معارك طاحنة مع الرومان كانت ذروتها معركة الاسكندرية...

ورغم عظمة انتصارات عَمرو في تلك الفتوحات...

إلا أنَّ ما هو أعظم هو نجاح عَمرو المذهل في حُكم تلك البلاد...

وانتظامها على حُكْمه مع تمام الرضى والفرح!!!

وهذه الفتوحات... وهذه البراعة الإدارية في إدارة البلاد المصرية والليبية والنوبية...

ثم إجماع أهل تلك البلاد على الرضى بحُكْمه والثناء على عدله... دليل ما بعده دليل... على عبقرية عمرو العسكرية... وعبقريته السياسية...

نجح نجاحان... كلاهما أعظم من الآخر...

نجاح عسكري ساحق... حين سحق الرومان في فلسطين ومصر وليبيا والنوبة...

ونجاح سياسي ماحق... حين محق الظُلْم... وأحلَّ محله نور الإسلام العظيم...

ذلكم عمرو... وهذه شُعْبة من شُعَب عبقريته!!!

الفاروق يُثني على سياسة عمرو؟!

نلتقط هنا فقرة من خطاب لعُمر إلى عمرو بن العاص وهو يحثه على سرعة إرسال خراج مصر... قال أمير المؤمنين:

«ولم أقدمك مصر... أجعلها لك طعمة... ولا لقومك...

«ولكني وجَّهتك لما رجوت من توفيرك الخراج...

«وحُسْن سياستك...»!!!

وإذا قال عُمَر: «وحُسْن سياستك» وجب علينا أن ننصت جيدًا لأن المتكلم هو عمر الذي جعل الله الحق على لسانه وقلبه!!!

وحُسْن سياستك؟!!

إنَّ الفاروق عليم بأخصّ صفات شخصية عَمْرو!!!

إنه يحسن السياسة... يحسن أسلوب الحُكْم...

كما يحسن فنون القتال... ويحسن كيف ينتصر!!!

وهذه الصفة صفة حُسْن سياسة الشعوب يجب التركيز عليها جيدًا في شخصية عمرو..

لأنها المحرِّك الأول له الذي حرَّكه نحو كثير من مواقفه في الفتنة الكبرى...

إنه خبير سياسي عالمي... يستطيع بحاسته السياسية الخارقة أن يحكم حُكْمًا صحيحًا على مسار الأحداث السياسية التي تدور من حوله...

جلس بعيدًا يرقب سير الأحداث في الفتنة الكبرى...

فلمَّا انتهت التصفية الى الصراع بين عليّ ومعاوية...

فكَّر وفكَّر... ثم اختار الجانب الذي ترجح عنده أن ينتصر!!!

عمرو داهية حقًّا!!!

وسياسي عظيم فوق ذلك!!!

وإذا رأى رأيًا... صَدَّقَتْه المقادير!!!

عندما استشار وَلَدَيْه؟!

قيل: كان عمرو بن العاص قد سار عن المدينة... قبل أن يُقتل عثمان... نحو فلسطين...

وقيل:

إن عَمرًا لما بلغه قتل عثمان قال: أنا أبو عبدالله... أنا قتلته وأنا بوادي السباع... إن يَلِ هذا الأمر طلحة فهو فتى العرب سببًا... وإن يله ابن أبي

طالب فهو أكره مَن يليه إليّ...

فبلغه بيعة عليّ... فاشتدَّ عليه وأقام ينتظر ما يصنع الناس...

فأتاه مسير عائشة وطلحة والزبير...

فأقام ينتظر ما يصنعون...

فأتاه الخبر بوقعة الجمل فأُرتج عليه أمره...

فسمع أن معاوية بالشام لا يبايع عليًا وأنّه يعظم شأن عثمان...

وكان معاوية أحبّ إليه من عليّ...

فدعا ابنيه... عبد الله... ومحمدًا... فاستشارهما وقال: ما تريان؟... أمّا عليّ فلا خير عنده... وهو يُدلُّ بسابقته... وهو غير مشركي في شيء من أمره!!!

فقال له ابنه عبد الله:

«توفي النبيّ... (ﷺ)...

«وأبو بكر...

«وعمر...

«وهم عنك راضون...

«فأرى أن تكفّ يدك... وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس على إمام فتبايعه»!!!

وقال له ابنه محمد:

«أنت نابٌ من أنياب العرب ولا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت»!!!

فقال عمرو:

«أمّا أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في آخرتي... وأسلم لي في ديني...

«وأمّا أنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي. وشرّ لي في آخرتي»!!!

ثم خرج ومعه ابناه حتى قدم على معاوية...

فوجد أهل الشام يحضّون معاوية على الطلب بدم عثمان...

وقال عمرو: أنتم على الحقّ...

اطلبوا بدم الخليفة المظلوم!...

ومعاوية لا يلتفت إليه!...

فقال لعمرو ابناه: ألا ترى معاوية لا يلتفت إليك؟...

فدخل عمرو على معاوية فقال له: والله لعجب لك!... إنّي أرفدك بما أرفدك وأنت معرض عني... أما والله إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة إن في النفس من ذلك ما فيها حيث نقاتل مَن تعلم سابقته وفضله وقرابته... ولكنّا إنّما أردنا هذه الدنيا!...

فصالحه معاوية وعطف عليه!!!

* * *

الخطير هنا هو الحوار التاريخي الذي دار بين الداهية وابنيه...

عمرو - أمّا عليّ فلا خير عنده..

- وهو يُدِلُّ بسابقته...

- وهو غير مشركي في شيء من أمره...

تقرير صحيح تمامًا يرفعه عمرو عن الإمام كرَّمَ الله وجهه...

لا خيرَ عنده... أي لا دنيا تُرجى عنده... وهذه مفخرة للإمام...

يُدِلُّ بسابقته... ليس دلالًا... ولكن حقيقة... يصغر ويضؤل عندها عمرو!!!

غير مشركي في شيء من أمره... هذا صحيح... لأنه لا يتعامل إلا مع مَن كان على مِثل خُلُقِه...

عبد الله - توفي النبي (ﷺ)... وأبو بكر... وعمر... وهم عنك راضون...

هاهنا مدخل خطير إلى شخصية عمرو... يقرره عبدالله بن عمرو... وهو بارٌّ تقيّ... صدوق...

وعلامة الرضا... أن رسول الله (ﷺ)... أمَّره على غزوة ذات السلاسل... ثم جعله أميرًا على صدقات عُمان...

وعلامة رضا أبي بكر... أنه أرسله على رأس جيش في حروب الردة...
ثم أرسله أميرًا على جيش من تسعة آلاف إلى الشام لفتح فلسطين...
وعلامة رضا عمر... أنه أقرّه على ما هو فيه...
ثم وافقه على فتح مصر... ففتحها... وحَكَمها...
وهذا الرضا من الثلاثة وعلى رأسهم رضا النبي (ﷺ).... يكفي عَمْرًا فخْرًا...
ودليل لا دليل أعظم منه على أن عَمْرًا شخصية نالت رضا النبي (ﷺ)... ورضى الشيخين من بعده (ﷺ)...
وماذا يبقى من دلائل العظمة بعد ذلك؟!!
ثم قال محمد بن عمرو: - أنت نابٌ من أنياب العرب... الخ...
وهذا الرأي أخذ به عمرو... وكان ما كان!!!

عَمْرو يُقدم على أخطر المخاطر؟!

كتب الخليفة أبو بكر إلى عمرو... عندما عزم على فتح الشام:
«وقد أحببتُ أن أُفْرغك لما هو خير لك في الدنيا والآخرة..»
فكتب إليه عمرو:
«إنّي سهم من سهام الإسلام...
«وأنت بعد الله الرامي بها...
«والجامع لها...
«فانظر أشدّها... وأخشاها... وأفضلها... فارمِ به...»!!!
نلتقط هنا مدخلًا هامًّا من أخطر المداخل إلى شخصية عَمرو... وهو قوله:
«فانظر...
«أشدّها... وأخشاها... وأفضلها... فارمِ به»!!!
أي انظر يا خليفة رسول الله (ﷺ)... أشدّ المخاطر... وأشدّ المعارك...
وأخشاها... انظر المعركة التي يخشى الأبطال دخولها لعظم خسائرها...

وأفضلها... عند الله مثوبة وأجرًا... لعظيم مخاطرها...

فارمِ به... فارمِ بي إليها... لأني سهم من سهام الإسلام... وأنا على استعداد للانطلاق متى تشاء!!!

إن عَمْرًا هنا يطلب المخاطر... ويُقْدم على الموت إقدامًا عجيبًا...

إنه شجاع لا يهاب الموت وإنما يطلب من الخليفة أن يقذفه إلى أخطر المعارك!!!

عَمْرو يقدم على غزو مصر... بأربعة آلاف وبها أكثر من مائة ألف جندي من الرومان؟!

كان شجاعًا... مغامرًا... وآية ذلك... أنه لم يزل عمرو يعظّم أمر مصر عند أمير المؤمنين... ويخبره بحالها... ويهون عليه فتحها...

حتى ركن إلى ذلك عُمر...

فعقد له على أربعة آلاف رجل...

وقال له: سر... وأنا مستخير الله في مسيرك!!!

فما معنى هذا؟!

معناه أن عَمْرًا هو الشجاع المقدام على المخاطر دائمًا...

فانظر آثار هذه الشجاعة إلى يوم القيامة؟!

إن كل مسلم أو مسلمة... في مصر... أو في إفريقيا كلها إلى يوم القيامة... مدين لعمرو بن العاص... لأنه هو الفاتح الأول لأفريقيا بالإسلام!!!

وكان أعجب ما في هذا الأمر... أن أتمه عَمْرو بأربعة آلاف...

لأنه خاض جميع المعارك في مصر بهذه الآلاف الأربعة... ما عدا معركة عين شمس وحصن بابليون والاسكندرية... حيث بعث يستمد أمير المؤمنين فأمَدَّه بأربعة آلاف أخرى!!!

على كل ألف رجل... رجل منهم مقام الألف؟!

ولما أبطأ فتح مصر على عمرو بن العاص... كتب إلى عُمر يستمده...
فأمده بأربعة آلاف (تمام ثمانية آلاف)...
على كل ألفِ رجلٍ منهم رجل وكتب إليه:

إني أمددتك بأربعة آلاف رجل...
على كل ألف رجل...
رجل منهم مقام الألف:
الزبير بن العوام...
والمقداد بن عمرو...
وعبادة بن الصامت...
ومسلمة بن مخلَّد...
واعلم أن معك اثني عشر ألفًا... ولا تُغلب اثنا عشر ألفًا من قِلَّة!!!

ما هذا؟!
أربعة... تقييم عمر لهم... أنَّ الرجل الواحد بألف رجل!!!
وإذا قال هذا عُمر فهو الحقّ!!!

الفاروق العظيم... يضع تكتيك المعركة العظيمة؟!

شهد عَمْرو معارك تاريخية عظمى... وكان هو قائدها العام...

وكانت معركة الاسكندرية من تلك المعارك التاريخية الفاصلة التي غيَّر فيها عَمْرو وجه التاريخ...

وزادها جمالاً فوق الجمال... أن أمير المؤمنين هو المخطط لها... فكيف كان ذلك التخطيط الكريم؟!

«ولما أبطأ على عُمَر فتح مصر كتب إلى عمرو:

«أما بعد فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر...

تقاتلونهم منذ سنتين... وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحبّ عدوكم...

وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نيّاتهم...

وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل... على ما كنت أعرف...

إلا أن يكون غيّرهم ما غيّرهم...

فإذا أتاك كتابي...

فاخطب الناس وحضّهم على قتال عدوهم... ورغّبهم في الصبر والنية...

وقدّم أولئك الأربعة في صدور الناس...

ومُر الناس جميعًا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد!!!

وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة...

فإنها ساعة تنزل الرحمة فيها... ووقت الإجابة!!!

وليحج الناس إلى الله... ويسألوه النصر على عدوهم!!!

ثم ماذا؟!..

ثم صنع عَمْرو ما أُمِر!!!

وكانت ساعة فاصلة... سحق فيها عَمْرو قوات الرومان بالاسكندرية التي كانت تزيد عن خمسين ألف!!!

وها هنا سؤال؟!

ما علاقة هذا بشخصية عمرو؟!

العلاقة أنَّ عَمْرًا قائدًا عظيمًا... يقود الآلاف وعلى رأسهم عظماء الصحابة... ويحطم بهم أكبر قوة للرومان بعاصمة مصر آنذاك... فلم تقم لهم بمصر قائمة بعدها أبدًا!!!

إنه فارس يكتب التاريخ بحوافر جواده!!!

سياسي بعيد النظر؟!

قالوا:

لما فتحت مصر بغير عهد قام الزبير وقال: يا عمرو... اقسمها...

فأبى!!!

فقال الزبير: والله لتقسمنّها كما قسم رسول الله (ﷺ) خيبر...

فكتب عمرو إلى عُمر في ذلك...

فكتب إليه عُمر أن يقيها ولا يقسمها!!!

قال أبو يوسف:

والذي رأى من الامتناع من قسمة الأرضين بين مَن افتتحها... عندما عرّفه الله ما كان في كتابه من بيان ذلك توفيقًا من الله كان له فيما صنع... وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين...

وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم...

لأن هذا لو لم يكن موقوفًا على الناس في الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور... ولم تقوَ الجيوش على السير في الجهاد...

ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنهم إذا خلت من المقاتلة والمرتزقة!!!

وأقول:

هذا موقف رائع لعمرو بن العاص!!!

هتف به الزبير: يا عمرو اقسمها!!!

يريد الزبير أن تقسم أرض مصر كلها... وكانت نحو أربعة ملايين فدان... على الثمانية آلاف مقاتل الذين فتحوها!!!

فرفض عمرو... بثاقب نظرته البعيدة... وحاسته السياسية الثاقبة...

وكتب إلى أمير المؤمنين... فكتب إليه عُمر أن يقيها ولا يقسمها!!!

وبقيت أرض مصر بأيدي المصريين... يزرعونها ويؤدون عنها الخراج... أي ضريبة الأطيان بلغة اليوم!!!

وهذا دليل جديد على دهاء عمرو السياسي... وحُسْن إدارته للأمور!!!

خليج أمير المؤمنين أو مقدرة عمْرو الإدارية؟!

كتب عُمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص أن يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر...

فقدموا عليه...

فقال عُمر: يا عَمرو... إن الله قد فتح على المسلمين مصر... وهي كثيرة الخير والطعام...

وقد ألقى في روعي لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسيع عليهم حين فتح الله عليهم مصر... وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين...

أن أحفر خليجًا من نيلها حتى يسيل في البحر...

فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة...

فإن حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ منه ما نريد...

فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا على ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم...

فانطلق عمرو... فأخبر بذلك مَن كان معه مِن أهل مصر... فثقل ذلك عليهم وقالوا:

نتخوف أن يدخل في هذا ضرر على أهل مصر، فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين ونقول: إن هذا الأمر لا يعتدل ولا يكون ولا نجد إليه سبيلًا...

فرجع عمرو إلى عمر، فضحك عُمر حين رآه وقال: والذي نفسي بيده لكأني أنظر إليك يا عمرو وإلى أصحابك حين أخبرتك بما أمرتكم به من حفر الخليج فثقل ذلك عليهم وقالوا: يدخل في هذا ضرر على أهل مصر، فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين ونقول له: إن هذا أمر لا يعتدل ولا يكون ولا نجد إليه سبيلًا!

فعجب عمرو من قول عُمر وقال: صدقت والله يا أمير المؤمنين، لقد كان الأمر على ما ذكرت!!!

فقال له عمر: انطلق يا عمرو بعزيمة مني حتى تجدّ في ذلك ولا يأتي عليك الحول

حتى تفرغ منه إن شاء الله.

وانصرف عمرو وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد، وحفر الخليج الذي في جانب الفسطاط الذي يقال له خليج أمير المؤمنين، فساقه من النيل إلى القُلْزُم (البحر الأحمر) فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن.

فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة فنفع الله بذلك أهل الحرمين وسمي خليج أمير المؤمنين.

ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه بعد عمر بن عبد العزيز ثم ضيعه الولاة بعد ذلك، فترك وغلب عليه الرمل فانقطع فصار منتهاه إلى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القُلْزُم.

هذا مثال من مقدرة عمرو الإدارية الفائقة...

نَفَّذَ المشروع الكبير... وشَقَّ خليجًا أي رَيَّاحًا كبيرًا من النيل إلى البحر الأحمر في أقل من عام!!!

حَفْر ترعة أكثر من ١٢٠ كم في الرمال في أقل من سنة!!!

إنَّ عقل عَمْرو عقل إنشائي بديع خطير!!!

عَمْرو حاكم مصر وإفريقيا... يستعد ليُضْرب مائة سوط؟!

يعجب الناس: كيف ارتضى المصريون حُكْم عَمرو لمصر على اختلاف عقائدهم؟!

وإليك أقصوصة أو أعجوبة من أعاجيب عُمر... وأعاجيب عَمْرو!!!

قالوا:

كتب عُمر مرة إلى عماله (حكام الأقاليم) أن يوافوه جميعًا في موسم الحج...

فوافوه...

فقام فقال: أيها الناس!...

إني والله ما أبعث إليكم عمالي ليضربوا أبشاركم... ولا ليأخذوا أموالكم...

ولكن أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم... وسُنَّة نبيكم...

فمن فُعِل به سوى ذلك فليرفعه إليّ...

فوالذي نفسي بيده لأقصنَّه منه!!!

فوثب عمرو بن العاص فقال:

يا أمير المؤمنين... أرأيت إن كان رجل من المسلمين واليًا على رعية فأدّب بعضهم... إنك تقصُّه منه؟!...

قال: إي والذي نفسي بيده لأُقُصنَّه منه... وقد رأيتُ رسول الله (ﷺ) يقصّ من نفسه...

ألا لا تضربوا المسلمين فَتُذِلّوهم...

ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم...

ولا تنزلوا بهم الغياض فتضيّعوهم...

فقام رجل من الناس... فقال:

يا أمير المؤمنين عاملك ضربني مائة سوط؟...

فقال عُمَر: أتضربه مائة سوط؟...

قُم... فاستقدْ منه!!!

فقام إليه عمرو بن العاص فقال: دعنا إذن فلنُرضه...

فقال: دونكم!!!

فأرضوه بأن اشتُريثْ منه بمائتي دينار...

كل سوط بدينارين!!!

أقول:

ولو أصرَّ الرجل على القِصاص... لأمكنه أمير المؤمنين من ضرب عَمرو مائة سَوْط!!!

لقد كان عمرو حاكم مصر آنذاك... مستعدًا في تلك اللحظة لأن يُضرب

مائة سوط... لولا أن الرجل رضي بمائتي دينار تعويضًا!!!!

فكيف لا يرضى المصريون بعد ذلك حُكْم عمرو... حُكْم الإسلام لمصر؟!

خلاصة شخصيته؟!

والآن... وفي مسك الختام...

ما هي خلاصة شخصية عمرو بن العاص؟!

خلاصتها أنه:

رجل قرشي استأخر إسلامه إلى سنة ثمان من الهجرة...

رفعه (ﷺ) إلى قيادة سرية ذات السلاسل مباشرة..

وهذا دليل على أن الرجل كان مؤهلًا ليعمل قائدًا وأميرًا!!!!

ثم زاده (ﷺ) تشريفًا حين أرسله في نفسِ السنة إلى جَيْفر وعَبّاد ابنَيْ الجُلَنْدي بعُمان... فآمنا وصدَّقا على يديه... وهما ابني مَلِك عُمان...

ثم أقامه (ﷺ) على الصدقة في تلك الإمارة!!!

فلما كانت حروب الردَّة... عقد أبو بكر له لواء وأرسله لمحاربة قضاعة... فأبلى في تأديب قضاعة أحسن بلاء... ولم يرجع عنها إلا وقد سَلَّمت بحق الزكاة... وثابت إلى شرعة الإسلام!!!

فهو شخصية ظافرة ناجحة على الدوام!!!

فلمّا كانت فتوح الشام سنة ثلاث عشرة أقامه أبو بكر قائدًا لفرقة من تسعة آلاف مقاتل وأمره أن يغزو فلسطين...

فأرسل الرومان إليه جيشًا يقاتله وكان تسعين ألفًا بقيادة تذارق...

وتأمَّل هنا شجاعة عمرو الخارقة... يواجه تسعين ألفًا بتسعة آلاف... أي ١ إلى ١٠!!!!

كما قال القرآن العظيم!!!

﴿... إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

وها هنا في قيام عمرو بجيشه في تسعة آلاف يواجه تسعين ألفًا نجد نفس النسبة متحققة...

إن يكن منكم تسعة آلاف صابرون يغلبوا تسعين ألفًا!!!

وقد تحقق هذا فعلًا وعمليًا في معركة اليرموك... حين انضمت قوات عمرو إلى سائر قوات المسلمين... فكانوا أربعين ألفًا فغلبوا الرومان وكانوا مائتين وأربعين ألفًا!!!

إنَّ عَمْرًا ليس هيِّنًا... إنه قائد جسور عظيم!!!

فلمَّا استقرَّ الرأي على توحيد القيادة العامة للقوات الإسلامية المسلحة بالشام وتولاها في اليوم الأول خالد بن الوليد... ونظَّم خالد قواته أربعين كردوسًا (فرقة) كل كردوس نحو ألف مقاتل... جعل عَمْرًا قائد عام الميمنة... وكان عَمْرو يقود بذلك عشرة آلاف مقاتل!!!

إلا أنه كان يأمل أن تكون له القيادة العامة غدًا أو بعد غد... لولا أن سيف الله المسلول حسم المعركة في يوم واحد... فأطار من عَمْرو شرفًا مأمولًا!!!

وخطب الفارس عمرو في جنوده في تلك المعركة فكان مما قال: «فَثِبُوا في وجوههم وثبة الأسد»!!!

وإذا كان عمرو يطلب من جنوده أن يثبوا وثبة الأسد... فإنه يلزم أن يكون قائد هؤلاء يثب وثبة ألف أسد!!!

ثم كانت معركة أجنادين بين عمرو وقواته... وبين أرطبون الروم وداهيتهم وقواته...

وجاءت الإمدادات الحربية إلى عمرو... فبعث بعضًا منها إلى إيليا (القدس) والرملة...

ثم سار في القوى الكبرى لجيشه يلقى أرطبون بأجنادين...

والتقى الجمعان... عمرو وجيوشه... وأرطبون وجيوشه...

وبلغت الشدة بأجنادين ما بلغت باليرموك...

وكثرت القتلى من الجانبين... وانهزم أرطبون الروم وسحقه أرطبون العرب...

وتقهقر بقايا جيشه إلى بيت المقدس...

ثم رأى أرطبون أن المدينة تستسلم... فانسحب بقواته إلى مصر!!!

فأدرك عمرو بثاقب فكره... هدف انسحاب أرطبون إلى مصر... وهو معاودة محاربة المسلمين فيها بعد تنظيم الرومان لصفوفهم...

فقطع عَمرو عليه خط الرجعة وألحَّ على أمير المؤمنين عُمر أن يأذن له بفتح مصر ليسحق أرطبون وقواته التي تقهقرت إليها... قبل أن تفيق من الهزائم!!!

إنه عَمْرو داهية العرب ثم داهية الإسلام!!!

رجل دولة من الطراز الأعظم!!!

تتجلى مواهبه السياسية في المآزق والمخاطر التي يحار فيها الرجال!!!

ثم دخلت سنة خمس عشرة وفيها فتح عمرو باقي مدن فلسطين...

وفرَّ أرطبون إلى القدس... وقد حاصرها عمرو...

وهاهنا يمكن لشخصية عمرو بن العاص أن تفخر على الزمان...

إنه القائد العربي المسلم الذي حاصر بجيوشه أعظم مدينة مقدسة في العالم عند أهل الكتاب...

هاهو يحاصرها... وها هي تستسلم إلى أمير المؤمنين عُمر!!!

امتطى أمير المؤمنين فرسه... ودخل به بيت المقدس... ومعه عدد من قواده!!!

ثم كانت أعظم أعمال عَمرو على الإطلاق... وهو فتح مصر!!!

أو فتح إفريقيا لأول مرة أمام الإسلام...

وتفاصيل هذا العمل العظيم أكبر من أن يحصيها كتاب...

وقد مرَّ خلال هذا الكتاب شيء منها... يعطي فكرة مختصرة!!!

وقد تجلت مواهب عمرو الحربية في فتح مصر أعظم التجلي...

ويكفي أنه سحق الرومان بأربعة آلاف!!!

ثم تجلت مواهبه في الحكْم والسياسة في السنين العشر التي حكم فيها مصر في عهد عمر... وعثمان... ثم معاوية!!!

فكان أعظم بيان إسلامي عملي أمام العالم كله...

أنه ليس أحسن من الإسلام دينًا ودولة!!!

ولا أعدل منه حُكْمًا وسياسة!!!

وشهد له الفاروق بذلك!!

والمصريون كافة بعد ذلك!!!

ثم كانت خلافة عثمان... فأمَّره على مصر أربع سنين أو نحوها... ثم عزله عنها وعن جميع مناصبه فيها!!!

وكان هذا العزل سنة سبع وعشرين!!!

وفي سنة خمس وثلاثين... بويع أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب...

وكان عمرو بن العاص... قد سار عن المدينة... قبل أن يُقتل عثمان... نحو فلسطين...

فسمع أن معاوية بالشام لا يبايع عليًا... وأنه يعظم شأن عثمان...

ثم خرج ومعه ابناه... حتى قدم على معاوية!!!

ثم كان ما كان منه من مواقف في الفتنة الكبرى... وفي معركة صِفِّين... حتى كانت منه غَدْرة التحكيم!!!

ولا نفيض فيها... فهي جُرْح أليم!!!

وقد مَرَّ بالكتاب عنها ما يكفي لإثارة الأشجان والأحزان!!!

وقد ترجح عندنا رأي ربما يكون غير مسبوق...

خلاصته أن عَمْرًا تأكد عنده بحاسته السياسية الخارقة...

أن الزمان لم يعد زمان الخلافة... وتطبيق كتاب الله وسُنَّة رسول الله (ﷺ)... تطبيقًا حرفيًا...

وإنما الأمة اتسع أمرها... وأصبحت تتكون من أخلاط لا أول لها ولا آخر من الأمم ذات العقائد المختلفة... وأن أغلب هؤلاء عوام لا يفقهون شيئًا ولا يعقلون...

وأن الصحابة والتابعين أصبحوا بالنسبة إلى هؤلاء أقل من ١٪ فلا تأثير لهم على الأحداث إذا تحزَّب هؤلاء عليهم...

وأن الحاكم الذي سوف ينجح في حُكْم أمَّة وسعت الكرة الأرضية بمن فيها وأكثرهم ليسوا مسلمين... يتحتم أن يكون بَحْرًا مَوَّاجًا يسع هؤلاء جميعًا... بمكرهم وخداعهم وإجرامهم وما يمكرون!!!

وأنه لذلك كله... ولما تعلَّمه عمليًا عمرو بن العاص أثناء حُكْمه مصر وإفريقيا... وكيف ساسها بما تقتضي المصلحة أن تكون...

من أجل ذلك كله تأكد عند عمرو أن الجولة القادمة ليست لحُكْم الخلافة الرشيدة... ولكن للمُلْك والدنيا...

فاختار العمل مع معاوية...

وقال له وهو يبرم معه اتفاقًا:

«أما والله...

«إن قاتلنا معك... نطلب بدم الخليفة... إن في النفس من ذلك ما فيها!!!

«حيث نقاتل مَن تعلم سابقته... وفضله... وقرابته!!!

«ولكنّا إنما أردنا هذه الدنيا»!!!

﴿قُل اللَّهُمَّ... فَاطِرَ السَّماواتِ والأَرْضِ... عالمَ الغَيْبِ والشهادَةِ... أنتَ تَحْكُمُ بينَ عِبَادِكَ في مَا كانوا فيهِ يَخْتَلِفُون﴾!!!

عبدالله...

ابن عمرو..

ابن العاص؟!

مِنْ تمام الفائدة في هذا الكتاب أن نلحق به شيئًا عن حياة «عبدالله بن عمرو»... حيث أنه شارك أباه... على كُرْه... في معركة صِفِّين... وكان في حيرة مِن أمره: أيعصي أباه... أم يشارك في القتال؟!!

جاء في أُسْد الغابة في معرفة الصحابة:

عبد الله بن عمرو؟!

عَبْدُ اللهِ بنُ عَمْرو بن العاص...

يكنى أبا محمد... وقيل: أبو عبد الرحمن... وكان أصغر من أبيه باثنتي عشرة سنة...

كان فاضلًا عالمًا؟!

أسلم قبل أبيه...

وكان فاضلًا عالمًا... قرأ القرآن والكتب المتقدمة...

واستأذن النبي (ﷺ) في أن يكتب عنه...

فأذن له...

فقال: يا رسول الله... أكتب ما أسمع في الرضا والغضب؟...

قال: «نعم... إني لا أقول إلا حقًا»...

قال أبو هريرة: ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله (ﷺ) مني...

«إلا عبد الله بن عمرو بن العاص...

«فإنه كان يكتب ولا أكتب»..

وقال عبد الله: حفظت عن النبي (ﷺ) ألف مثل.

في كم أقرأ القرآن؟!

«عن عبد الله بن عمرو قال:

«قلت: يا رسول الله... في كم أقرأ القرآن؟...

«قال: اختمه في شهر.

«قلت: إني أطيق أفضل من ذلك؟..

«قال: اختمه في عشرين.

«قلت: إني أطيق أفضل من ذلك؟...

«قال: اختمه في خمس عشرة.

«قلت: إني أطيق أفضل من ذلك؟...

«قال: اختمه في عشر.

«قلت: إني أطيق أفضل من ذلك؟...

«قال: اختمه في خمس.

«قلت: إني أطيق أفضل من ذلك؟...

«قال: فما رَخَّصَ لي.»

إنَّا اليوم مالت بنا الدنيا؟!

قال مجاهد:

أتيت عبد الله بن عَمْرو... فتناولت صحيفة تحت مَفْرِشِه...

فمنعني!!!

قلت: ما كنت تمنعني شيئًا!..

قال: هذه الصادقة...

«فيها ما سمعت من رسول الله (ﷺ)...

«ليس بيني وبينه أحد...
«إذا سلمت لي هذه...
«وكتابُ الله...
«والوَهْط...
«فلا أبالي علام كانت عليه الدنيا؟
والوَهْط: أرض كانت له يزرعها[1].
وقال عبد الله:
لَخَيْرٌ أعمله اليوم أحَبُّ إليّ من مثليه مع رسول الله (ﷺ)...
«لأنا كنا مع رسول الله (ﷺ) تَهُمُّنَا الآخرة... ولا تهمنا الدنيا...
«وإنَّا اليوم مالت بنا الدنيا»!!!

أزمة نفسية طاحنة... تهتصر عبدالله بن عمرو؟!

وشهد مع أبيه فتح الشام!!!
وكانت معه راية أبيه يوم اليَرْموك!!!
وشهد معه أيضًا صِفِّين!!!
وكان على الميمنة...
قال له أبوه: يا عبد الله... اخرج فقاتل...
فقال: يا أبتاه... أتأمرني أن أخرج فأقاتلَ...
«وقد سمعتَ رسول الله (ﷺ) يعهد إليَّ ما عَهد؟!...
قال: إني أنشدك الله يا عبدالله... ألم يكن آخِرُ ما عهد إليك رسول الله (ﷺ) أن أخذ بيدك فوضعها في يدي... وقال: أطع أباك؟!..
قال: اللهم بلى...
قال: فإني أعزم عليك أن تخرج فتقاتل...
فخرج فقاتل... وتقلد سيفين!!!

(١) الوَهْط: أرض بالطائف.

وندم بعد ذلك!!!

ما لي ولقتال المسلمين؟!

فكان يقول: ما لي ولِصِفّين؟!... ما لي ولقتال المسلمين؟!... لَوَدِدْتُ أني مُتّ قبله بعشرين سنة!!!

وقيل: إنه شهدها بأمر أبيه له... ولم يقاتل!!!

قال ابن أبي مُلَيكة: قال عبد الله بن عمرو:

أما والله ما طَعَنْتُ برمح.. ولا ضَرَبْتُ بسيف... ولا رَمَيْت بسهم... وما كان رجل أجهد مني... رجل لم يفعل شيئًا من ذلك!!!

وقيل: إنه كانت الراية بيده وقال:

قَدَمت الناس منزلة أو منزلتين.

الحُسَين – عليه السلام – يقول لعبدالله بن عمرو: فما حملك على أن قاتلتني وأبي يوم صِفّين؟!

عن إسماعيل بن رجاءٍ... عن أبيه قال:

«كنت في مسجد رسول الله (ﷺ)...

«في حَلْقة فيها أبو سعيد الخدري... وعبدالله بن عَمْرٍو...

«فمر بنا حسين بن علي... فسلم...

«فرد القوم السلام...

«فسكت عبد الله حتى فرغوا...

«رفع صوته وقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته...

«ثم أقبل على القوم فقال: ألا أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء؟..

«قالوا: بلى...

«قال: هو هذا الماشي...

«ما كلمني كلمة منذ ليالي صِفِّين!!!

«ولأن يَرْضَى عنِّي أحَبُّ إليَّ من أن يكونَ لي حُمْرُ النَّعَمِ...

«فقال أبو سعيد: ألا تعتذر إليه؟...

«قال: بلى...

«قال: فتواعدا أن يَغْدُوا إليه...

«قال: فغدوت معهما...

«فاستأذن أبو سعيد... فأذن له...

«فدخل...

«ثم استأذن لعبد الله...

«فلم يزل به حتى أذن له!!!

«فلما دخل... قال أبو سعيد:

«يا ابن رسول الله... إنك لَـمَّا مررت بنا أمس...

«فأخبره بالذي كان من قول عبد الله بن عمرو...

«فقال حُسَين:

«أعلمتَ يا عبد الله أني أحب أهل الأرض إلى أهل السماء؟...

«قال: إي وَرَبِّ الكعبة!!!

«قال: فما حملك على أن قاتلتني وأبي يوم صِفِّين؟!...

«فوالله لأبي كان خيرًا مني...

«قال: أجل...

«ولكنْ عَمْرٌو شكاني إلى رسول الله (ﷺ)...

«فقال: يا رسول الله... إن عبد الله يقوم الليل ويصوم النهار...

«فقال لي رسول الله (ﷺ):

«يا عبد الله... صَلِّ ونَمْ... وصُم وأَفطر...

«وأطعْ عَمْرًا»...

«قال: فلما كان يوم صفين أقسم عليّ فخرجت...

«أما والله ما اخترطت سيفًا... ولا طعنتُ برمح... ولا رميت بسهم...
«قال: فكأنه.»!!!

وفاته؟!

وتوفي عبد الله سنة ثلاث وستين...
وقيل: سنة خمس وستين... بمصر... وكان عمره اثنتين وسبعين سنة!!!

* * *

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

فهرس

ماذا في هذا الكتاب !!

فيه حياة فاتح فلسطين... والقُدْس... ومصر... وشمال إفريقيا... والنوبة!!!
أشار على أمير المؤمنين بفتح مصر... ثم فتحها بأربعة آلاف... وكان للرومان بها أكثر من مائة ألف جندي... وواصل الزحف وكاد أن يبلغ المحيط الأطلنطي لولا أن منعه أمير المؤمنين!!!

فلما أمدّه عُمر بأربعة آلاف أخرى... فتح الاسكندرية عروس العالم آنذاك... وسحق فيها خمسين ألفًا من الرومان!!!

داهية العرب... الذي قال عنه الأرطبون داهية الروم: هذا أدهى الخلق!!!

رجل دولة كأعظم ما يكون رجل الدولة!!!

حكَمَ مصر... وشمال إفريقيا... والنوبة عشر سنين... وطَبّق فيها حُكْم الإسلام... فشهد له الجميع بحُسْن السياسة... وعدالة الإسلام!!!

فيه حياة... أبو عبد الله... عمرو بن العاص!!!

الذي قال فيه عُمر بن الخطّاب: «لا ينبغي أن يمشي أبو عبدالله على الأرض إلا أميرًا»!!!

